بشرى محمد أبو شرار

من هنا .. وهناك

رواية

بشرى محمد أبو شرار

من هنا.. وهناك..

رواية

تدقيق لغوي/
عادل أبو الأنوار

تصميم الغلاف للفنان التشكيلي / ماجد شلا
غزة ـ فلسطين

لوحة الغلاف للفنان/ إسماعيل شموط "من أجل البناء"
الرسوم الداخلية للفنان/ أحمد الأسيوطي
الفنان/ ناجي العلي
الفنان/ يوسف فرنسيس
الفنان/ محمد حجي

مطبوعات القصة
تصدر عن ندوة الاثنين بالإسكندرية

إشراف
عبد الله هاشم

السكون موت .. الإغفاء موت .. الذهاب للقيلولة موت ..

الحروف المنتزعة من دمنا هى الباقية ..

زكي العيلة

الإهـــــــداء

من أدماني فراقه ... أبي
من قتلته كلماته ... ماجد
من قتلته رسوماته ... ناجي العلي

بشرى أبو شرار

من هنا.. وهناك..

تـأتيني الصـور والمشـاهد عبـر مجـرى نهـر .... أوراق خضراء .... عيدانٍ طافية.. هائشة ... زهيرات سوسنية ... تتهادى متراقصـة علـى صـفحات رافده تغنـي للشـوق .... للروح .... للسماء .... للأرض .... تدفعها النسمات لتـأتيني بـأطراف الحكايـات لصـور هائمـة منسـابة .... تسـتلقي للنسـائم.... تبحـث لهـا عـن حـواف تتعربش عليهـا .... تتلقفها عيناي لتستقر فيها .... أمد يدي للنهر التقطها فما أشد شوقي إليها ....

القلـم يحـن والمـداد ينسـكب علـى ورق ينتظـر بـاقي الحكايات ، المحمولة على صفحات نهر.

الفصل الاول

ورأتـها

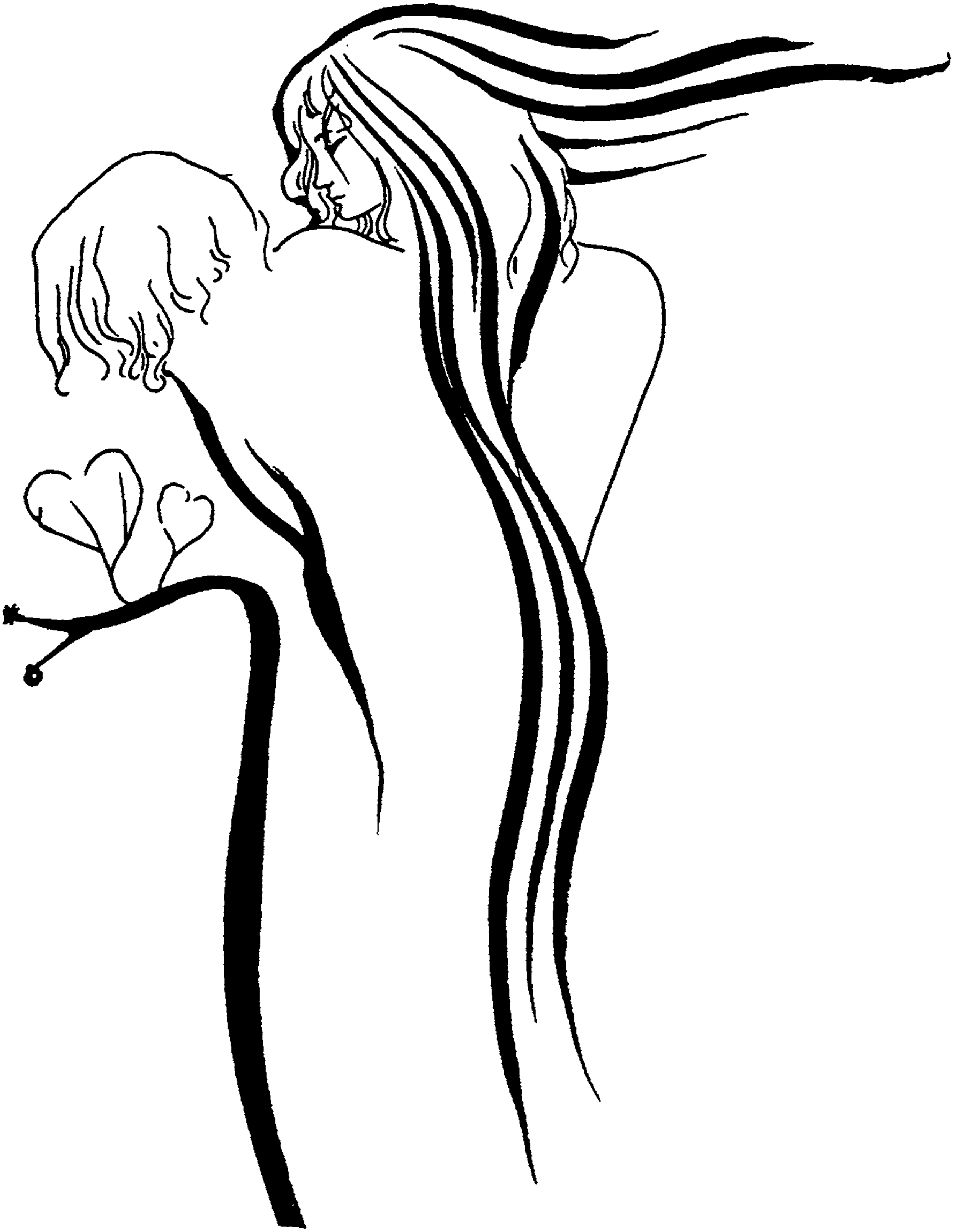

نامت جميلة ، سافرت في منامها بعيداً ، دخلت أمها حجرتها ، تأملتها طويلاً ، وحين عادت من نومها اقتربت منها تجلس على طرف سريرها هامسة لها :

- بنيتي .... رأيت طائر الأحزان فارداً جناحيه على قسمات وجهك في غفوتك .

رفعت جميلة جسدها تحاول النهوض ، تتأمل حوائط حجرتها وملامح وجه حنون قريب منها ، تود لو تسأل أمها :-

كيف كشفت عن حزني حين غافلتني لحظات النوم ؟! وأى حزن هذا الذى رأته؟!.. أم أن طائره جعل من قسمات وجهي عشاً ومأوى.

الفصل الثاني

نقطة مرور

سيارة جميلة تجوب طرقات مدينتها .... تعرف الأزقة وطرقات تحاذي النيل فيغرق في عينيها .... من وراء مقود سيارتها ترى كل المشاهد ، حواجز أقيمت على الطرقات .... تتذكر أن رخصة قيادتها منتهية ، ولكنها لم تتوقف عن قيادتها يوماً واحداً ، بقلب جسور تمر على الطرقات ، تصافح نسماتها، تحكي لها حكايات من الأساطير وقلب الزمان ، وحكايات لازالت قابعة في صفحات الغيب البعيد ....

في يوم من أيام لم تدون بعد ، وقع الجدار وعلا الردم ممزوجًا بالدم.... واللحم .... وذكريات لازالت صغيرة وهدايا منقوش عليها بحروف كلمات ستحملها حقائبهم حيث هناك ... طار الخبر محلقًا في سماء سيناء العنيدة المتحدية .... عبر القنال .... الإسماعيلية.... الجيزة .... لتنام مصر على هم ثقيل ، لم يعرف الجميع ما الذي حدث هناك على آخر حدود الوطن العائد .... فلم تزل آثار الدماء تسكن المآقي ورصاص دمدم يفتت في عظام الأطفال وجماجمهم، و مشاهد حية لم تمت ، حين حمل ناصر تلك الطفلة التي لم يظهر منها سوى أطراف لأقدام مدلاة وساعد يصافح نسمات هواء معبقة برائحة الدواء والمخدر .... تسرى جرعاته بكثافة لتكتم صرخات أطفال لم يتعلموا كيف يكتمونها وتحبسها أجسادهم ، ورأس تلك الطفلة التي ألقيت على السرير ، تقلب على وجهها ولم تصرخ.... لم تستغث .... بل عانقت بوجهها مشمعاً سميكاً سالت عليه دماء ودماء

فلم تصرخ .... لم تصرخ .... تعبث أيدي الأطباء في مؤخرة رأسها ، ليضغط واحد ، ويثبت آخر الرأس ويسحب ثالثهم رصاصة ، رصاصة دمدم لم تطاوعها عزيمتها أن تتفجر في مؤخرة تلك الرأس الطفلة .... تنتزع يده الرصاصة .... تتلقفها أخرى تلفها بالشاش، ويقلب جسدها ليطالعوا بشغف وولع قلق وجهها .... لازال المشهد حياً في رأس جميلة .... وابتسامة طفلة من عناق الدم الدافئ .... ابتسامة من قوة تسكن مؤخرة رأسها .... قوة منعت رصاصة دمدم أن تتفتت فيها ....

واليوم تنام القاهرة على حكاية ملؤها الدم .... الدمار .... وأيد تلم بقايا من لحم قد يدلهم على أصحابه .... ولكنها تعرف وجوه أطفال مخيم جباليا .... تحفظ ملامحهم .... تحفظ ألوان ملابسهم .... وأصوات ضحكاتهم .... بكاءهم .... وحجم الفزع حين يعلو الصراخ....

(عبد الله تايه) وخوفها من السؤال عنه في أتون الجحيم ، تعيش على أمل أنه لازال هناك باقياً معهم ، وحقيبة سفره ، أفرغ ما فيها ، فلم يعد للسفر طريق .... تصحو القاهرة على أناس لم يعرفوا أهو ليل جاء إليهم أم نهار ولى عنهم ؟.... تعج الطرقات برجال الأمن .... تنصب الحواجز والمتاريس وأيد تشير للمارين بالوقوف .... تفتيش... إبراز تصاريح ، رخص للمرور وتفكر جميلة أن حان الوقت لتجدد رخصة عبورها .... تبدأ يومها متجهة إلى منطقة

التراخيص تحمل أوراقها، عقدت عزيمتها لتأخذ مكاناً لها وسط تزاحم الجمهور أمام الفتحات الزجاجية المقامة فوق الحواجز ، لحظات الانتظار طويلة تسير نحوها بحذر وتباطؤ ، تعيشها جميلة وتقطف براعم صبرها التي أينعت من جذور شجر الصبار على مداخل وطنها حين تعود الجموع وحين ترحل .... وما إن بدأت تستسلم لمشاهدها البعيدة حيث تؤنسها في وقفتها ، حتى وجدت نفسها أمام الفتحة الزجاجية تمد يدها من خلالها، ورجل يتناول أوراقها ينظرها ، رفع رأسه مخاطباً:

- من أين أنت ؟

صمتت .

وعاد صوته يرتفع أكثر :

- من أين أنت ؟! ....

نظرت لأوراق لها يمسكها بيده فحالت غربتها بينهما وتعثرت في إجابة لم تأتِ إليها في تلك اللحظة الثقيلة .... لم تنطق .... ولم يعلُ صوتها مجيبة الرجل الجالس خلف الزجاج .... فلسطينية .... أردنية.... مصرية .... لم تنطق ، نظرت إلى راحة يدها فلازالت ممسكة ببقية من أوراق ، ناولته إياها في صمت مهزوم ، قطعه ارتطام الختم الذي دق به على أوراقها ، وناولها إياها :

- اذهبي إلى الشباك الأخير لتضعي ختمًا آخر.

ارتدت بخطواتها إلى الوراء لتجد نفسها وسط الصالة الكبيرة تذوب وسط الزحام ، تطوف بعينيها الشبابيك وكل طاقة تقف خلفها أعداد تتزاحم لأجل الوصول إلى تلك الفتحة الضيقة التي تدخل من خلالها راحات أيديهم الممسكة بهويات تدل عليهم وفراغ يبتلعهم ، يمتص ما تبقى منهم وهى التي لا تجيد دسّ جسدها بين الجموع تزاحم لتصل وكيف لها بالوصول ، عادت تنظر للزجاج وما خلفه كان الرجل يلوح لها بيده أن أعطني أوراقك ، تقدمت نحوه رافعة يدها بأوراقها فتناول منها من يتقدمها ليعطي لآخر .... وآخر .... حتى وصلت إلى الرجل الواقف خلف الزجاج ويدق بالختم الأخير ويعيد لجميلة أوراقها وسط ابتسامة رسمت على وجه حنطي كانت تفصلها عنه مسافة تعج بالأجساد المنهكة ، وحواجز زجاجية تحمل فتحات من الفراغ تضيق وتضيق حتى تكاد تقبض على الراحات الممدودة ، تحمل أوراقها العائدة إليها وسؤال يلاحقها :

لِمَ تلعثمت حين سألني من أين أنت ؟ .... ما الذي أصابني ؟! ....

ومن أكون أنا ؟! .... ترى ما الحال التي آلت إليه ؟! ....

هل فقدت هويتي ؟ .... لم أنا حزينة؟ .... حزن أسمع صوت انفجاراته في صدري لحظة سألني من أين أنت ؟ .. ركنت إلى حافة جدار واطئ ، تنهدت ملء أنفاسها المحبوسة .... رفعت رأسها لقرص الشمس فثقلت خيوطها على أهدابها .... عادت تنظر أوراقها

وتتلفت حولها وتعود حيث فضاء الكلمات التي لازال دفء لقائها مع صديقتها اليابانية يسري في أذنيها حين تحدثت إليها

- كيف ستكون النهاية لقضيتكم ؟....

- ربما مائة .... ثلاثمائة عام .

التفتت لكلماتها مندهشة :

- أنا لا أفكر بهذه الطريقة .... لك نفس طويل يا جميلة .... بل لكم جميعكم .... حين سألت رجلاً من بلدتك ، كان جوابه لي مثلك تماماً .

- الشعوب لا تموت .... أنسيت هيروشيما .... نجازاكى .

- نعم .... وعشنا .... ولازلنا .

ردت بنبره أسيانة :

- من كمبوديا .... هانوي .... سايجون يا صديقتي ، الطفلة هي الطفلة ، حين سقطت قنابل النابالم وهرولت تلك الطفلة عارية عبر الطرقات المفتوحة على الجحيم ، كان صراخها يصل إلى آخر حدود الأرض .... عارية الجسد ، بعد أن التهم النابالم ما يسترها ، لازال بكاؤها مدويا في أذني .... وجسدها لازال ملتهباً عارياً .... وطفلة هناك ترقد في سرير، جسدها بات بلون الرصاص .... وأخرى تجاورها تنظر لأختها كيف تبدل لونها القرمزي الشفاف إلى دخان رصاص البنادق .

أقامت جميلة جسدها قابضة على رخصة قيادتها .... آخذة طريقها من نقطة مرور أبيس .

الفصل الثالث

تأشيرة دخول
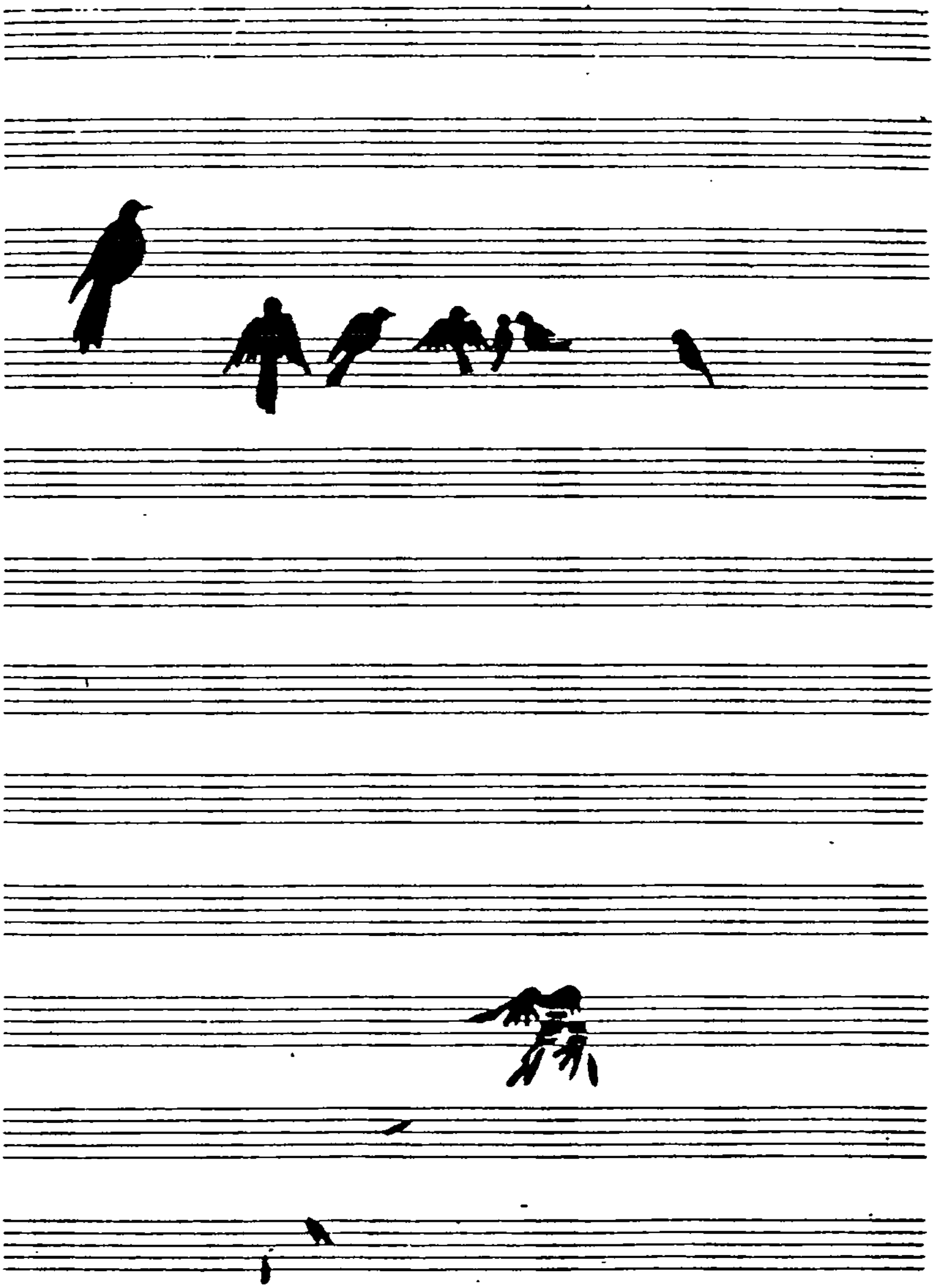
كان كل ما يدور في رأسها منذ عودتها من عمان متابعة ذلك المؤتمر الذى سمعت عنه في آخر زيارة لها لجريدة الدستور ، مضت تشق طريقها تاركة مقر الجريدة .... وكيف وقف موسى حوامده ، وجهاد هديب مودعين لها ، مشيراً موسى لها بيده :

- في الأسكندرية نلتقى يا جميلة .

وكلماته في لحظات الوداع :

- ينتابنى شعور أننى أعرفك منذ سنوات بعيدة..

- وانا ايضاً ..

موسى حين عرفها بنفسه قائلاً :

- انا من قرى الخليل بلدتى " السموع "

ذكّرها اسم مدينته بساحة الباصات حين كانت تقف في محطتها الرئيسية في قلب مدينة الخليل، كانت تقرأ اسماء قرى الخليل من ساحة الباصات "السموع" محفورة في لوحة الاسماء المضيئة .... حيث كانت تقفز بنظراتها داخل الباص لتكتشف ملامح لوجوه تود لو تعرفها فتتوه بين الظاهريه... يطه... حلحول .. بيت أومر ..الفوار... الريحية... بنى نعيم .... وتظل تلك العينان تتقافزان عبر الشبابيك المفتوحة .... حيث أجساد الرجال .... الشباب ، الجميع تحدوهم مشاعر العوده، وتلك المرأه المتشحه بثوب كنعان حين كانت تأخذ مكانها في الباص بجوار النافذة المطلة على الساحة ، لا تلبث ان تسند رأسها على راحة يدها ونسمات الخليل على موعد معها حين

تصافح " غدفتها" وملامحها الناطقة بأننى الكنعانية المغلفة بالأسرار والحكايات ، تغمض لها جفونها وتسافر ملامحها بعيدا عبر زجاج الباص الفاصل بينها وبين جميلة الواقفه تحمل سلها تنتظر باص يقلها إلى قريتها " دورا " ، زجاج الخليل الملون دوما بالدم ورسومات على أثواب من آرام وكنعان وتسأل جميلة .... من أين جاءت تلك المراه وإلي أين هى راحله ؟! .... أظنها نزلت من عين سارة وعبرت إلى حارة القزازين وجهها أراه .... أراه كلما نزلت سوق الخليل من قلب المدينة ....

واقفه جميلة في ساحة الباصات المانجه بالحركه بجوار مقبره تعتلى الربوه ، ساكنيها لم يكفوا يقرأوا صفحات من يوميات الخليل ويدون التاريخ وتذكر اجيالاً من اقتلاع .... غرباء يدوسون على الارض يقلبون ويبعثرون ما يلاقوه أمامهم .... البسطة الخشبية مقلوبة في عين جميلة التى حفظت كل ما كان .... وكيف بعثر عنب الخليل وحبات رمانه بلون الدم ومقبرة صخرية شاهده تدون يوميات من ساحة الباصات .... وقفته موسى أمامها مودعاً ذكرتها وعادت بها إلى الوراء سنوات كان يحتضنها وطن... باصات السموع .... ويد حكمت التى كانت دوماً في يد جميلة التى تعتلى بها درجات الباص حيث قريتها تنتظر على أعلى قمة جبلية ، وكلمات حكمت لها بأن الوقت قد يداهمهن وأن آخر موعد للباص هو مع غروب الشمس، كان يحمل غروبها آلام ودموع الفلاحات العائدات دون أن يبعن أو

يشترين حيث أيد عاثت وبعثرت وداست والقت .... كانت عودتهم مريره ولكن تظل في نفوسهن عوسجة لا تنثني أبداً ، وموعد مع شمس غد ، ومحركات باصات تصافح خيوطها ومن كل قرية تنحدر عبر سفوح الجبال إلى ساحة الباصات... عبر رحلتها تحمل أحلاما تطل على الطرقات حيث عودة مع غروب شمس وطنهم وذكرى أتى بها موسى من السموع ، اما جهاد الذى فتح لها اوارقه .... سألها وأجابته .... سألها عن الذاكره... عن المكان عن ما كتبت وما ستكتبه .... عن ادراج فتحتها وأفرغت كل ما فيها وأدراج لازالت مغلقة تنظر يدها التى تسحبها وتنقب فيها لتحكى عنها

(جهاد) و سرداب الذكرى من حارة القزازين ووقع اقدامها في ممرات التاريخ الطويل ، أجولة تحمل حصاد الأرض وعنوانها .... قمح وزيتون ... رمان وتين .. أعشاب وبذور من حارة القزازين من مدينة الخليل من عين سارة المطرز على ثوبها تفاحهاالأخضر .... الأحمر .... محال أغلقت وطرقات تؤدى اليها ، وكيف تمتد يد الغِرباء لتزيح غطاء رأس الرجل لتمرغه في أرض الأسفلت .... يقاوم .... ولكن تلك اليد تدفعه لينشحط على أرضه وخيوط شمسها تحمل قسمات وجهه الى مقبرة تعلو ساحة الباصات لتدون يوماً من أيام الخليل ، ووقفة عز الدين ولازالت رأسه تحمل كوفية .... حين أمسك بقميص ذاك المجند وشده اليه بقوةٍ أرخت ساعده الحاملة لسلاحه .... أمام كف تحمل ثورة يفجرها في ساحة الباصات التى

تعتليها مقبره تدون يوماً من أيام الخليل .... لازالت افكار جميلة محملة بالذكريات التى أثارها وجه موسى وجهاد

*****

من مداخل مكتبة الاسكندرية إلى قاعة المؤتمرات تنقل عليها خطوات غربتها.... يظل الوعد لموسى هو الدافع لها للذهاب إلى هناك ، تخرج مفكرتها ، تفتح صفحاتها ، تتأكد من تاريخ دونته فيها ، تاريخ المؤتمر وعنوانه الذى استوعبته ببطء على غير عادتها حين نطق لها به موسى " حرية التعبير " هى كلمة ام صرخة تدوى حيث حرية التعبير ، وتدخل الى البهو الكبير بأرضيته الرخامية تتوزع فيه الأبواب المتواربة على قاعات يحوم فيها هواءُ محمل بالبرودة لرياح الغرب .... كان حشد غير قليل في تجمع لوقت الراحة .... تشق جميلة طريقها بينهم تفتش عن موسى القادم من شرق النهر ، موسى الذى ودعها بكلمات قليلة :

- فيك ألفة ونقاء .... لا تطيلى الغياب يا جميلة حين ترحلين ، وزورينا في زيارتك القادمة .

ولكن في وسط التجمع الكبير وذاك الرجل الذى مر من أمامها .... إنه هو .... تظنه نظر اليها ولكن بعينين شاردتين ، يعلق شارة تحمل إسمه على صدره ، نادته :

- جابر

- مـن ... !!!! ... لا أصـدق .... جميلـة !! ..أنـا الآن لتـوى افكـر بالإتصال بك ، كيف لى أن أكون بالإسكندرية ولا ألتق بك ؟!!

- وأنا أيضاً غير مصدقة أن ألتقيك هنا !! ....

- حدثينى عنك وعن أخبارك ....

وأستطرد قائلا :

- لقد قرأت روايتك التى أرسلتها لى في العام الماضى ، وكم تـأثرت بمنمنماتها الجميلة التى أثارت في نفسى الشجن ... روايـة فـي قالـب فنى رائع ، وهذه تحسب لك يا جميلة .... ولكنى لم أكتب عنهـا .... أعدك أن أكتب عن عملك هذا .

شردت جميلة وانفلتت من حديثه الى سنة مضت منـذ التقت بـه فـي مؤتمر الروايه ، كان منشغلاً بتقديم ابحاثـه ودراساته التـى عن مـا كتب " غسان كنفانى " تداركت شرودها قائلة :

- عبد الله تايه روائى وقصاص .. قرأ لى وكتب أيضـاً ..سمعه نقـاد وأدبـاء .... وكيـف لملـم أعـواد ثقـابى وأشـعلها فأضـاءت نفسـى وللآخرين أنارت زوايا كانت خافية عنهم ، فما كـان منـهم إلا كلمـات اعجاب للجهد الذى قام به .

- نعم .... نعم .... عبد الله اعرفه ولكن علاقتى به ..

توقف ليعيد مواصلة حديثه .... وبدأت تلتفت اليه ، أكثر يوم تحدث عن روايتك .... ولعلمك أنـا الذى أوعزت لمقدم البرنـامج أن يعطيـه مزيدا من الوقت ليتحدث ويسهب فيما أعد من دراسته النقديه عنك .

لم ترق لجميلة تلميحاته .... ولكنها حرصت أن لا تظهر له عدم إرتياحها لهذا الأسلوب عبر ملامح وجهها ، وهى التى تدرك جيداً أن عبد الله يوم أن وصلته روايتها كان عن طريق صديقه " عز الدين " المهتم بكل جديد مما يقدمه الادباء ، فتشجع لعملها وقدمها له ليقول رأيه ، وحين قرأ لم يكن يعرف عنها ولم تعرف عنه ، ولكنها كلمات كتبتها ، فتقاسما الوجع على صفحات زمن لن تكون مطويه " من قمر في بيت دراس " .... لمن يدق الباب مع الذين يبحثون عن الشمس ، وحين سأله مقدم البرنامج :

- كنت أحسب انك ستقدم لنا عملاً آخر

- سيدي أنا الذى يختار ما يقدمه للآخرين في حيز من الوقت من المفترض أنه لى .

وتايه أيضاً يناضل في كلماته .... وكلمات جميلة من خلف الأسيجة وبين أوراق الصبار ، وأشواك دوما ناغزة للذاكرة ، لتتصلب عليها وتقف في فضاء الأرض حيث تذكر من عجلون .... مجدل .... عسقلان .... بيت دراس .... عنب الخليل ....

نظر إليها جابر محاذراً :

- أرى في عينيك الرفض والملامة !

تجيبه بنبرة صوت هادئة :

- من الشخصيات من يكونون إيجابيين وأنت قريب منهم ، وبمجرد أن ترحل عنهم ينسون أو يتناسون ، وتظل على اطراف ذاكرتهم

البعيدة . لم يعلق على اجابتها ولكنه ظل سادراً في حواره معها لأحاديث تحمل عناوين مفتوحة لنهايات مفتوحة .

- جميلة ألا تذكرين ما نصحتك به السنة الماضية بأن تقوى من لغتك الانجليزيه لتضعي يدك على منابع الادب بلغته الأم وليس من خلال المترجمات ، وتتعلمين حرفة الرواية.... وأظنك لم تكترثى بحديثى هذا .... تشترين قاموس اللغه وتقرأين روايات باللغة الانجليزية وفى خلال عام واحد تحصلين على نتيجة رائعة .

أرتسمت علامات الدهشة على وجه جميلة ، وحرصت أن لا تخفيها عنه:

- ولم الانجليزية بالذات ؟!! ....

- الرواية وصلت لعالمنا من سنوات قصيرة ، اما هم فخاضوا في غمارها منذ امد بعيد .

قاطعته متحفزة لكلماته :

- أنا أعرف أننا العرب الحكاؤون ، نجيد فن القص ولنا تاريخ من عيون التراث أذكر لك مثلا .... حين سألوا " خوسيه " .... لو حدث أن أنقطعت عن العالم في جزيرة نائية ماذا تحب أن تحمل في رحلتك هذه ؟ قال لهم (ألف ليلة وليلة) ، فتعلق قلبي بها ، وبدأت أبحث عنها واسأل أين أجدها ؟ .... إلى أن جاءني بها عثمان دون مقابل من ورقات نقدية حيث قال لي كلمتين وصمت... هديه عيد ميلادك ، حملتهم أرفف مكتبتي القريبة من سريري وكل يوم أو يومين أشد

جزءاً أقرأ فيه شهرزاد ودنيازاد .... السندباد البحري .... الأحدب والخياط ....

ثم بدأ يحاورها عن مدينته التى تعيش في داخله ، ويعيش فيها سواء كان هنا أو هناك ، هو لا يحمل معاناة .... بل يحمل مدينة غزة التي تعيش داخله ولم تعد لديه مشكلة !! .... تركز جميلة في كلماته وكيف يمنطق ويفلسف ما يحيط به ، مدت إليه كتابها تراقب حركاته وكيف يتفحص بعينيه أوراقه .... غلاف مجموعتها القصيصية .... يقلب ظهر الكتاب تطالعه صورة جميلة ، ويعود يقلب مرة اخرى ليرى أسلاك واقتلاع وريح سموم .... شدته من يده لتفتح له على قصته " لا .. لا " والرفض وكيف رفض عز الدين أبو صفية .... بدأت عيناه تتقافز على السطور ، سطور الحكاية .. ومن سرعة القفز أدرك خطأ أن جميلة كتبت عنه ، وأنه هو الذي دعاها للتعرف على وجه من العراق ، فعبس للسطور قائلاً لها :

- ما هذه الجملة ؟!! .... كان يجب إستئذاني حين كتبت .

- عفوا أنت لم تدعني للتعرف على هذا الوجه العراقي ، أنا التي سألت عنه وبحثت بين الجموع عن مكان قد أجده فيه .

اعتدل في جلسة وزفر انفاسه :

- أنت تعرفين أن تحركاتي وأتصلاتي محسوبة ، وهذا الوجه الذى كتبت عنه له تاريخ ومتغيرات في سيرة حياته ولم تغلق ملفاتة بعد .

ساد صمت وضباب من العراق .... من فلسطين .... مسافران حيث يلتقيان ليكونا غيمة واحدة ، وغيث قد يروى ارضاً باتت بعيدة..تذكر كلمات قرأتها عن مدن حجرية خانت وجعلت من مبدعيها غرباء ، وحيدين ، وهم الذين جددوا لها قلبها ، وتاريخها ، وخوف من اولئك الليليون وهم يغرسون بوعي وبلا وعي خنجر صدئا فى ظهر وطنا ممزقا .. ملامح وجه " الربيعي" الذي مازال يسهر ويكتب ويحترق من أجل نسمة هادئة تجدد رئة الوطن !.... وتتعذب وتشنق بحبل الإنتظار من أجل أن يغني طير جبلي على أرضه .....

ولكنه يعرف كيف يغير من مجرى نهر ليصب في ناحية اخرى ، ومجرى حديث مغاير .... حديث عن المرأة .... الذكورة .... الأنوثة... يقول لها :

- امرأة ورجل هما ضفتي نهر واحد .... وحين يعوم أحدهما يسبح وسط هاتين الضفتين ، وحين تكتب المرأه تكتب بكل كيانها وكل خلجة من خلجاتها .... تكتب من لواعجها واحتياجاتها الجسدية والنفسية التى يتمخض عنها عمل أبداعى ، خلق جديد تكون فيه الجسد والروح .

حديثه عن مجرى النهر .... الجسد والروح .... حملها بعيداً عن مجلسه عن كلمات هو سادر فيها... ذهبت الى مدينه تسمى " هنا" وليست مدينتها التى هناك ....

أعطيت زوجى عشرين عاما بلا حدود ، ولم أستطع أن أبنى لبنة في علاقة من خلال جسد أعطيه ، وهو أغلى ما لدى .... جسدي وعاز روحى أنا .... وفي آخر المشوار كان اللا شيىء ... ويوم تعبت وتقطعت أنفاسى أنتحيت على الطريق الطويل أفكر ، لم اعط جسدى؟.. ولاجل من ؟!! وهو الدره الحاملة لروحى الهائمة .... منذ متى وانا اعطى ؟ .... ومتى أكف عن تقديم جسد بلا روح ؟!! .... سامضى بجسدى الحامل لروحى هذه ولن أباعد بينهما ابداً ولن أسحقهما ثانية ، بل أنا هى تلك الهائمة في فضائها العريض .... روحى التى تحب .... تهفو .... تعانق .... تفى .... تود .... تعطى .... وتدفق في جسدها وتسأل من أين يبدأ هذا الجسد ؟! تتحرك لها أطراف يدها ودم لازال يتدفق عبر مجاريه .... هى أناملها .... التى تأتي اليها بأوراقها .... بقلمها تحصن إرادتها .... تلك الأرادة التى تقبض بها على أناملها ومن أطراف قدميها حيث تبدأ حركتها بكل عذاباتها ومسراتها .... تبدأ من هنا وبكف يدها تنتهي ، وتبقى لها ملامح وجه تتغير أمامها كمرآة تتجدد لها .... تحيا .... تموت .... تعلو .... تهبط .... تختفي .... لتبقى مرة اخرى ....

وتعود لمجلسه ترفع عينيها تنظر إليه لتجد نفسها قريبة .... بعيدة... تطالع عيون المارة لتجد أن العالم يتسع لها ولآخرين معها، تنهدت وأرخت جسدها على الأريكة .... زفرت فلم تعد تحتاج إلى هذا الآخر ليهدي اليها سعادة ، بل هي صانعتها ، وكيف لها أن

تستند إلى جدار الآخر لينهار بها ويأخذها إلى أغوار أرض تنسحق فيها ، ودت أن تنهض بقامتها ترفع رأسها تمد يدها الحاملة لأصابعها الخمسة متحدية.... متصلبة .... تمدها لمن يحتاج .... عطاءاً .... أما هي فلا تفكر في أن تحتاج إلى هذا الآخر الذي يتحدث عنه في عناوين تخص عالم الذكورة والانوثة .

بدأت تسترد وعيها بالمكان وبمن يحدثها ، تعود تستمع منه لما تبقى من أحاديث ، ولكنه ألقى لها بسؤال يحمل اجابة :

- أتذكرين من أحبوك ؟ .... أم أذكرك أنا يا جميلة ؟

- من ؟!

- أحدهم أقام بجوار بيتكم لأجل أن يراك حين تمرين ولو لدقائق

- لا أعرف عن هذه الحكاية ومن يكون هذا الشخص ؟!!

- ألا تعرفين من أحبوك وهوت قلوبهم

- فلتقل انت يا جابر

- ....

كم من قلوب احبتنى وقلبى انا لم يزل وحيداً .

- وكم أشعلت من نيران .... لم أكن اتصور ان يحبك اثنان من اخوتى في وقت واحد ، حين يأويان إلى فرشيهما كنت أنت الحلم الذي تتوسده أجفانهما .... أي سر يكمن فيك يا جميلة ؟! ....

أستوقفته عن تكملة حديثه :

- بل أنا سأكمل عنك باقي الحكاية .... غسان لاذ بصمته لم يصارح بحبه بل أكتفى بمراقبتي حين كنت أزوركم ، يمر من أمامي ليختفي ويعود يظهر في حركات سريعة مرتبكة .... أما رائد فكان يروق له الوقوف في غرفة الخبيز بجانب الفرن مسندا كتفه ورأسه على الجدار ثم ما يلبث أن يمضي تاركاً المكان ، كان يعيش مشاعره كجمرات متقده ولكنه ظل صامتاً لا يشاركنا حديثا بل مبتعداً بقلبه النابض بالحب ، يداريه عن أمه وإخوانه ، ولكن وسع حبه مدينته التى ظل يهيم في شوارعها ويبوح بالوجد والشوق على طرقاتها... غسان ورائد وثالث كان بينهما " بسام " حين كان يأخذ الارض زاحفا بجسده فى فناء الدار يشرئب برقبته وعيونه ليكون أول من يراني أطل على أول شارعكم ، فما إن يلمحنى حتى يعود زاحفا يمسح فناء الدار بجسده بلهفة الفرحة الغامرة لينقل خبر وصولى لمن بالدار .... كنت آنس بوجوده وبصحبته ، بنقاء قلبه وصفاء نفسه .... بسام هو الحب الذى غفلت عنه .... اما من تذكرهم أو ما تبقى منهم اين هم ؟!! وكيف حافظوا على حبهم ؟!!

- ليس كل حب ينتهي بالزواج يا جميلة ، في ذلك الوقت لم يكونوا مهيئين للارتباط بل عاشوا مشاعرهم الحقيقية

- أتعرف أن مشاعري الحقيقية وحبي الاول كان من المخيم .... مخيم أحببته .... ولن أنساه " الشاطىء " أقرب إلى امواج غزة الهادرة .... وقريب من باخرة جنحت على شواطيء مدينتنا فعلاها

الصدأ وغاصت في ترابها ، أعتمت وانطفأت أنوارها التي كانت تحمل أحلام عيون من المخيم حين تشق عباب بحرنا حيث مسيرة طويلة وبعدها وصول إلى مرفأ أمان ، هذه الباخرة تذكرني بحالي حين كفت الريح عن ملاحقتي وتكسرت قلاعي على شاطىء غزه قبالة المخيم ، هو أول حب .... حب لم تقبله أمى لم يعرف به أبى... عرفت به إخواتي حين وقفت أمي رافضه لم أعرف لماذا بكيت !..... لماذا لزمت الفراش لأيام ، كان فراشى بجانب الجدار الذى ظلت عيناي شاخصتين عليه لا ألوي الالتفات حولي ، لا أرغب في الوقوف على قدمى لأرى عالماً غير عالم المخيم ، لم تسعنى حديقتنا .... ولا غرفتى .... ولا سريري ولا دفء وحضن امي بل وسعتنى احلامي في المخيم .... لم لذت بالصمت وكويت جرحى بالنار ورحلت الى عالم أهب فيه الجسد دون الروح ؟ .... رحلت دون أن أعرف ماذا تعنى كلمة مخيم ومن هم الساكنون بين حوانطه، لم أكن أعرف سر الحكاية وبدايتها ومأساة النهاية ، وحين عرفت تجرعت مرارات العالم .... لو كنت أعرف لما رحلت ... بل كنت بقيت معه ، امد يدى إليه .... قد أمسح بها دمعه .... عرفت المخيم وكيف زحف الشتات الى أرض غريبة وسمى مخيم .... ولم هو باق إلى الآن ؟! .... وكيف دلني قلبي على هذا الحب من هناك .... لأحمله معي هنا .... حيث قلب جميلة الذى لازال حيا لم يمت .

دمعت عينا جميلة حين تذكرت كيف تاه عنوانه من مفكرتها وكيف لكلمات تسافر إليه فسافرت إلى امها .... حتى تلك الكلمات باتت حبيسة في خزانه امها ولم تصل إليه حيث محطتها الاخيرة .... دمعت جميلة لزمن الجفاف والنضوب ولكلمات لها ستظل منفيه لن تزهر .... لن تينع .... لن تقطف ثمارها .... أصوات المارين بالبهو أيقظتها من غفوتها ، وجوه الواقفين حاملين فناجين قهوتهم حيث تضيق المسافات بين الرؤوس لتقترب الحكايات ويسرى دفؤها ولكن ظل وجه موسى الغائب عن هذا الحفل ... تلف المكان باحثه ... تسأل ربما تجده واقفا أمامها كما جابر .... هناك يقف فخرى صالح أنه رئيس تحرير الجريدة إذن قد تجد موسى ، نهضت تستعجل الاقتراب منه لسؤاله :

- سيد فخري مرحبا
- جميلة اهلا اهلا
- أين موسى ؟
- مع الأسف لم يمنح تأشيرة دخول .

الفصـــل الرابـــع

قارورة عطر

في جلسة الختام من حرية التعبير أعطيت الكلمة لممثل دولة عربية، ترمقه جميلة وتتابعه بنظراتها من لحظة قيامه من مقعده حاملاً أوارقه ، تصغي لكلماته من مقعدها في الصف الأخير ، تصغى بكل حواسها لذلك الصوت الرنان بلهجة عربية ، تحدث عن حرية الكلمة وفك الحصار عنها ، كسر قيودها ، فتح البوابات الموصدة .. عودة المبعدين .. المنفيين على حدود الكلمة .. حيث كانت الكلمة هي المنفي .. علا صوته وبدأت تسري في أذنها مخارج ألفاظه منمقه رنانة واضحة :

- لتفتح حرية التعبير كل الحدود المغلقة،لا لعودة الجثامين إلى أوطانها حين تسكت أقلامها، فيوارون في ثري اوطانهم التى ظلت منفية .

ظهر لجميلة وجه " عبد الرحمن منيف " يقترب منها وفي عينيه سفر طويل ولكن دون أن يحمل زاده في رحلته الطويلة .. دون أن تكبش يده حفنة تراب،بل ظل رحالاً مع القلم والكلمة.. مدن الملح.. أرض السواد..نزار حين لفه علم وطنه البعيد ليسجي في مقبرة ضمت أمه وأخته نامت أهدابه ورحلت نظرته بعد الانكسار إلى عالم ليس له مدى ولا حدود للكلمات..عالم الكلمات فيه سابحة في فضاء تبحث عن صاحب لها يدلها..ولكن حين آن وقت الرحيل هل تدمع عين جميلة ؟ تمسك اللحظة قبل أن تنفلت منها ..يضيق بها مقعدها تتلفت حولها تنظر أمامها وخلفها تتفرس الوجوه التى تحمل ملامح

قد تستطيع قراءتها " نعمة خالد" تلك الفلسطينية التى ضمها مخيم اليرموك كانت كما جميلة تتلفت حولها ومن أمامها تدور بعينيها تبحث مثل جميلة عن وطن في عيون لازالت تحمل دفء الحنين ، نعمة الجالسة في المقاعد الأمامية لا تستطيع جميلة الوصول إليها ولكنها قريبة منها حين تصافحتا وضمتهما أحلامهما المسافرة لوطن لهن هناك .. وكلمات نعمة لجميلة :

- سمعت عنك، وفرحة أنا بلقائك وستكتمل سعادتي حين تأتين إلى دمشق وتشاركينا بعضا من نشاطاتنا .. ولكن في ضيافتى في بيتى في" مخيم اليرموك "

كان الوقت يمر سريعا تتداركه نعمة وهى تعتلي درجات تؤدي للقاعة ، يدها بيد جميلة وبكلمات متلاحقة قالت لها :

- إليك بعنواني ولتعلمي أن صندوق بريدي مراقب وهذا لن يمنعنا من التواصل اكتبي لي .

كانت قوة تشع من عينيها الفلسطينية .. روائية .. وقصاصة وتعمل في تحرير جريدة ، تصل الليل بالنهار.. لمست بدفئها قلب جميلة وتلفتت لفتاتها ، أما " فيصل خرتش " ذلك الروائي الحلبي بعد أن ناولته جميلة أعمالها من الرواية والقصة لم تعد له آذان تسمع ما يدور من تداخلات.. تأييد..اعتراض.. بل كانت له عينان تثقبان الكلمات كعين صقر ينقض على حروفها..عناوينها..يقلب..يتفحص الصفحات غارقاً فيها..وحين قذفت بهم القاعة خارجاً كان جبار

ياسين.. لعراق..بغداد يقف بجوار الرجل صاحب الكلمة الختامية ، تذكرت جبار واعتراضه حين ينادونه بأستاذ حيث يقول:

- كيف أسمى جباراً ويلصقون بى الأستاذية إنه حقاً أمر مضحك!!.....

جبار الذى يعيش في فرنسا لأجل الكلمة التى ألقت به على حدود المنفى لتأتي به في حرية التعبير..يحمل العراق..بغداد بين جوانحه ، ومن مطار بغداد ودع وصافح أيد لم تكف عن الكلمة،يقف اليوم يحادث صاحبه ، مضت نحوه جميلة مصافحة، عرفه جبار..

فرد الرجل محدثا لها :

- سمعت باسمك .

ردت مندهشة :

- أنا !.....

أجابها بلهجة واثقة :

- نعم

- أظنه اسم أخي .. ماجد

- بل انت

- هل لديك أعمال جديدة ؟....

ناولته روايتها الأخيرة ومجموعتها القصصية ، دقق وقرأ عناوينها اعتلت وجهه مسحة سرور قائلاً :-

- حسنا ، سأقرؤها في الطائرة في طريقي إلى تونس

- تقيم في تونس ؟....

- نعم .. أنت رقيقة جداً

- أشكرك

- عطرك رائع الذى تضعين .

- معذرة لم أنتبه لما قلته ؟....

- مرياج

إندهشت جميلة وزاغت عيناها واشتد لمعانها تتفرس ملامح رجل نطق بأجمل الكلمات في كلمة الختام وحين وقف أمامها واقتربت ملامحه منها محدثا لها ممسكاً بكلمات كتبتها في ليال طويلة وفجر تتفجر أحلامها معه .. لم ينس اسم عطر تعطرت به، في حين نسيت لحظة تمد يدها لقارورة عطرها لأن تعرف إن كانت هذه أم تلك.. شدت خطوتها خارج البهو وكلمة "مرياج" تطن في أذنها تود لو تطير إلى حجرتها لتنظر تلك القارورة وتقرأ ما عليها هل هى أم .. وحين وقفت أمام مرآتها وعلبة حليها وآنيات عطورها مدت يدها ترفع إحداها إليها لتقرأ ما عليها فكانت هى " مرياج " ارتعشت راحتها وأسرعت تعيدها أمام مرآتها منتحية طرف سرير تجلس عليه ، تفكر في هذا الرجل صاحب الكلمات الواعدة التى حملت أحلام المتعبين .. المنفيين عن أوطانهم .. وكيف تشمم عطراً تجهله؟!.....

الفصل الخامس

حـاتم وجـميلـة

استسلمت للزمن الزاحف على عقارب ساعتها ولكل الأحداث التى مرت بها ، مارغبته وما عافته .... حين التقت الوجوه، ماتت ذكريات ولوحات لها تحاول أن تجد مساحة في حدود اللا مكان ، قادتها بداية لخيط تمسك به ، من خيوط قديمة نحلتها حرارة الشمس،بقى طرف خيط جمعته في لقائها به ، حاتم صاحب الوجه المشرق دوما بابتسامة حيرت قلوب النساء ، وجلوسه فاردا ً ساعديه على ذراعي مقعده ، يزفر بأنفاسه قائلا لمن يجالسونه :-

- نعم وسيم الملامح أنا ، طلعتى بهية ، وحين تحاولون بعثرة ملامحي لن تجدوني وسيما ً ، أنا كما ترونني هكذا .... آخذ لب النساء وأمتلك حواسهن حين يلتقين بي

تسمعه جميلة يردد كلماته في زهو ، تنتابها نوبات الخوف ويزداد شعورها ببعد المسافات ما بينها وبينه ، لم تكن تعرف معنى الخداع بالكلمات ، والانقضاض بمخالب الأسود ، والتسحب .... والإلتواء ... إرتداء جلد الثعابين .... هى كلمات تفهمها كما تسمعها تصبها في قوالب معانيها الثابتة في ذهنها ، وهاجس كامن في أعماقها أن تسمعه من هذا الحاتم ، أن ما تسمعه من شباب بلدتها الذين عاشوا الصمت والكتمان ، وأروع لغة يمتلكونها هى لغة العيون حين تبث الجوى وتبوح عن الهوى .... كلماته جديدة .... يغلفها الزهو والغرور ... لا تعرف .... ضعيفة أمام تجارب الحياة المروعة .... تستحث ذاكرتها وقواها ، تجمع كل الصور في مخيلتها في رحلة

يحملها القطار فيها من محطة" سيدى جابر" إلى" رمسيس "، تحاول أن تجلو بعضا من الصدأ المتراكم على ذكريات غائرة .... تعود تسأل نفسها :

- هل تغير ؟ .... هل ستقودنى عيناى إليه وأعرفه.... قد تكون سمنة هو غارق فيها أو يعانى من اختفاء شعره الذى كان دوما يتحسسه براحته حين تطيره نسمات شتائية.... تزداد حركتها في مقعدها ، ولفتاتها نحو زجاج النافذة محاولة أن تكشف عن ملامحها .... أدركت موجات الزمن التى تقلبت عليها .... وأنه سيدرك مقدار عبث الزمان بها.... تنظر وجهها ، ترفع يدها تتحسس ملامح باهته ، أنفها كما هو .... وعينان عميقتان لهما أغوار لا تدركها.... حزن ساكن فيهما .... ترقب حركة كتفيها وقميصها القطني بأزراره المستقيمة ، تمد راحتها تعدل من ياقتها وكأنها تهم لدخول مكتب أحد المديرين.... يعود إلى أذنها صوت الارتطامات الحديدية ، وصفير القطار يذكرها أنها لازالت في الطريق إليه .... تمد قدميها تحاول أن تجلس في وضع الاسترخاء .... تستسلم لمزيد من الخيالات والأفكار المستجدة عليها... تشد قامتها قليلاً، تعدل من جلستها ، تنظر حذاءها المدبب، ورباطه المتدلي على جانبي الثقوب ، تضع قدميها فيه للانطلاقة التى تجتاحها ، حيث أتون تمضي إليه.. وروح مقاومة عالية لم تغادرها بعد .... يرتفع لقصبة قدمها ، نوع من الأحذية يروق لها .... وتعليقات صديقاتها :

- أنها لا تمت للأنوثة بآية صلة .... أين الكعب العالي ؟!.... والدلال في الخطوة و .... و ....

تتذكر ردها عليهن :

- لا أتخيل المشي بتلك الاحذية النسائية العالية ، ستكون مشيتي مضحكة

نعل واطىء ، إعتادته لسنوات طويلة .... ترحل بعيداً .... تشدها مسافات يقطعها القطار معها .... يتنصل قطارها من كل ما يعبر به.... له غاية واحدة هى الوصول إلى محطته ، يحمل معه أحلاما مسافرة .... أجساداً منهوكة .... عيوناً دامعة .... طموحات يتقاذفها ضباب الطريق المتقطع من على المصارف والقنوات .... جسور تؤدى إلى مساحات خضراء تلم كل الأحلام قبل أن تتطاير فزعة من صوت عجلات حديدية فوق قضبان ممدودة لها .... تمد راحتى يديها أمامها تمعن النظر فيهما .... تقلبهما تطن في أذنها كلمات حاتم لها:

- لم لا تطلين أظافر يديك كما زميلاتك ؟!....

تتعلثم في اجابة لا تعرف من أين تأتي بها ! .... ماذا تقول؟ .... حين كانت تقف أمام أبيها حاملة كتابها ، تشير له على كلمة تسأله معناها، كان يمتنع عن إجابتها مشيرا إلى إصبعها والطلاء الوردي الذى لونت به أظافرها قائلاً لها :

- لن أجيبك إلا حين تزيلين ما على أظافرك من طلاء ، وتقصينها عن آخرها .

وذهابها عنه خجلة ، لتبدأ فى ازالة الطلاء وقص ما طال من أظافرها.... تلك حياة اعتادتها وأحبت كل ما فيها ...عمل .... مثابرة.... جلد وقلة اهتمامات قد تشغل بال نساء كثيرات ، وحاتم لم يكف عن ابداء ملاحظاته بطريقة التفكه لطبيعة جميلة التى تثير الدهشة في نفسه وحديث أبيها لأمها حين تلومه على خشونته في تعامله مع أبنائه فيجيبها قائلاً :

- هم حواف الصخور .... ولازالت حادة .... وحين تتقاذفهم دروب الحياة الوعرة تنعم تلك الحواف من خبطات التجارب التى يجب أن يخوضوها ويستعدوا لها .

بدأت سرعة القطار في التباطؤ ، لتقترب الصور والمشاهد أكثر .... ومسافرون يتأهبون في لم حاجياتهم وسط مرور النادل بينهم يتفقد حساباته ، وهى بدأت تستعدل جلستها في مقعدها تتجاذبها علامات الإرتباك، تحاول أن تشغل نفسها بترتيب أشيائها ، فتخفف من حدة توترها ، واقفة على درجات المحطة .. يطالعها رمسيس ، تصعد إليه ، تلمس قدماها أحجار الجرانيت التى سطحت بها أرضية الطريق، تود أن تراه ، تتأمله ، تلتقط منه أول خيط لعهد مضى ، ووقفة صموده أمام الشمس تحت وهجها .... ملك الحيثيين يوم وقف أمامه ، أشار له رمسيس قائلاً :

- أنا من يستطيع أن يرسم حدود مصر حيث أشاء على ظهر البسيطة...

يقف رمسيس .... وتقف جميلة تتأمله ، قدماه العملاقتان وانبساطهما على الأرض دون نعل يلمهما ، يخنقهما ، تنظر حذاءها وكيف نحلته مسافات طويلة سارت عليها ، وأنامل قدميها حبيسة تئن من فقد حريتها .... رمسيس .... جميلة .... والحياة .... حياة تنبض حولها .... ذاهبون قادمون ، متحاملون .... معذبون .... آمال تتقافز من العيون .... نهر يحتضن أماني عزيزة بعيدة تقطعها صفارات القطارات .... أصوات الحمالين ....الباعة الجائلين .... تنظر ساعة يدها ، أرقامها كبيرة واضحة ، عقاربها تضيىء، تتحفز للثوان وتخشى الدقائق ، تحتضر للساعات التى تمر دون جدوى .... تسأل نفسها :

- هل حان الوقت ؟ .... حيث وجهتى التى أقصدها .... وجه جاءنى من سنوات الماضى البعيد ... سرحت بنظراتها الموحشة في وجوه المسافرين .... القادمين .... والقاهرة وهى .... وضباب كثيف زاحف إليها .... وهل تضل الطريق فيها في يومها المسافر ؟!....

تثقل رأس جميلة أحمال الذكريات .... محطة رمسيس وسقفها المنحنى لمربعات زجاجية مفرغة .... تغمض لها عينيها لتعود إلى قطار الزمن الماضى عنها وجه حاتم يقترب منها ، يجلس بجوارها في قطار كالذى حملها اليوم ، يومها تمنت أن تريح رأسها على كتفه وتغط في نومها ولكن حياءها كان يصدها .... يعيدها إلى ذات تأبى بأن تأتى ما هو غير مألوف لديها .... يومها كان متجها إلى

رمسيس كما هى وجهتها ....إلى مكتب التنسيق الخاص بالوافدين ومتابعة اسمها بين الأسماء .... وكلمات أبيها إليها في رسالة له عبرت القناة .... يؤكد ويصر على أن تحول اسمها من جامعة الاعلام قسم الصحافة إلى دراسة القانون وعبارة له تلاحقها :

- بأى حال دولة ستنطقين ؟!!.... باسم من ستتكلمين يا جميلة ؟!.... وأنت هناك.. ونحن هنا على الأرض دون دولة نكتب فيها أسماءنا... قضيتنا هى قضيتك فلتبدأى بها .... الأرض لها دين عليك ....

في محطة رمسيس تقف حيث وجهة لها ستغيرها .... أما هو فكانت غايته سوق الموسكى .... خان الخليلى .... سوق السلاح .... ليتناول مبلغا مرسلاً له من أهله .... قطار حملهما واعادهما على نفس رصيف المحطة وسط قطارات أخرى وحاتم وعودة له إلى بيروت ما بين شرقية وغربية وقتال دائر من بيت إلى بيت وقدر يلقى بجميلة حيث هناك وسط طلقات الرصاص ومشاهد ثقوبها على جدران المنازل ومداخل المدينة ، ميليشيات على الحواجز تستوقف المارين تطلب بطاقاتهم ، يقرأونها ليعرفوا من أين يأتون من شرقية أم غربية ، وحين التقت بصديقه يخبرها بإصابة حاتم بالتهاب رئوى أقعده في الفراش ، آثرت الذهاب إليه وفى يدها ورقة كتب عليها عنوان من حارة الى حارة ضيقة الى أزقة تؤدى إلى ملك الحوت في بيروت ، ترافقها زوجة أخيها وانزعاجها من رحلة البحث عن عنوانه أمام إصرارها على الذهاب ، في رحلة الترقب والتوجس

أمام حواجز الكتائب ، قد يعترض أحدهم طريقهم وقد تكون ميتة جماعية .... تصل وسط كل هذا ... تقف على عتبة بيت غارق في العتمة إلا من إضاءة شاحبة تظهر على حواف درجات اعتلتها قدماها .... تضغط على مكبس الجرس ، وعين سحرية تطل عليها تقول لها :

- لا أحد

تعاود تضغط ثانية على الجرس

- لا أحد

- ....

وصوت فيروز يثير شجنها وكلمات أمها لها

- كم أحب فيروز حين تشدو

" لا تندهى .... ما فى حدا "

تعود أدراجها ممسكة بمسند الدرج ، تدقق في حوافه التى أظلمت ، إلا من نور شاحب يرقب خطوتها .... وزوجة أخيها تقف حينا وتلف حول السيارة حينا آخر ، والسائق والمرافقون حولهما ينظرون الطرقات البعيدة والقريبة بحذر وترقب لعودة الصبية ، تقف تنظر اليهم تود لو تنادى وتقول لهم:

- لا أحد

- ....

حين التقت به لم تسقط ابتسامته من على وجهه بعد تلك السنوات الطويلة ، يجلس متهدلا ، تنساب كلماته اليها ، يرجع بماض، لم يفارقه ... نظر اليها يتفحصها بعينيه الضيقتين الضاحكتين ، وبحركة خفيفة يهز رأسه يحاول أن يؤكد لها أمراً هو يوقنه جيداً:-

- كما أنت لم تتغيري..

عاد يكمل سرده وهو يبتلع بقايا من شراب مثلج أمام صمتها المطبق

- أتدرين .... لمحة الجدية لم تفارق وجهك .... ملابسك وبساطتها....

وما ان نظر إلى حذائها حتى أكمل ما بدأ به :

- لم تحاولي ان تغيرى في نمط أحذيتك ؟!.... سنوات طويلة وأراك كما أنت !! .... لماذا ؟ ....

ردت بحزم تغلفه الصرامة :

- جاهدت طوال سنوات مضت لأن أبقى كما تراني ، لا أن يصيبني تغير تشيخ فيه نفسي ، لازلت واقفة .... وتلك هي مقاومتي الوحيدة التى أمتلكها .

لم يقف عند كلماتها بل واصل حديثه :

- أتدرين حين صارحت صديقي بحبي لك ، لم يكترث لمصارحتي بهذه ، تخيلي بماذا أجابني ؟!!....

تجلس تستمع له هادئة ساكنة تراه ممسكاً بمطرقة يدق بها على كيانها كله ، فلا حيلة أمامها سوى الإنصات إليه .... بعد دهر مضى يعود إليها يحدثها .... كلماته الآتية إليها لا تستطيع صدها أو إرجاعها .... تحاول أن تكمل قراءة الأمس فيه وهو سادر في سرده

- يداك قال لي عنهما ، أنهما لا تمتان لأيدي النساء بصلة، وتعجبه منى أننى لم أنتبه لهذا الأمر .

يقهقه ضاحكا مستمتعا بتلك اللحظات الآتية اليه، يحملها قطار القدر في لقائه معها .... ارتدت نظرتها المثبتة على ملامح وجهه لتغرسها على راحتيها ، تلم أطراف أناملها في قبضتها لتطلقها مرة أخرى في عناق ، أناملها التي لم تخذلها في رحلتها الطويلة ، كف يدها المقلمة الأظافر ، الخالية من الطلاء .... يفرد جسمه مسترخيا ، مواصلا في نشوة حديثه إليها:

- لازالت صورك في بيتنا هناك في بيروت مخبأة لدى أمي ، كلما أحببت النظر إليك ، أذهب إليها وأختلي وتلك الصور .... صور صاحبة الجدائل المسدلة على كتفيها

تهدأ دفقة الحديث وتنسحب معالم جادة على وجهه .

- ألا زلت تقاتلين ؟!....

- ....

تعود اليه ابتسامته ، فينطلق منها مرة أخرى

- أذكر يوم جئت الى بيتنا في بيروت ، يومها لم نفتح لك الباب ، كنا نطل عليك من خلف العين السحرية، وسط خوف تسلل الى قلوبنا من أن نفتح لك بابنا هاها ....

يتوقف قليلاً وسط صمت جميلة المطبق على كلماته

- جئت بالحرس والمرافقين ، يحملون رشاشات الكلاشنكوف وبزات عسكرية .

عشرون عاما لم تعرف جميلة أن حاتم كان وراء الباب في الحارة الضيقة من آخر الزقاق من ملك الحوت .... كلمات أحدثت ارتطاما .... دويا .... صاعقة هوت على براءتها .... راودتها ابتسامة بللت شفتيها المرتعشتين من ارتعاشة قلبها وانعتاق روحها....

يمد يده لعلبة دخانه ، يسحب لفافة يشعلها ، تلم جميلة رماد أنفاسه المحترقة التى باتت هى العدم في وجدانها .... عائدة الى محطتها.... لتقف أمام رمسيس تنظر اليه .... طريقها .... محطتها ...و طريق طويل أمامها .... وكلمات تطيرها نسمات خريفية :

- صدقيني يا جميلة انني أحببتك .... ولا أحداً سواك .... سواك ....

لم تعد تشعر بكلماته .... لم تعد تحسها .... رمسيس وهي عود اقتلع نفسه على أرض الغربة هنا .... ودفء كلمات قد تكون هي الحقيقة من هناك ....

الفصل السادس

الصيف الأخير

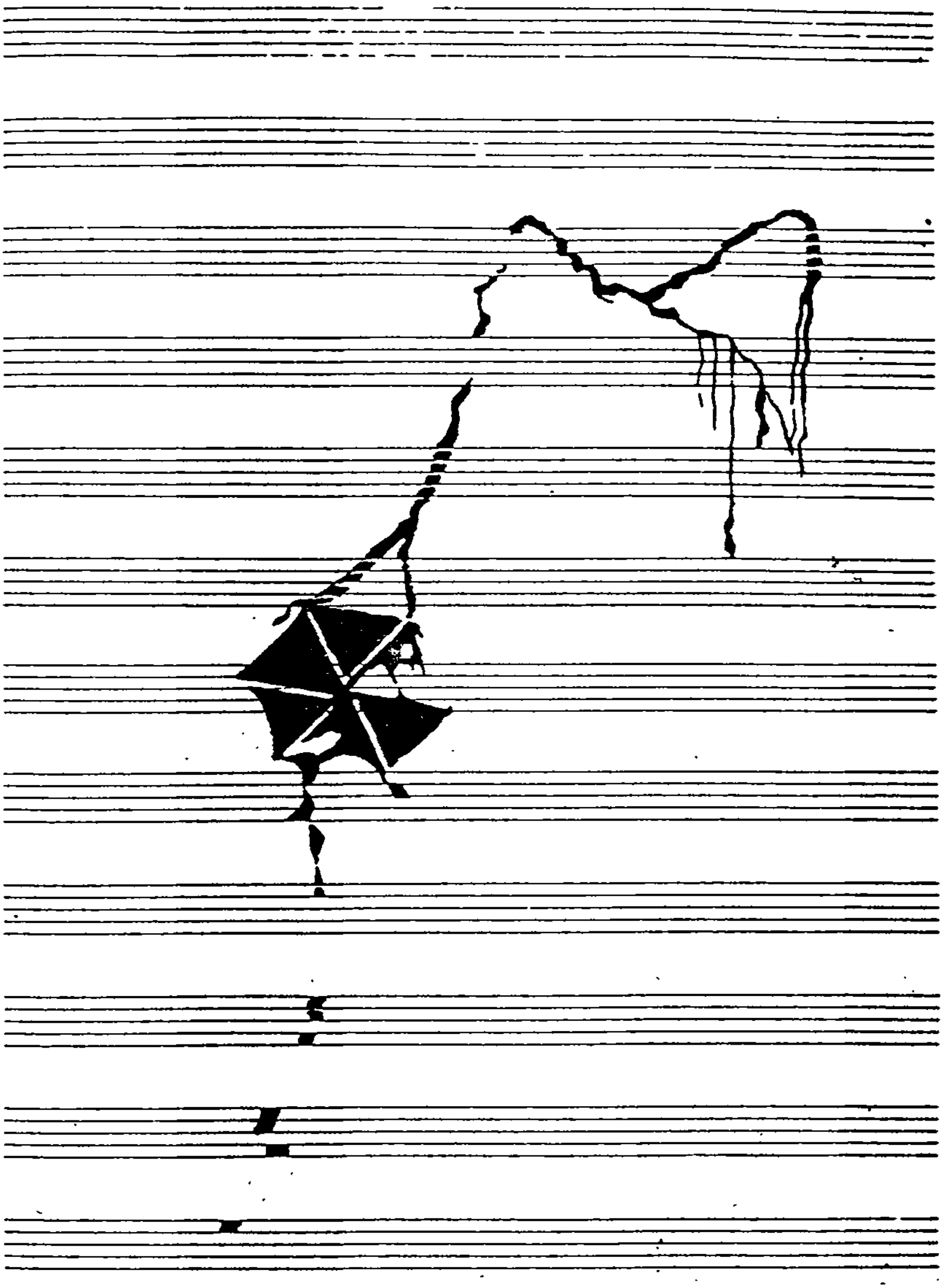

قد يكون هذا الصيف هو الأخير ، أم أن كل صيف يأتي علينا نحسبه هو الأخير هل هي قدم " نبيل عمرو " حين فجرت شرايينها طلقة دمدم وتفتت لحم كان يكسى عظمها .... هل هو الصيف الأخير لرجل يسير على قدميه ثم يجد نفسه بقدم واحدة يدق بها على الأرض ، كانت أحلامه دوما تسبح من خلال حنجرته الساحرة لتسافر إلى أبعد حدود الأرض ، تتعلق على حواف أسلاك نافرة تنغزها فتصلب عليها .... ولكن الأصابع تشير نحو صاحب الصوت الحالم المضمخ بالشجن .... تشير إليه حين صافحها وتفرس ملامح وجهها الفلسطينية ومضى بها في شوارع بيروت .... حين كانت شرقية .... غربية .... مضى بها زمن لتدرك وتعي ماذا يعني هذا الانقسام .... في بيروت الغربية أجلسها في الغرفة الزجاجية وأمامها الميكروفون ، ألقى لها بورقات مكتوبة لتلقي نشرة الأخبار حيث آخر حدودها جنوب لبنان ، سمع صوتها .... علمها كيف تنطق الحروف وكيف تعلو بالصوت وتهبط به وأين تقف وكيف تبدأ ،

و حكى لها عن أحد القادة الذي لم يكن يشرب فنجان قهوته إلا حين يسمع صوت مذيعة النشرة ، وحين يتوقف عن إشارته إليها يشخص في أوراقه ويرفع عينيه نحوها قائلاً :

- أنا تدربت على يد قائدنا ، تلميذه أنا وكم أود أن أكون نجيبا

نبيل عمرو ... هو .... نعم وجهه يذكرها بملامح وجه أبيها .... بشعره المنسدل ، بقسمات وجهه العربية يذكرها نبيل بكل هذا وهو

لا يعرف، لازال لا يعرف إلى الآن .... حيث الصيف الأخير الذي يرقد فيه على سرير في مستشفى ينزع عنه لحمه المتفتت من رصاصه دمدم ... نسي جميلة .... ونسي كلمات قالها لها .... ولكنها لازالت تذكر كل كلماته التي ربما ذكرها في أيامه الأخيرة فأصابته رصاصة تحاول اقتفاء أثر الكلمات لتقتلها ، تقتل الكلمة .... أو كلمات قد يكون نطق بها .... لم تنس جميلة أول بيانات بثتها بصوتها لرجال المقاومة ، كتبت بيد نبيل من غرفة زجاجية، نبيل يرقد في إحدى مستشفيات ألمانيا التي لم تعد جميلة تعرفها شرقية.... أم غربية فالخطوط تبعثرت والأرقام اندثرت ، أرقام تود لو تعرفها لتصل إلى أذنه ، كلمات تقولها له: أنها لم تنس .... بل لازالت تذكر في هذا الصيف الذي ربما يكون هو الصيف الأخير .... وهل كان يعرف نبيل أن في صيف كان الأخير رحل القائد وظل مسافراً دون تذكرة عودة ، هو جرح أصابنا ولكن قد تكون مساحة من الأمتار نتحرك من خلالها ونضمد جراحنا ونحتفظ بالرصاص لمعارك الغد أو معركة اليوم ، فمن لم يعودوا على قيد الحياة يبقى منهم شيء ينتقل إلى المستقبل رغم غيابهم الأبدي ، فجزء من طاقاتهم الحيوية وعقيدتهم الراسخة لم تمت معهم في صيف كان الأخير .

****

لما حملت تانيا حين عبرت الحدود إلى الخليل ، إلى" دورا " إلى أرض البستان .... كبشت ملء راحتها تراب الأرض لتحمله إلى

عمتها على أرض الوادي .... وحين قطعت المعبر كانت تتلفت مذعورة محتضنة حقيبتها خافت أن يلاحقوها حين يشتموا عبق الأرض المسافر إلى أنفاس لاهثة ، تتشممه حين عبرت منفذ رفح البرى ، التقطت أنفاسها ودست جواز سفرها الكندي الذي به .... به فقط كانت تتخطى الحواجز ، وأخرجت جراب تراب الأرض تتفحصه بنظراتها الفرحة حيث ستحمل الهدية إلى عمتها التي لم تكل الانتظار في صيف قد يكون الأخير ....

****

الصيف الأخير .... لقلب جميلة الذي عذبته الوحدة .... هل يأنس قلبها إلى الرجل الذي لم تره بعينيها .... بل رأته بقلبها .... رأته في كلمات .... في شجن لترنيمة حب وطن يعيش داخلهما ، هل يرحل قلبها إليه أم يأتيها قلبه من بعد سفر وغياب .... هل هذا الصيف الأخير .... لحدود الكلمات المرتعشة الوجلة .... الخائفة حيث شمس.... نهار وظل .... دفء .... ووجد وشوق على أطياف الذكرى العائدة من طوال اغتراب .... ليده الممدودة إليها .... قد تضمها .. مع ذلك الرجل الذي لم تلتق عيناها به في صيف قد يكون الأخير .

****

وفى حفل تأبين لصيف كان الأخير .... وحضور الوفود من الحركة الوطنية الأردنية .... اللبنانية .... مجلس السلم العالمي .... اليمن الديمقراطية ومنحه وسام الثقافة ، يجلس أبوه في صفوف أمامية ،

ربطة عنقه سوداء .... كالتي يربطها وهو واقف في ساحات المحاكم العسكرية.... رغم الآلاف المحتشدين في القاعة إلا أنه كان هناك لازال واقفا يحسب الدقائق ليعبر النهر ، هو يعرف أن قرار منعه من السفر قد يتأخر دقائق قليلة يكون هو قد مر فيها ليحظى بموعده مع ابنه الذي غاب عنه عشرين عاماً .... لتأتي لحظة اللقاء ولكنها لحظة لا تمتد فيها الأيدي تصافح ولا تَلُم الصدور في أحضان دافئة.... هو موعد مع غائب .... يعتمد بطاقة غيابه بطول عمر الدهر الطويل .... وهل يستطيع أن يذيل توقيعاً باسمه على بطاقة رحيل لابنه دون عودة.... وكانت تلك الدقائق التي اشتاق لها ، يسرقها من عيونهم ، من كيانهم المزروع على حدود حزينة لذلك الفارس الذي عبر منها ولم يعد إليها .... هو شارد هناك غارق في تعاسة زمنه العاقد عليه بربطة عنق سوداء .... يفيق من سفره الطويل حين اقترب منه نبيل عمرو هامساً .... يترك مقعده يتبعه إلى زاوية خلف المنصة ، ونبيل منهمك بوجهه المعروق يخرج ورقة ضمن كومة أوراق في يده قائلاً :

- إليك بهذه الورقة .... كتبتُ لك فيها كل ما سيقال في تلك المناسبة، حين يأتي دورك وتتقدم المنصة .

ابتعد عنه قليلاً مربتاً على كتفه وبلهجة حانية وشوشه :

- تشجع يا أبا الشهيد .

ارتد عنه قليلا يفرد قامته أمامه بملامح وجه غائضة ، ليمد نبيل يده ويأخذه متأبطاً ذراعه خارج القاعة حيث الأبواب تفتح وتصفق ، على من يدخلون ويغادرون ، وما إن وقفا وكان الوجه أمام الوجه حتى أخرج من جيب سترته الورقة التي دسها نبيل فيه ، وأخذ يقطعها أجزاء صغيرة وألقى بها تحت قدميه .

- أتكتبون لي أنا كلمة أرثى بها ولدي ؟!....

ولوى حيث مقعده يجاوره الرئيس و .... و .... وأين هو منهم ؟... هو لازال بعيداً .... حيث هناك .... أين هو منهم لم تعد لديه إلا كلمات تطحن فؤاده المكلوم حيث يفيض البركان بحممه .... يود أن يلقى بها لتشتعل الأرض وتلقى بذور الثورة فيها .... وما إن سمع اسمه في مكبر الصوت حتى تقدم إلى المنصة .... وبدأت أجهزة التسجيل تلتقط كلماته :

- نركب سيارات فارهة .... نبني القصور .... نلبس من صناعة الأزياء العالمية .... وتبغون الأرض!! .... الأرض لن تحرر هكذا .... لن نهدر كرامتنا ونصدق بأن عدونا الأوحد هو إسرائيل ، بل هي أمريكا ، وحلف الأطلسي مجتمعين .... هم أعداؤنا الحقيقيون .... أما نحن ....

ولم تكتمل حدود جملته حتى علا التصفيق القاعة ، وضربت راحات الأيدي تشد على كلمات نطق بها ، ودار الحكي عن ذاك الفارس من

هذا الجواد ، ومضى أبو جميلة حيث الأرض التي جاء منها .... تاركاً فوهة بركان من كلماته تتجرعها آلات التسجيل .

***

دقت جميلة الأبواب بعد مضى سنوات تسأل عن كلمات لأبيها التقطتها آلة التسجيل .... فتح لها باب وأوصد باب .... قالت لها تلك المرأة:

- أنا لدي شريط يحمل كلماته كتب عليه التاريخ وفيه الكلمة .... ولكنى بالأمس فقدته ، فتشت عنه ، تعبت من البحث لم أجد شيئاً!!.....

قاطعتها جميلة :

- لا تقولي أنك لن تجديه ، هو موجود ، ثلاثة وعشرون عاما في بيتك على أحد رفوف مكتبتك واليوم كيف يضيع منك ؟.... أين يمكن أن يكون إذن ؟! ....

- لا أعرف .... أنا منزعجة لفقدانه .

ردت جميلة بلهجة متحدية واثقة :

- لكنني لست منزعجة لأنه لم يفقد .

أوصد باب وفتح طريق لأقدام جميلة التي لا تتوقف على الطرقات المسافرة تمسح دمعة .... بل دموعا تحرق وجنتيها .... "هل يعقل أن يموت أبي مرتين ؟!! لِمَ أماتته تلك المرأة للمرة

الثانيـة ؟" تهتز لها فروع الأشجار تضمها تحوطها .... تميل نحوها ....

- ألا يا جميلة رددي ورائي كلماته التي لم تنسها .... الأرض هنــاك.... والطريـق يتسـع للجميـع ولكـن دون سيارات فارهـة وأرصدة بنكيـة بالدولارات وأزيـاء باريسـية ، رددي يـا جميلـة ولا تنسـي، هـم هنـاك .... وحلـف الأطلسـي معهـم ، وأنــت هنـا لازلـت تبتلعـين المسافات لأجل الوصول حيث هناك .

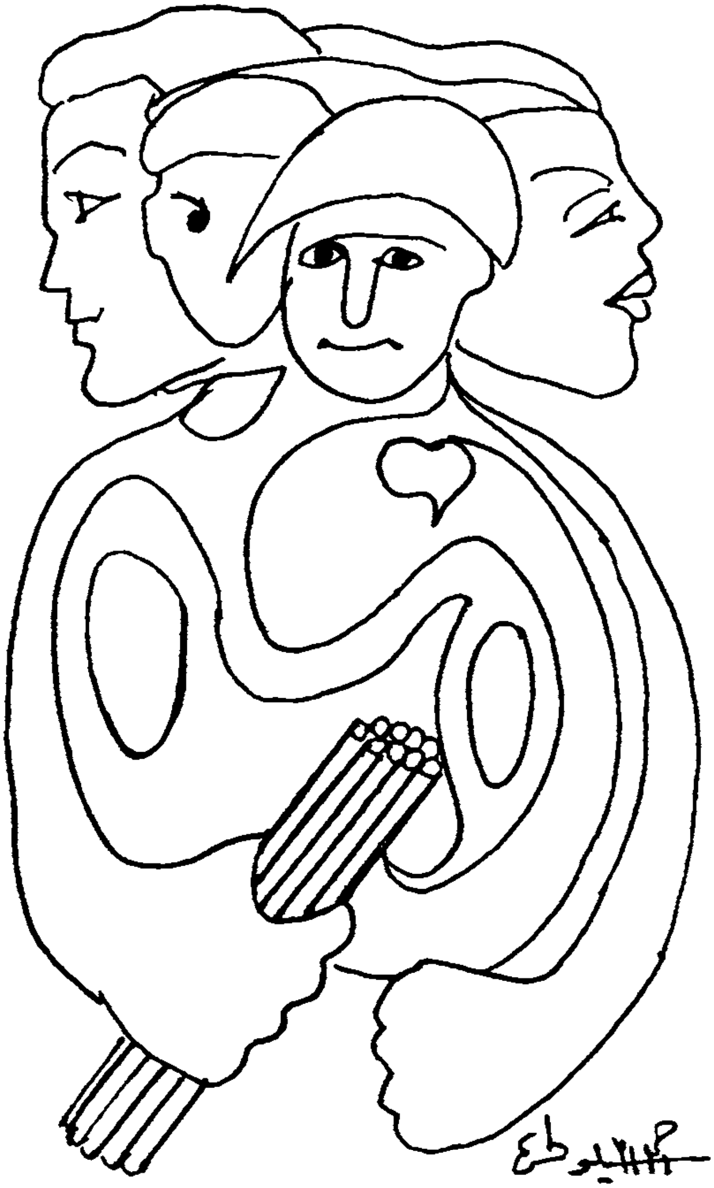

الفصل السابع

طائر الشمس الحزين

حين سمعت صوت جميلة صوت " تمام " على الهاتف ، تطلب منها موعداً لزيارتها ولمعة فرح تطل من عينيها ، لفرصة تأتى إليها وترى " إسماعيل شموط " في رحلة من مسقط رأسه اللد إلى غزة مياهه .. من وادي " زانداس " الملون ماوه بتراب فلسطين .. مياهه هادرة .. غاضبة .. تحرك حجارة وصخوراً من أعماقه تحملها إلى وادي غزة ....

- أنا جميلة

- أهلاً بك

- أود أن أقابل الأستاذ إسماعيل

يأخذ الصمت حيزاً ما بينهما عبر الأثير ، تقطعه تمام قائلة :

- أعرف .. هل لك مطلب أو غاية معينة أقدر أن أقدمها لك ؟

بدأت خيوط ما بين يدي جميلة تفلت منها وهى التى كانت قابضة عليها منذ دقائق ، فجف حلقها ، تتحطب عليه أحبال صوتها، تتدفق أفكارها حارقة مشتعلة ، تسأل:

هل فقدت شيئاً ؟.... وعمَ أبحث ؟!!.... وهل غايتي بعيدة ، أم أنها ستوافق على تحديد موعد وألتقي مع ذلك الوجه الذي إنتقيت من رسوماته .. "عائدون" من "جبل النار" ، "ووجه من تل الزعتر" يحمل "قلادة"، و"الكبرياء الحزين" ، إستردت اللحظة بثقة العارف قائلة :

- سيدتي أنا أعرف السيد اسماعيل منذ سنوات طويلة ، أعرفه وهو لا يعرفني ، رأيته دون أن يراني ، مضيت معه عبر خطوطه وتعرجاتها من عين امرأة لم تسدل أهدابها لازالت تشير إلى الحقيقة.. عين عرفها، رسمها فى وجوه كل نساء كنعان ، من تل الزعتر إلى الكبرياء الحزين ، لمعت لها شهب ترقب الأرض ، تنتقي مكاناً آمناً للسقوط ، غايتي أن تكتمل صورة أحملها له فى ذاكرتي وخيالي ، وما تبقى من ألوان صورة .

قطعت كلماتها المشتعلة قائلة لها :

- لك أن تتفضلي ، وسأهديك كتابنا الأخير فيه سيرة ومسيرة لحياتنا، رسمها هو ورسمتها أنا ، العاشرة من صباح الغد .

لم تتردد جميلة في الموافقة ، تسحب ورقة من مفكرتها ، تدون عنواناً .. تلاع العلي .. عمان ، وغد وموعد مع عنوان تريد أن تفك رموزه لتصل إليه دون دقيقة تأخير ، وكلمات تمام تصف لها:

- أمام مدخل البيت قوس

تبحث جميلة عن مداخل البيوت ، فكان القوس الذى دلها ، يدها تضغط على جرس الباب وسط لوحات معانقة لحوائط المدخل، يشرع لها الباب تقابلها الخادمة ، تدعوها للدخول إلى البهو ، لتجد نفسها واقفة أمام لوحة " الموت عطشاً " على طريق التيه وحيدة أمام لوحة تفوق حجم جسدها ، تكاد تبتلعها ، وعين جميلة تغوص فى أعماقها، غارقة عبر كل الأزمنة ، وكل حدود المدى.

تتذكر د . عز الدين المناصرة وشموط وحكاية لوحة في كلمات تطن فى أذنها .. من الموت عطشاً وعودة إسماعيل لاخوته بدون ماء من عين الحياة ، أمام فوهات بنادق حملت لهم الموت إلى أخيه توفيق الذابل عطشاً ، وماء يبحثون عنه فى بئرٍ منسي .... وعلى الأرض العطشى تسقط هامات المسنين ، وعفونة تشتد فى ماء آسن يحمله إسماعيل لأمه وأخواته ، وتلك المرأة التى ألقت بجسدها عليه، تمتص أطراف قميصه المبتل .. تمتص ما علق به من ماء .. وأيدٍ تقتلع نباتات من جذورها بحثاً عن رطوبة فيها.. هى عين إسماعيل التى رأت .. لا عين جميلة وقلب إسماعيل هو الفاقد لأخيه توفيق لا قلب جميلة ، وهل لأنهار العالم .. ينابيعها .. مصباتها أن تروي عطش إسماعيل؟ .. أو تعيد إليه توفيق مرة أخرى وكف أبيه التى غطت بالقش وببقايا أعشاب يابسة جثثاً ملقاة ، وإسماعيل هو الذى يعرف هارون الساقي وهو الذى سمع صوته يصرخ فى البرية من شدة عطشه :

- يا ناس .. لقد سقيتكم أربعين عاما ، فليسقني أحدكم رشفة ماء .

من اللد .. إلى رام الله .. بيت لحم .. الخليل .. خان يونس .. ليكون إسماعيل أول من حشر فى مخيم ، ولفه سياج ، وأول من عرف صدقات توزع من أمم متحدة ، فلسطيني الأمس .. لاجيء اليوم على تلال خان يونس الرملية البيضاء الذهبية .. تلال تغير أشكالها على ضوء شمس النهار وضوء قمر الليل تقترب جميلة من اللوحة

وتقصر المسافة ما بينهما ترفع ساعدها ، تفتح لها أناملها لتحوط بها كل من في اللوحة " الموت عطشاً" وما إن سمعت صوت سيدة البيت حتى ارتدت بخطواتها إلى الوارء ، محتبسة الأنفاس ، تتلوى أمعاؤها من آلام دفينة وقعت تحت وطنها.. لم تستطع أن تدقق فى ملامح تمام الواقفة أمامها فلازالت اللوحة تسكن عينيها وكأن العالم كله ساكن فيها .. تصافحها تمام وموجة خجل تجتاح جميلة ، وفضول يعود ليحتل قلبها فى البحث عن مجهول هو الأقوى .. بدأ الحديث بارداً ثم ما لبث أن سرى فيه دفء بحكايات من جميلة وتمام ، وتنهض لتأتي لها بأوراق تريها لها ، تحمل صحناً فضياً تقدم لها قطع الحلوى ، ولكن تتعثر قدم تمام وتسقط أمام جميلة ، تندفع نحوها لترفعها .. ترفع جسداً واهناً يمزقه الألم ، تسندها على أريكتها ، وتتمتم لها قائلة :

- لا أريد لاسماعيل أن يعرف بسقوطي .. لا أريد أن أضيف إليه مزيداً من آلام ..

تغيب قليلاً .. ورقاد إسماعيل في الغرفة المجاورة رقاد الصمت والسكينة التي كانت تود أن تخترقها جميلة ، وبقايا اللوحة من جسد تمام الواهن ووجه إسماعيل الغائب في صمته .... ترفع جميلة راحة يد تمام تضعها فى راحتها تمسد عليها ، على يد رسمت خطوطاً كما إسماعيل ، كانت دوماً معه في سيرة ومسيرة .. تتألم .. تغيب .. لتعود إليها .. كانت تود أن توشوشها بكثير من

الكلمات... أن أفيقي إلى عالم حولك عشقتيه .. يا فتاة كنعان الآتية من يافا .. يا فو لتسمية كنعان بمعنى الجميلة .. وهل لابنة الأكحل أن تنهض فلا زال أبوك هناك يحمل بندقية من صنع يديه لن تخذله أبداً .. يا ابنة زهور البرتقال البيضاء كالثلج .. ويدك هذه التي في حضن يدي رسمت لوحة التحدي .. كيف تتحدى زيتونة صخورا أنبتتها؟!... حينها قال الصخر لها :

- أنت على خاصرتي أحملك وفي أحضاني

وزيتونة تتغنى وتسمعه :

- أنا الأقوى فإني حياة..أفيقي يا تمام من لوحتك، لا تتركوا الحصان وحيداً..أي حصان تقصدين؟.. واي وحدة وسط الحصار وبين القلاع والحواجز؟!.. وجع أصاب نفس جميلة لا تعرف مصدر ألمها ومن أين يأتيها ولا يبرح روحها .. ألم يلجم الكلمات فيها ، يقهر صمتها في بيت ضم لوحات.رقصة الربيع .. الحب في الأرض .. أنين اعتماد .. صمت إسماعيل من قلب أتعبته الرحلة الطويلة .. ملامح لم يكف يرسمها تتوق إلى عودة .. وكانت اللاعودة إلا من سرير يرقد فيه،وصمت يقطع أوصاله وأوصال جميلة دون أن تراه.. وتحمل جميلة لوحتها وتمضي، ففيها كل خطوط الثورة بملامح غطاها الرماد بعد أن عصف بها..هل تلتمس دفئاً من لوحة تحملها؟ أم هى برودة تجمدت فيها بعد أن طالت ذلك الرجل الساكن فى صمته.

ومن جبال عمان تهبط إلى مطار القاهرة تحمل هويتها بعد أن دق بالختم عليها، " دخول " تلفح وجهها نسمات هواء زاحفة إليها من صحراء سيناء، تجلس في محطة الباصات تنتظر موعد الحافلة لتنقلها إلى الإسكندرية، تستسلم لراحة تنشدها من مقعد خشبى تجلس عليه ، تغمض عينيها،تعود بها إلى جبال عمان وفيض من أسى وشجن تحمله معها،تفتح عينيها متثاقلة ، تقع نظرتها على حقيبتها الصغيرة، يطل من فتحتها الكتاب الهدية من تمام "جداريات السيرة والمسيرة الفلسطينية " تشده إليها ، تريحه على ساقيها ، تفتح صفحاته وسط رياح معاكسة، مضى بها زمن، لتقف عند الصفحة الرابعة والخمسين ولوحة "من أجل البقاء" ، وأول معرض يقيمه إسماعيل كان فى القاهرة، يزوره الرئيس جمال عبد الناصر لم يتحدث كثيراً بل ظل أسيراً لصمته متأملاً للوحاته ، يتحرك من لوحة لأخرى،عند مغادرته القاعة، مد يده مصافحاً .. يشد على يد اسماعيل ، لم ينبس بكلمة واحدة .. صمت إسماعيل فى حجرته مريضاً.. وصمت جمال حين تحرك بين لوحاته، ويد جميلة التي رفعتها وكادت تلامس وجوها رسمتها يد إسماعيل من الموت عطشاً، أغلقت الكتاب بين يديها .. ضمته إلى صدرها تستنشق هواءاً ملء رئتيها وطريقاً يتسع لها ولآخرين ....

*****

وتصلها منه بطاقة ، من وجه لم تره ، وجها ذلك الرجل الذى اجتاز كل الازمنة وحمل زهور بساتين تقطر دما... ووجه لامرأة واحدة فيه كل الوجوه..ذات الملامح..ملامح فلسطينية..تنظر جميلة لوجهها في المرآة، تتحسس قسماته ذلك الوجه الذى لم تتوقف ريشة أن تحدد خطوطا وملامح فيه، إنها هى ...جميلة في عين القلادة من تل الزعتر..وعين في كبرياء حزين ، من البريد الالكترونى تفتح رغد وتقرأ بطاقة اسماعيل لأمها... يجمعهما الحنين إلى عودة... وحب لأرض هناك في كنعان...تفتح بريده على نساء جميعهن يحملن زهوراً تقطر دما في فجر يطوف بالدم على سماء الأرض فيمسح وجهها، يغسلها بدم من ذهبوا ومن بقوا.. ترقب عين رغد المأخوذة برسومات شموط ، رسوماته أنستها وقع خطوات أمها فى حجرتها واقترابها منها ...تشخص فى دقائق ما رسمت يده.." أحلام الغد" وما من أحد يستطيع أن يمنع الحلم..وكيف أراح الصبي رأسه على ساعد أمه وطوقه بذراعيه.. لتنام أهدابه على الحلم .. ليرافق صحوة غصن زيتونة مستلقيا بجواره على راحتها المنكفئة نحو تراب الأرض...ترحل معه إلى اقتلاع.... الربيع الذي كان...وارادة الحياة هى الاقوى...يُرجع اسماعيل رغد بألوانه القرمزية ، يعيدها إلى حافة الليل... تنظرها أمها من بعد ، تنشد أملاً بعيداً.... وتسأل :

- هل استطاعت ريشة إسماعيل أن تعيد لها فتاتها إلى كنعان القديمة .... إلى ما يدمي فؤاد جميلة؟!.....

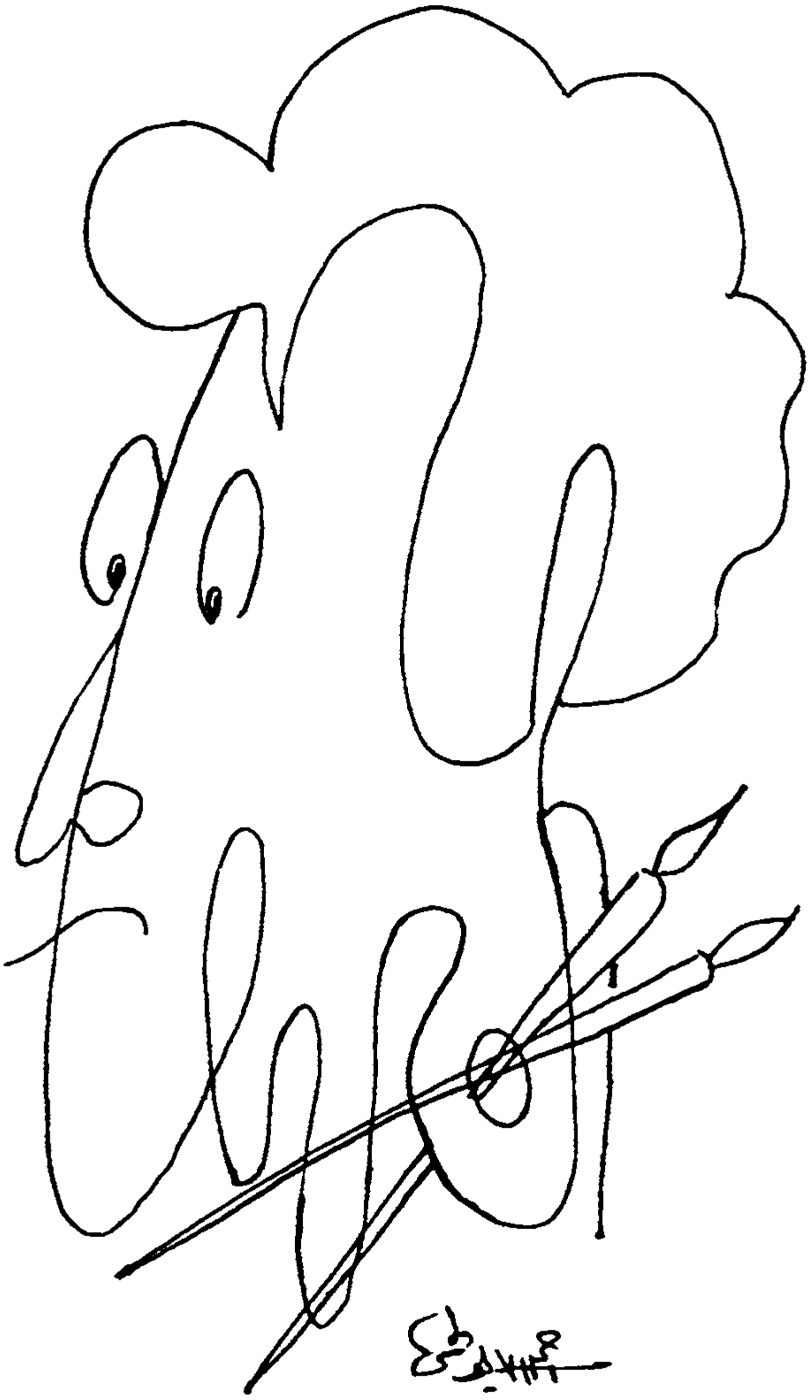

الفصل الثامن

كنعان .. كرمل .. داليا

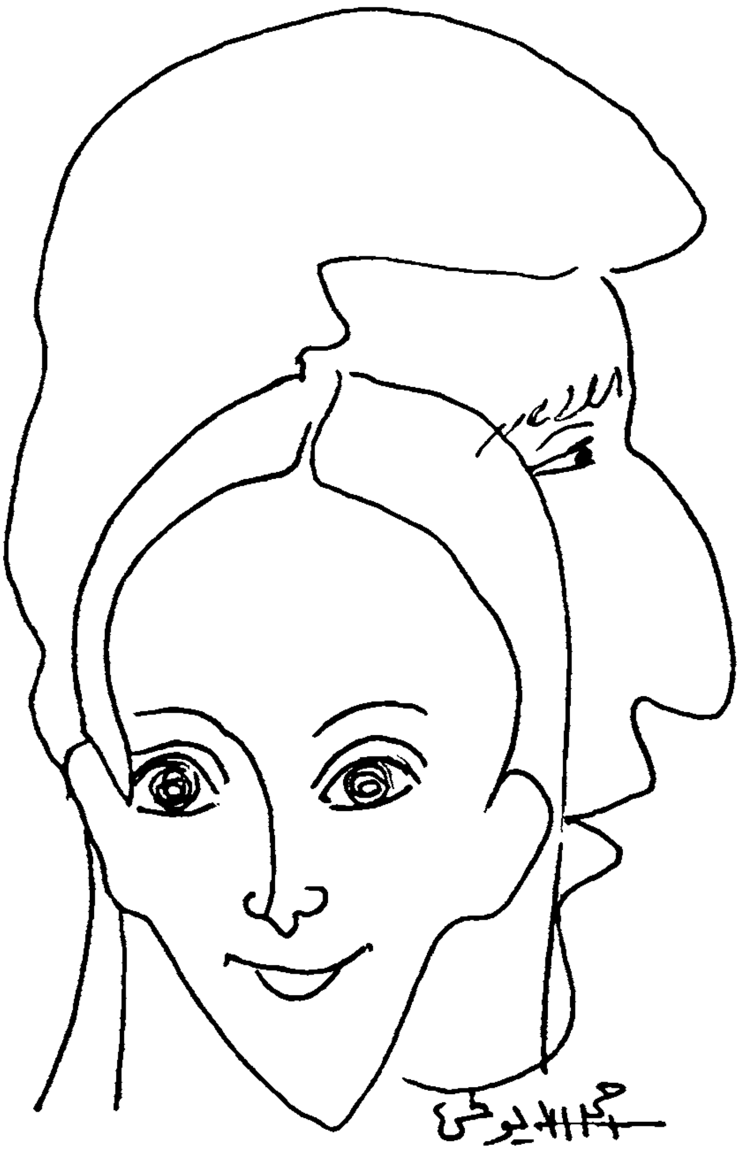

حين دخلت جميلة من عتبة بيته .. كان في رحابه وطن .. هناك غرب النهر .. استشعرت دفئاً .. انتماءً .. لملمت هويتها من على عتبة بيت المناصرة .. الخليل .. دورا .. وجبال تلاحمت.. لتطل على أرض كنعان كلها ، زوجته وطلتها البهية .. مفعمة بالحياء .. تحمل هوية من أرض هناك، أنبتتها من مخيمات لبنان، لم تر ذلك الوطن الذي يحكون عنه ، بل عشقته وانتمت له بكل جوارحها ، ألقت بقلبها وعقلها في وطن " عز الدين" .. وعنب الخليل المترعرع في صدره .. فلسطينية هي" كاملة " ومشوار تكمله معه، وجميلة تكمل مشوارها معها من نظرة حادة تطل من عينيها ملينة بالإصرار لأجل عودة .. عودة من شباك دارها المشرع على غرب النهر حيث كنعان.. وكنعان الذي أنجبته واشتد عوده أمامها.. وكنعان لازالت هناك .. بعيدة .. قريبة .. ويأتي كرمل بنبض حياة ، وتتعربش داليا على ما تبقى من حكايات .. أخت .. وأم لأبطال الغد .. لحظة أخذت جميلة مجلسها في بهو دارهم التفت إليها " عز الدين " مرحباً:

- أتعرفين من شهد على عقد زواجي ؟....

لم ينتظر أن تعرف وقبل أن تقول له من يكون أسرع يجيبها قائلاً :

- ماجد ....

يلتفت إلى كاملة زوجته :

- ائتها بالعقد لتراه .

تسرع إلى حجرتها لتسحب ورقة مطوية توقظها من سباتها ، تحملها في راحتيها، تفتح ورقة مطوية سكنت على كل ما فيها ، فيطالعها اسم أخيها شاهداً على عقد زواج " عز الدين " وكاملة.. لم ينس عز الدين ولم تنس كاملة التي أطلقت دموعها المحتبسة طي ورقة مطوية بعمر زواجها .. كانت دموعها حارقة للقلب والعين .... دار الحديث .. واقتربت المسافات على ألفة وود ، لقاء لن تنساه جميلة .. عز الدين مسترسل في حديثه وكأن لقاءه بجميلة لأول مرة هو لقاء للزمن الجميل :

- أتعرفين ، أول صوت علا على صوت الرئيس كان صوت ماجد ، يومها طلبه وحضر إليه ، كنت أمارس بعض مهماتي بجوار مكتب الرئيس ، أسمع صوته حاداً وكلمات قالها محددة ، وصوت يده حين هوت مع كلماته .. " لن أسمح لك " الصوت الوحيد الذي وقف أمام الرئيس وقال " لا " صوته هو .

لفنا الصمت وحوطنا ، ودموع كاملة تحاول أن تزيحها من على وجهها ، تداري قهراً .. ومرا تجرعته وزوجها .. دخل كنعان ليكسر من وجع اللحظة وحدة الصمت الصارخ داخلنا .. آخذاً مكانه بيننا .. وبداية لأحاديث على طريق لا ينتهي، حديث عن الوطن .. الهوية المتجذرة داخلنا وعن آخرين وحكايات لهم قد تكون منسية .

- حين جاءتني تلميذة من تلامذتي لتقدم بحثاً عن تذوق النص الأدبي في أعمال " غسان كنفاني " ، سألتها:

- من أي بلد أنت ؟....

قالت :

- من غرب النهر

سألتها:

- من أين بالتحديد ؟....

- لا أعرف ، سأسأل والدي وآتيك بالجواب .

- ما نوع عمل والدك ؟

- أبى يعمل طبيباً .

عادت في اليوم التالي تطلب مقابلتي فأذنت لها ، وحين دخلت مكتبي قالت :

- دكتور، أنا من مدينة طولكرم .

تُعرفني مدينتها وتناولني موضوع البحث المكلفة به ، لم أمد يدي لأوراقها ، ظلت واقفة ، تغرقها الحيرة ، وأنا بدأت حديثي معها :

- احتفظي بما كتبت فلن أقبل منك هذا البحث إلا حين تكتبين لي بحثاً لا يقل عن عشرين صفحة عن مدينتك " طولكرم ".

تراجعت من أمامي ، لتمض دون كلمة تقولها وبعد أيام وجدتها تقف بباب مكتبي تعتريها نظرات الخجل والحزن ، وبيد مرتجفة تقدم ورقات كتبتها عن مدينتها " طولكرم " ... " جبل الكرم " محطة القوافل .. عند أقدام المرتفعات الجبلية .. سكنها الناس من قديم الزمان من عمر كنعان .." وزيتا " من زيت زيتونها أخذت

اسمها.. " بورين " تقابل " عاره " لتعود قرية " أتورين " الكنعانية وآرام عائدة من قلب قرية " بلعا " وقضاعة وقبائل عربية نزلت إليها .. المقداد بن الأسود أحد الصحابة ..

اتفاقية "رودس" وهدنة .. استيلاء على معظم أراضيها ولم يتبق لأهلها سوى تلال وعرة .. وخط الشرق السريع .. إلى خط الحجاز ، يضيق ليصل طولكرم بدمشق .. جنين .. بيسان .. وينتهي برمسيس .

أطلق أنفاسه ودخان لفافة ظل حائماً في الغرفة يحاول أن يجد منفذاً حيث ريح قد تحمل أنفاس عز الدين المناصرة إلى غرب النهر .. وضع لها بعضاً من دواوينه أمامها .. وكتب إهداءه عليها .... وقرأ كلمات كتبتها ، ينظر إليها ويعود يسألها :

- لم تصل كتبك إلى غرب النهر ؟!.....

- ....

صمتت جميلة لا تدرى بم تجيبه ، عاد يسألها :

- زكى العيلة .. غريب عسقلاني .. محمود شقير .. سليمان ناطور .. كل هؤلاء يجب أن يقرأوا ما كتبت يا جميلة .

عادت إلى بيتها تحمل ما أهداه إليها عز الدين ، تتلهف اللحظة لتختل ونفسها تفتح قصائده لتعرف من سكنه الوجع وألم الفراق والحنين .. قد تجد المعاني الهاربة منها على أرصفة المدن الضائعة ..كنعانيذا " بيروت " مذكرات البحر الميت .. يا عنب الخليل .. من

قمر جرش كان حزيناً ، تقرأ ، تقف عند الصفحة الخامسة من الإهداء إلى الشهيد الخليلي الجبلي " باجس أبو عطوان " تشهق بأنفاسها ، تفتح عينيها على آخرها ، تنادى من قلبها وعقلها ..

- باجس يا وجعنا وأملنا ..

تفرح .. تحزن .. وهى التي ذكرت هذا البطل في قصتها المهداة إلى روحه في " رماد مشتعل " تقلب الصفحات ، تتمرر بمرارات عز الدين التي عرفت مذاقاتها .. تقف عند كلماته التي لا حدود لها .. من روحه كتبها فكانت فيها روح جميلة

* * *

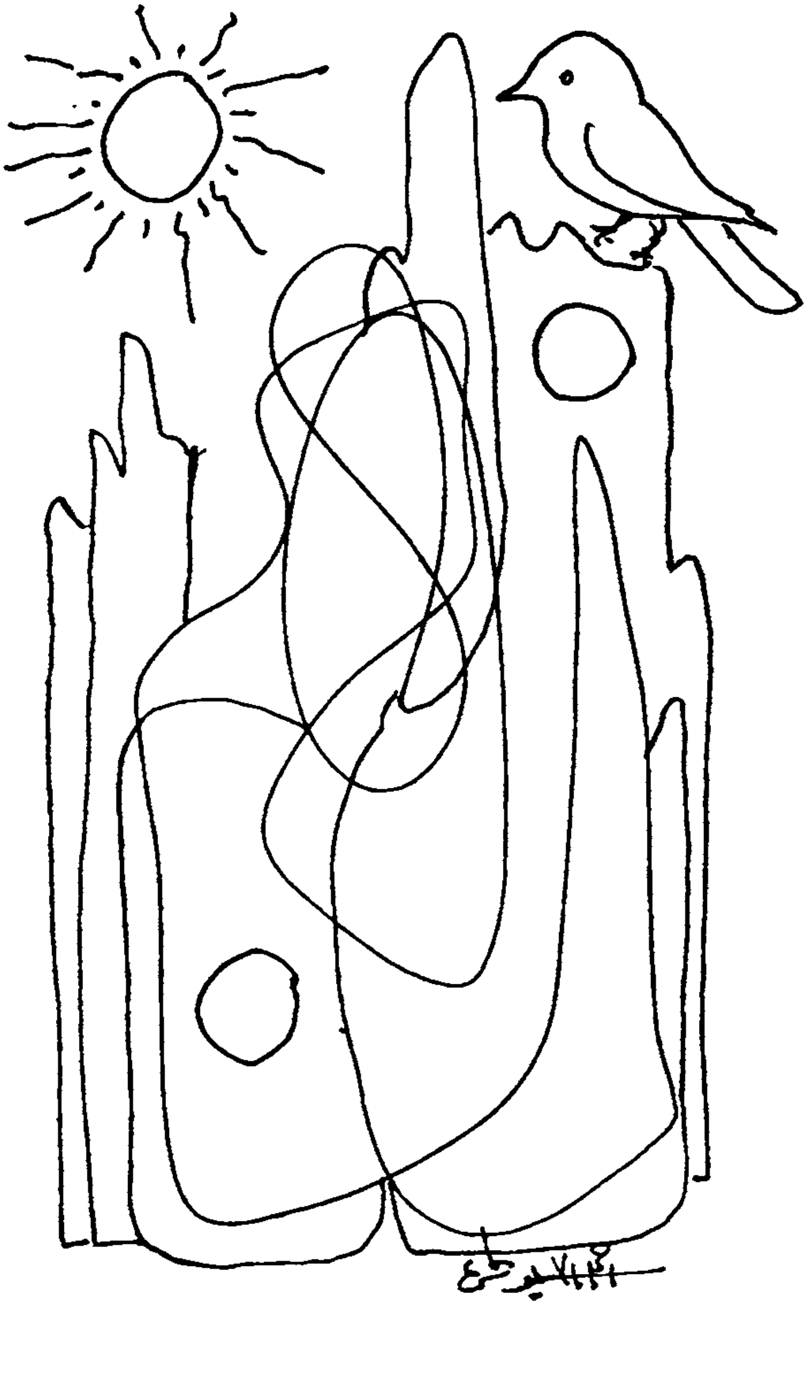

الفصل التاسع

من الصفحة الأخيرة

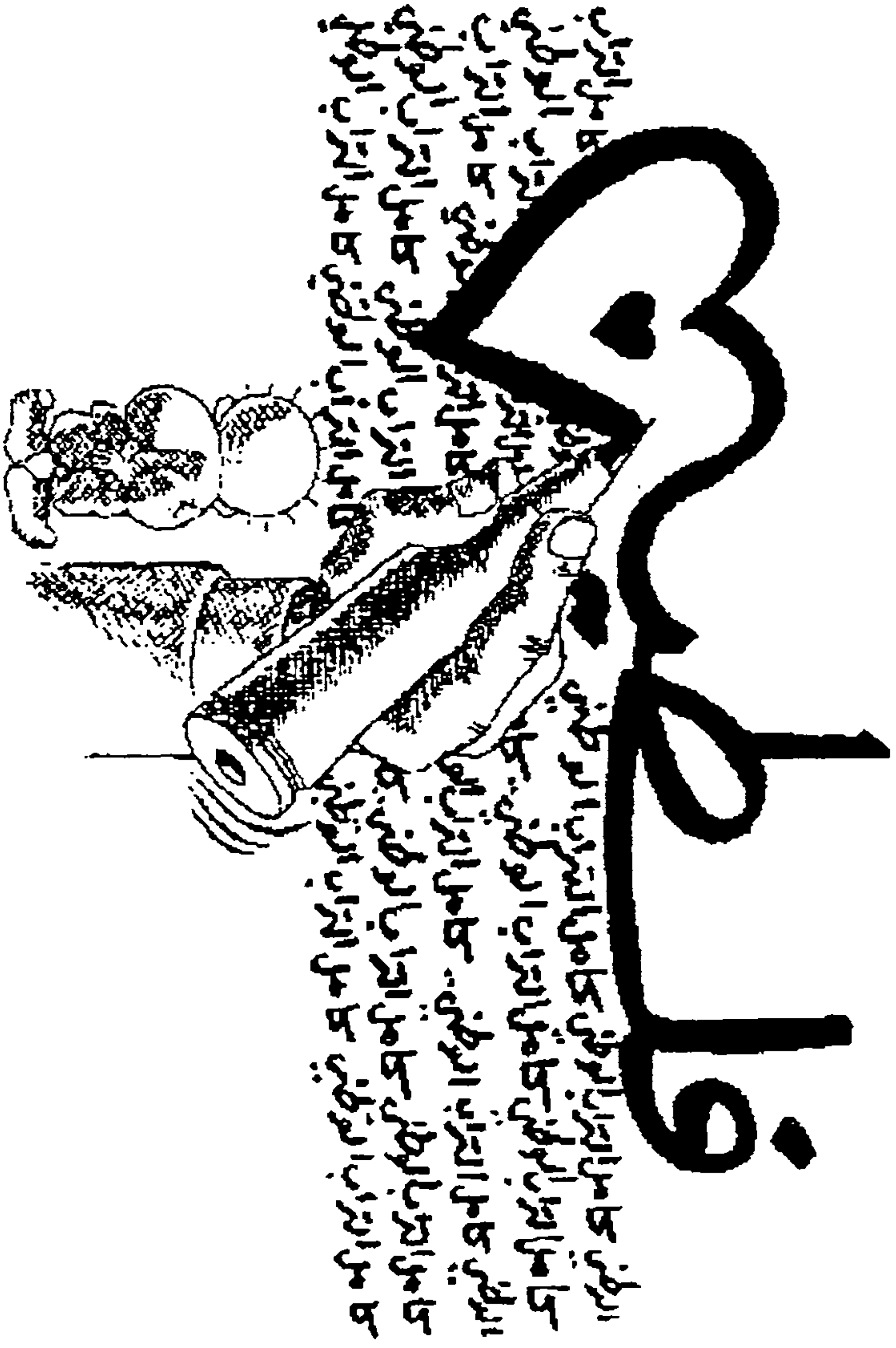

هي صورته ، نظرته الغائرة ، وإصبعان من راحة يده يسند عليهما وجهه ، نظارته التي جاب من ورائها بلاداً وآفاقا ، ويده الأخرى لم تظهرها الصورة ، اليد التي أمسكت قلمه وحملت أوراقه ، وشعره الغزير الذي لم يسكن إليه قمره الفضي لازال ليلاً يحوط هامته ، وخاتم زواجه غانماً في إصبعه ، بعدما أودع زوجته ثرى بيروت ، رسمته يد رسام ، أحب ملامحه ، ووقع في آخر الصورة ، وحوط اسمه بخط دائر ، يقترب وجه جميلة من الصورة تحاول أن تقرأ اسماً أحب ملامح لأخيها ، ولكنها تسدل جفنيها حزينة لفشلها في فك رموز توقيعه، تعود شاردة بعينيها ، ترفعها ثانية لملامحه المطلة عليها، ساعة يده بجلدها الأسود ، لف قرصها ليستدير مع التفافة يده ، كانت تود لو تقرأ على عقاربها زمانه الذي مضى ، وهي التي لا تعرف في أي زمن تكون .

تجلس على مقعد الخيزران المقابل للصورة ، ترقب أنوار الشارع وأضواء السيارات ، قد تستشعر حياة ، وتعود تنظر الصورة فتومض لها بالماضي والأمل العظيم ، وتسأل :

- لم حين زارت أخاها لأول مرة في بيته بعد زواجه أخرج لها هذه الصورة من محتويات كثيرة يحتفظ بها ، وكيف مدت يدها إليه تتلقفها منه ، تود أن تعود بها طائرة حيث بيتها .... وأي بيت يكون بيتها ؟!! .... هل هو ذاك القابع في قلب جبل عمان .... أم بيت لها يكشف شاطئ الإسكندرية الذي تعيش على تقلب أمواجه .

حملت الصورة تجتاحها الحيرة، هنا .... أم هناك.... وضعت الصورة في حقيبة سفرها .... الصورة لا تفارق ذاكرتها ، عادت وأخرجتّها من حقيبتها تضعها على مكتبها ووضعت صورة لها تقابل صورته ، ليلة الرحيل ، نافذتها مشرعة على الوادي الحامل لبيتها ، جلست وحيدة أمام أضواء الشارع والسيارات ، رفعت بصرها للوحة قديمة تقابلها رسمت بالقلم الأسود لصقرٍ فاردٍ جناحيه يحمل على أحدهما مسجد الصخرة والجناح الآخر الأرض دائرة، وكلمات مكتوبة في أعلى الصورة :

" عيوننا إليك ترحل كل يوم " مضت حيث حجرتها أمام صورة أخيها وصورة لها تقابلها من طفولتها رفعتها إليها ماضية حيث البهو تدور بالصورة وعيناها تلف الجدران .... هنا .... هناك... قادتها قدماها لمكان تعلقها فيه تقابل اللوحة القديمة وتحت الجدار سلة من الخوص تحمل سنابل القمح اهتزت لها، وكادت جميلة تشرنب لتصل إلى لوحة وصورة لأخيها ....

استراحت في مقعدها قررت أن الصورة ستبقى في عمان ولن تسقطها الذاكرة حين تمضي بدونها إلى القاهرة ، وتطويها المسافات ، قد تسعفها كلماتها وترسم ملامحه بكلمات محفورة في ذاكرتها على طول المدى .

******

يوم دخولها مبنى جريدة " الرأي " في عمان ، كان الجميع يعملون خلف مكاتبهم ، تتصادم الأجساد عبر الطرقات ، فالأخبار تأتي إليهم دون محطات وقوف أو إنتظار ، وحين نطقت لهم باسمها، مدوا لها أيديهم مرحبين بوجودها بينهم ، كان اسمه هو يسبقها ، فالقادمة إليهم هي أخت فارس رحل منذ سنوات طويلة ، اقترب أحدهم يهمس لها : -

- هو أستاذي حين بدأت مشوار حياتي .... علمني الكثير .... ولولاه لما رأيتني أعمل في مبنى الجريدة ، بعد حرب أيلول الأسود كان يكتب القصة القصيرة في الصفحة الأخيرة ، له قصة لازال عنوانها طي ذاكرتي " رأس ملفوف جداً "

تجيبه بلهفة :-

- وأين أجد كتاباته هذه ؟

- في جامعة اليرموك ، حين تصلين تسألين من يقابلك عن الغرفة السوداء ، له أكثر من عشرين قصة قصيرة لا يعرف عنها أحد شيئاً، في جريدة "فتح" من الصفحة الأخيرة ....

- هل لي أن أتعرف ؟

- من مخيم البقعة ، نزحت إليه من مخيم عقبة جبر .... ومولدي كان في مدينة "تتريس" .... عرفت كيف تبنى بيوت الطين دون باب وشباك ، وكيف أصلح بابور الكاز .... ولي أم من ساعديها أكلنا وشربنا من عملها في الحصر تحت وطأة شمس الغور ولهيبها ،

وأنا الذي تاه على طرقات غور "أريحا" أبحث عن أمي ، زحفت على تراب الأرض باكياً في ليل المخيم ، فعلا عواء الكلاب لبكائي، لتبتلعني وإياهم العتمة ، أنا من كتب القصيدة في مهدها ، وأخوك أول من أراني إسمي مذيلاً في آخرها ، عن " شهداء الكرامة " وإسماً لي مكتوباً على صفحات جريدة تنطق باسم فصائل المقاومة " من يوميات مقاتل " .. صيف ١٩٧٠ .... أنا الذي أنكرني العالم ، وكدت أنكر نفسي ، هو الذي أهداني هوية ، فنمت في داخلي برعمة انتماء للكلمة من خلال جريدة هو معنا فيها ، جمع كل الطاقات ولا أعرف كيف كان يجمعها ، مقاومة ، فتح ، العاصفة ، تجربة توشك أن تسلمنا لعامها الأربعين حملتنا وهو إلى بلاد ما كنا لنفكر فيها ، وجمعتنا ببشر ما كنا لنعرفهم ، وضعتنا في مأزق ما كنا لنحلم بالخلاص منه ، لم يكن لي فراش يسعني سوى زاوية في أسفل بناية خصصت للطباعة ، وليال باردة أمضيتها وحيداً ، إلا من وقع أقدامه أسمعها تأخذ الدرجات السفلية ، يعرف مكاناً أنا قابع فيه، يلقي إليّ بتحية القائد ، ما إن أبدأ في محاولة النهوض حتى تسبقني راحة يده مربتاً على كتفي قائلاً :-

- حسبت أنك غاضب من قسوتي عليك في بداية هذا اليوم ، لنا لقاء في الغد ، تكون أنهيت المادة التي في يدك لتدخل المطبعة .

وسكت عن الكلام شارد النظرة ، وبنبرة خفيضة :

- تعلمت منه الكثير ، ومعه كانت بداياتي ، كثيرون أحبهم ، وكثيرون أحبوه ....

- هل تستطيع أن تذكر لي بعضا من أسماء ؟

غامت نظرته من وراء حجاب شفاف ، حيث مسافات مطوية بعيدة.... رجال ورجال .... ومواقف مضينة تقارب الاشتعال ، تمتم لها بأسماء تذكرتها " أحمد دحبور " الكلمة القصيدة .. " أبو الصادق " خط بيده أغاني الثورة .... رددها وراءه الصغار .... الشيوخ .... والرجال .... بصوت واحد ترنيمة واحدة تمسح وجه الأرض في كنعان .... تذكر كلمات " جوردان " وسط الرنين المر لأجراس الدفن ....

- إذا انتهى هذا الهجوم بالفشل فإن هجوما آخر سيتكلل بالنجاح .

في قاعة السينما يغلب النعاس جميلة ، يلكزها برفق هامساً لها :-

- هل سمعت ؟ ....

تفيق تنتبه لوشوشته الحانية :

- نعم .

وتعود مشاهد فيلم " لمن تقرع الأجراس " تحمله حيث هناك .... أمريكي يستشهد على أرض أسبانيا .... عدالة .... وقهر .... يطير الفارس دون الجناحين .... بعيداً عن دار سينما تحت الأرض وبيروت شرقية وغربية .... وأرض لن تموت أبداً .... وحراً كان

ذات مرة ، لن يعود للعبودية ، وأموات لنا يعيشون كجزء من تلك الأرض.... وفي اللحظات العاصفة كان يلقى إليهم ببذور الأمل .

- اصمدوا... المستقبل لنا .

يلم كل ورقة كتبت في أدب النكبة ، ويوم وقع في يده اللامنتمي " لكولن ولسن " لم يكن يعرف أنه سيكون منتمياً عظيماً .... وأحراش عجلون وجرش تسأل الريح والغيم .... تسأل دفء الأنفاس التي تمر بها عن فارس كان يعتليها حاملاً سلاحه .... كاتب الكلمات التي هو جزء منها ، يوم أمسك بمجموعته القصصية " الخبز المر " أطلت من عينيه البهجة .... ولكن تظل كلمات الآخرين هي مدرسته التي أحبها ....

" إميل حبيبي " كلماته لا تفارق حقيبته التي ينتقل بها .... ، " سليمان ناطور " وحرصه على جمع كتاباته ، يرتفع بصوته يوازر قضية الإنسان ضد كواتم الصوت والقتل السياسي وعمليات التعذيب وحين يسألها د/ السيد نجم عنه، ومشوار نجم في جمع أدب المقاومة ، تلم أفكارها لتعرف كيف تقدم كل ما يخص هذا الفارس الذي يحيا في قلبها صورة ... قصاصات كتبت عنه .... أوسمة حصل عليها ، " وسام فوتشيك " من الاتحاد العالمي للصحفيين ، باسم مائة وثمانين ألفا من حملة الأقلام الذين يدافعون عن الحرية .... " محمود أمين العالم " نيابة عن الحركة الوطنية المصرية في تأبين الأديب الإعلامي ، المثقف الثوري .... عرف الخبز المر ومذاقه ....

وفي مكان خفي قصي تخبئ ما يخصه ، أخذت تمد يدها وتفتح تلك الملفات تبحث عن الدوحة .... وفى الدوحة له قصة وحيدة غريبة.... لازالت هنا .... وهو الراحل هناك .... تقلب صحفات الدوحة لتظهر قصة " الرحيل " وكلمات كتبها .. تلك الكلمات التي ظلت وحيدة .... بعيدة .... هل تضمها جميلة إليها في كتاباتها وتبحر في ألمه وشجنه العصي العنيد ... " عمري تسعة وثلاثون عاماً ، وأنا الآن في مدينة لها بحر، من الشمس تولد... كان هناك لي بيت وأرض .... وهنا لي بيت بلا أرض .... هناك كان لي ماض ، وكنت أملك ناصية يومي .... وكنت أزرع أحلاماً تشرق بهية في غدي ، وأنا هنا بلا ماضٍ .... يومي بطاقة سوداء ، هنا أنا بلا جذور .... بلا أصل .... " وأغصان شجرة الجوافة لازالت حطباً يتقصف كل لحظة في قلبها... وشمس مدينتها مازالت نائمة في البحر ورحيل فارس ، لتبقي منه صورة يلفها اطار معلق على جدار هناك ، وتظل لوحات إسماعيل وتمام تحكي لها عن جواد دون فارس " لا تتركوا الحصان وحيداً " أحلام الغد .... الربيع الذي كان .... صور .... لوحات .... معلقة هنا.... وهناك .

* * *

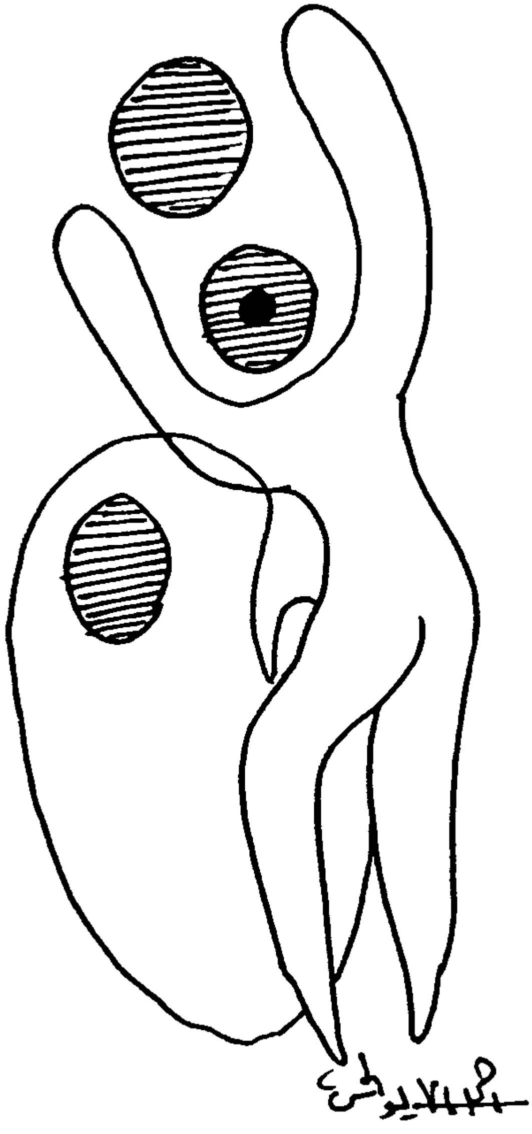

الفصل العاشر

قطعة صلصال

تفصلها عنهما قطعة رخامية ، منمشة بألوان في دوائر متعرجة ، تنبسط أمامها في ألوان أسود ، أبيض ، زهري ، تحاول أن تقبض بعينيها على أحد ألوانها ولكنها تتوه في انبساطها وثباتها على قوائمها ، كلمات الطفلين تقطع ملامحاً تحاول أن ترسمها ، لترحل عيناها على أنامل صغيرة، تقطع قطعة الصلصال فتلين في راحتيهما.... هسيس الكلمات المبهمة وحروف لم يقدر لها النماء بعد ، طفولة مفعمة متفتحة كرائحة ليلة القدر حين تطوف سابحة في فضاء الليالي الندية ، تحمل أمنيات .... كلمات الحنين .... إلى الصحبة ، وبيوت خلت من باب وشباك .... أراحت بصرها على راحتيهما الصغيرتين ، ترقب حركة أناملهما وهي تلف قطعة الصلصال إلى كرة تدور تحت وطء راحتيهما ، تلف ملساء وتدور في حركة تذيب تعرجاتها تحت ضغط راحتيهما عليها ، وبصرها لم يكف عن الدوران لقطعة صلصال تكورت بين راحتي الصغيرين ، وما إن تخف حركتها حتى تحفر ملامح وجهها الدائرة بين أنامل طفولية ، لا تود التوقف معها ولا أن تلقى جانباً .... وجهها الذي رسمته بعينيها ، بحزنهما الساكن فيهما، تلتقط أنفاسها من ناي أحبه ، ودبكة لم يعد يدق الأرض بقدميه على أهازيج المواويل ، باتت أنامله وحيدة . تقبض على الريح ، لم تعد تتناوب الوثوب على ثقوبها .

****

اختار الجلوس معها ، يحكى لها عن رائحة حبات القهوة المطحونة وفنجانا قهوتهما قريبان، يتدفق عبقهما متعانقاً ، تستل فنجانها ، ترتشف منه بقايا ما علق عليه من حكايات ، أما هو كان يبدو على ملامح وجهه أنه غير قادر على تجرع مرارة فنجانه ، فكان يسكب الماء البارد فيه ، قد يمتص بعضاً من مرارته، أما جميلة فالمرارة عالقة في فمها تتجرعها، من مقهى القهوجي ، كان يحكي لها مسافراً وراء كلماته ،. يلامس راحتها حين يقبض على الكلمات معها ، كانت تتحفز لتلك الحركة التي تصلها دون تفكير منه ، تحاول الوصول معه بعد تحليق وسفر ، وتعود ، يحين الوقت ليمضي كل منهما في طريق المواعيد والارتباطات على طرقات المدينة ، لكل منهما مطلع جبل ، قد يكون طريقه وعراً أو له منزل فتلتقط عليه الأنفاس ،همس لها للقاء آخر ، ترفع راسها تنظر إلى قامته المديدة بجوارها ، وتسأل نفسها ، هل من الممكن الوصول إلى أغوار هذا الرجل ؟!!.. هو يطلب لقاءاً آخر ، الحديث لم ينته بعد ولازالت هناك بقية....

- جميلة معذرة ، تبقى عدة نقاط أحب أن أحدثك عنها ،هل لي بلقاء آخر ؟

ترد وخيوط الشمس تعاكس نظرتها وضيق الوقت لديها :

- الوقت ... من الممكن في الغد ظهراً .

- فليكن .

يجلس في انتظارها بعين قلقة تتنقل من رصيف إلى آخر، حين حضرت عاودته ابتسامته، يرحب بها، تشد مقعداً قبالته، ويبدأ يكمل لها حديث الأمس، وما يؤلمه من أمنيات ضائعة ، لازال حريصاً عليها، يجلس أمامها كمن أعد أجندته ورتب أوراقها ليعرضها عليها... ما إن يدخل في نقطة وينتهي منها حتى يبدأ بأخرى ... لم يخطر ببال جميلة أن تحدثه عن نفسها.. ولم يخطر بباله أن يسألها.. كل ما يدور في ذهنها أن تقف على حدود ما يعاني منه .. تحاول أن تمسكه طرف خيط يستطيع من خلاله أن يتغلب على أزمته الضاربة في كيانه الممزق أمامها .... أجندته زاخرة لرجل يتعامل مع المعادلة والرقم .. متى يبدأ ومتى ينتهي .. وخيارات مطروحة أمامه .. استشاري هناك .. أو مقيم هنا، ولكن بفعالية أكبر بين شباب متميز يتبنى أحلامه .. خيار واحد أمام جميلة ، أن يبقى هناك بين أبناء وطنه ولا يقطع الطريق عليهم، ليتركهم ويمضي.. يصغى لكلماتها، ودورة أفكاره التي لم تستطع أن تصل إلى آخرها، لتظل تلك الورقة الأخيرة المفتوحة أمامه تحمل كل الخيارات، يجوب وديان جبال "رام الله" فلا تلتقط يداه سوى أزهار فيها أريج ما تبقى له من أمنيات وورود لا يتردد في حملها إلى زوجته ، ولا أحد.... يلقى بوروده في حجرة نومها ، في مطبخ اعتاد الوقوف فيه ، وطهو ما يقدر أن يقدمه وجبة تكفي حاجة صغاره .

يفاجئها بسؤاله :

- جميلة لمن أقطف ورودي هذه ؟!! .... هل لكِ أن تجيبيني ؟.... زوجتي لا تلقي بالاً لها وأنا الذي ....

دفع فنجان قهوته بعيداً عنه ، يمسك ببعض وريقات مبعثرة يبدأ في لفها وفردها وطيها مرة أخرى ، ويعود فيرفع عينيه إلى جميلة ينتظر إجابة يسمعها.

- إذا كنت تحب الورود فلك أن تقطفها وتحملها حيث تريد.... عش لحظات من عمرك أنت وأحبها ، لِم يصيبك الحزن إذا كانت ورودك هذه لا يلتفت إليها أحد؟!... ولا تجد أيدي تضمها وتتشمم شذى تحمله من سماء وأرض ، يكفي أنت.

وسكتت عن الكلام ليعم صمت، ولا تعرف هل سيتجاوب مع فكرها الذي طرحته أمامه لم أنه لازال مصراً على الوقوف بائعاً للورود ينتظر الأيدي الممدودة لالتقاط ما يبيعه ؟!..... ولا أحد ....

****

يتركها ويمضي ..وتمضي هي إلي نهر الطريق ، وكلمات قالها على رصيف الشارع البعيد من هناك ، تعود تعيدها في ذاكرتها :

- كم أحب النظر فيما وراء وجهك، وأكشف عن غموض نظرتك يا جميلة.

كلمات لم تعر لها صدى، بل واصلت حديثها معه ، يسألها..تجيبه ، يطلب نصحها ، تشحذ ذهنها لتريحه، تحاول أن تبثه قوة قد يواصل بها، تسأله :

- هل ستقدر أن تتعامل مع واقعك بعد حديثنا هذا ؟

- سأحاول .. هل تعلمين أننا لجأنا للدجالين وقارئي الكف .. الرجل الجالس أمامك بكى يوماً .. أتتصورين هذا ؟

تجاهد في الإبقاء على حالتها طبيعية أمامه، تشد أحبال صوتها ، لتصل نبراته هادئة إليه :

- ما يهم هو أنت، الوطن يحتاجك .. يحتاج لرجاله الأقوياء، لا تدع تلك المحطة تنال منك وتتحطم عليها .

ملامح وجهه أمامها لا تساعدها ولا تدلها أنها قد تصل معه لحل يخرجه من دائرة الأزمة، تعود تشحذ عزيمتها أمامه، تواصل عسى أن ترتاح نفسها :

- أنا لا أحدثك عبارات إنشائية، بل من تجربتي.. عاندت أيامي لكي لا أكون قوسا مثنيا .. كم أحب أن أنقل تجربتي إليك .. أتفهمني ؟...

يرفع عينه إليها ويعود يحرك ورقته المثنية بين أنامله يمينا ويساراً..

- أعدك يا جميلة .. سأحاول .

بدأت تتلفت حولها إلى الطريق الذي أمامها تنظر ساعة يدها ، حانت الساعة للقيام ، لم يتبق منه حين يرحل سوى عنوان .... تسأله عنوانه .... يوشوشها :

- قد لا تجدينني مرة أحرى .

- إلى أين ؟....

ـ إلى حيث لا أدري... أتوه في زحام أيامي القادمة .

يسألها عن أرقام يصل إليها من خلالها ، تحاوره بنظرة ماكرة :

ـ وكما قلت حين أنوي البحث عنك لن أجدك .

ألقت له بكلماتها ومضت حيث نهر الطريق تفكر في ذلك الرجل الذي تبخر من أمامها

****

حين اقترب منها في أريكة تجاورها في مجلسهما همس لها دون أن يشعر الجالسين بحرارة كلماته :

ـ ما نوع عطرك الذي تضعين ؟

تخيلت قوارير عطورها وأسماء لا تذكرها ..

ثارت أفكارها في سؤال يتبعه آخر .... سؤاله يشبه تساؤلات أخرى.. العطر .. واسم له .

ارتفعت إيقاعات الطبلة وترنيمة المواويل القادمة من خلف النهر ، تأتى ثائرة بعد محاولات لكسرها .... وأدها .... دفنها .

يتقدم لينضم لحلقة الرجال حيث تتشابك السواعد أمام النسوة المقابلات للرجال من كنعان القديمة.... كنعان الحاضرة التي لم تمت في حكايات مطرزة على الصدور ، مد لها يده ضمها في راحة يده ، أرادها معه ، أرادها ليبث دفء قلبه إليها من راحة يده إلى راحتها.... لتكتمل حلقة من رجال ونساء من قلب كنعان .

****

زعتر وزيت .... خبز وملح من يدها في مائدتها الفلسطينية.... تجاوره في جلسة تشتد المسافات اقترابا بين راحتيهما .. تمضي عنه .... ويبقى هو شارد النظرات على رقم كتبته له ، قد يصل به إليها .... حين مضت عنه أنَّ لرحيلها مقعدها ، وقع قدميها ، دقات الطبول لفراقها .... آخذة طريقها على درجات البيت ، تقف ، تستقر عيناها على حقائبه المتكومة تحت الجدار .... حقائب ستعبر النهر معه إلي بلاد تحب فيها طفولة راحلة عنها .... وتحب أنوثة آفلة، من تلك الأرض الحاملة لقلوب رجال يحملون الحب بين طيات جوانحهم وجميلة البعيدة ، تنظر النهر ، وجسر سيحمل أقدام ذلك الرجل وهل سيعود ينفخ في نايه وتتقافز أنامله على ثقوبها .... فتعلو الهتافات والتصفيق ، ويرجع له بريق عينيه ، هل سيذكر أنها أعادته بقوة إلي هناك يوم تدفق دمعة فرح.... في ليلة يعلو فيها التصفيق و كلمات ابنه لرفيقه :

- لقد عاد أبي.... عاد إلي نايه ودبكته ....

وتعود أمام كرة الصلصال.... تخاف أن تضغط أنامل الصبي عليها فتخفي ملامح أحبتها من هناك ..

****

الفصل الحادي عشر

أزمنة .... طائرة

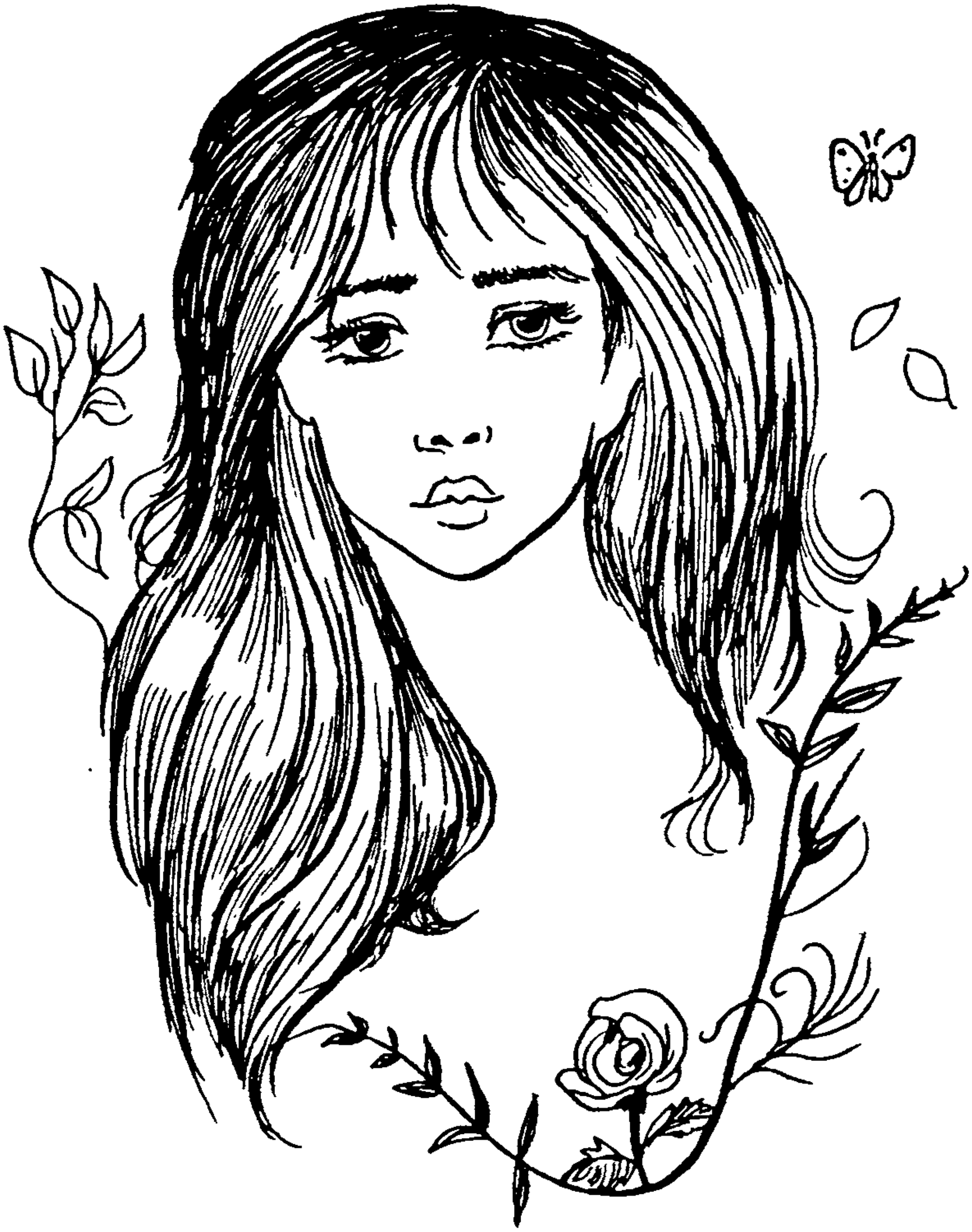

حين تقف رغد على عتبة حجرة أمها ، وجميلة تشق طريقها وسط كلمات محمومة ، ترفع رأسها تنظر علامات وضعتها بين صفحات كتبها ، رغد ووقفتها ونظرة غير راضية .. لاتحتمل الوقوف وسط الحجرة ، لديها أسئلة كثيرة واستفسارات تود أن تعرفها من أمها التى لم ترفع رأسها لها ، بل لم تشعر بوجودها في لحظات نسيت فيها زمانها ، ونظارة زاحفة إلى آخر حدود وجهها عند آخر نقطة على أنفها زمن.... سباق .... تحد... مواصلة

تناديها :-

- أمى

تستغرق من الوقت حيناً ، وتعيد نداءها

- أمى هل لى بدقيقة ؟....

ترفع لها رأسها وكأن جبلا ينزاح عن كيانها .... حبيسة فكرة مثقلة بها ، أسيرة .... جريحة .... تعيدها رغد لحاضرها في لحظة.... تنظر اليها وكأنها تراها لأول مرة

- ماذا هناك ؟

تبدأ تسأل أمها عن أزيائها التى تلبسها ، تدور بجسدها الممشوق أمامها

- ما رأيك ؟ البس هذه السترة أم بدونها أكون أفضل ؟....

تهز رأسها :

- لا بأس بها .

- وشعرى هل ألمه ؟.... أم أتركه منساباً على كتفى ؟ ....

- في كل الأحوال جميل

- هذا القرط أم ذاك ؟....

تشير لها:

- بل هذا

تتأفف لها قائلة :

- أمى تردين علي دون تركيز ، وأكيد أصابك الملل من تساؤلاتى، لن أسألك مرة أخرى .

تلوى غاضبة ، وتعود رأس جميلة تنحنى لورقها .... تلحق بمد الكلمات قبل أن تودعها على آخر محطاتها .... ترفع عينيها تنظر الجدار وإطارا لصورة أمامها أتت بها من هناك .... تضم أسرتها وهى وسطها ، وتغيب خلفها آخذة كل الوجوه المحفورة في ذاكرتها معها.... لا تنس ذلك اليوم الذى اضاء فيه نور آلة التصوير في عيونهم .... وكيف لمهم والدها ينادى كل منهم باسمه ، لتجمعهم صورة واحدة ، وتفرقهم حياة .. وجه بات في كندا الثلجية ، ووجه في باريس مدينة النور، وأخرى على جبال عمان لازالت تحلم بجوز ولوز وتين يأتون اليها من وراء النهر .... أما هى هنا .... ووجه أمها .... وحجرتها هناك شاهدة عليها ، تذكر أمها مستلقية على سريرها مسندة ظهرها لوسادتها ، ونظارة قراءة تشبه نظارة جميلة آخذة في الانزلاق ، تقارب السقوط على صفحات كتابها المفتوح ،

تناديها ، لا تجيب ولكنها تصر أن تسمع أمها شكواها وسط انهماكها.... تشكو لها دلع أخواتها وسماجاتهن ، لا ترفع عينيها لها.... تتأفف .... تحتد .... تضرب الأرض بقدميها .... تعود إليهن حيث مجلسهن ضاحكات .... ساخرات لم يتوقفن ، اطار صورة ساكن على الجدار تملؤه حياة .. لازالت عين جميلة واقعة في شباكها دون فكاك .. جميلة وأمها.. رغد وجميلة .. وصفحات من كتاب هى الزمن الذى ترغب في اللجوء إليه ، لذات معذبة تجدها في شخوص تهيم في البرارى فتهيم معهم .. جميلة لا تجيب .... كما أمها .... من خلف إطار أخذها إلى الزمن البعيد حيث هى هناك غارقة بين سطور الكلمات ....

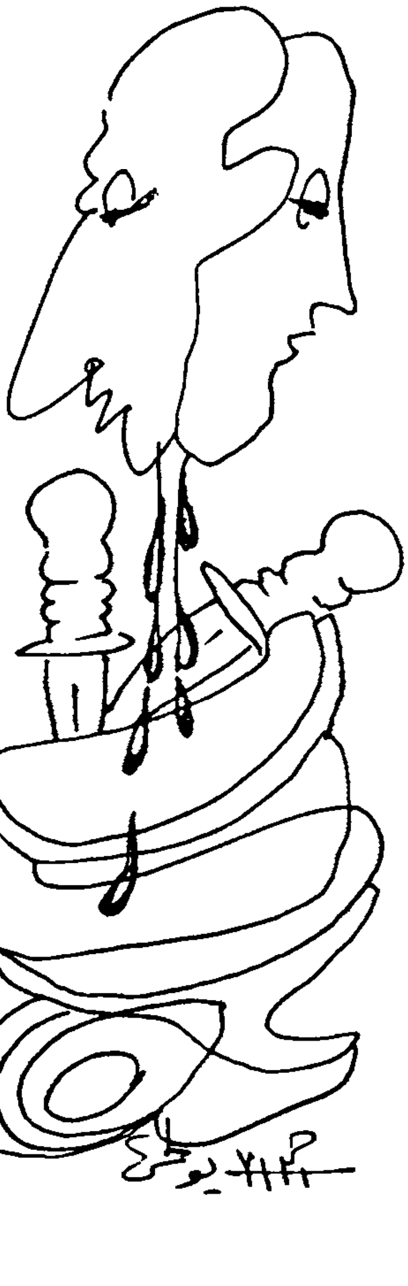

الفصل الثاني عشر

من نصل سكين

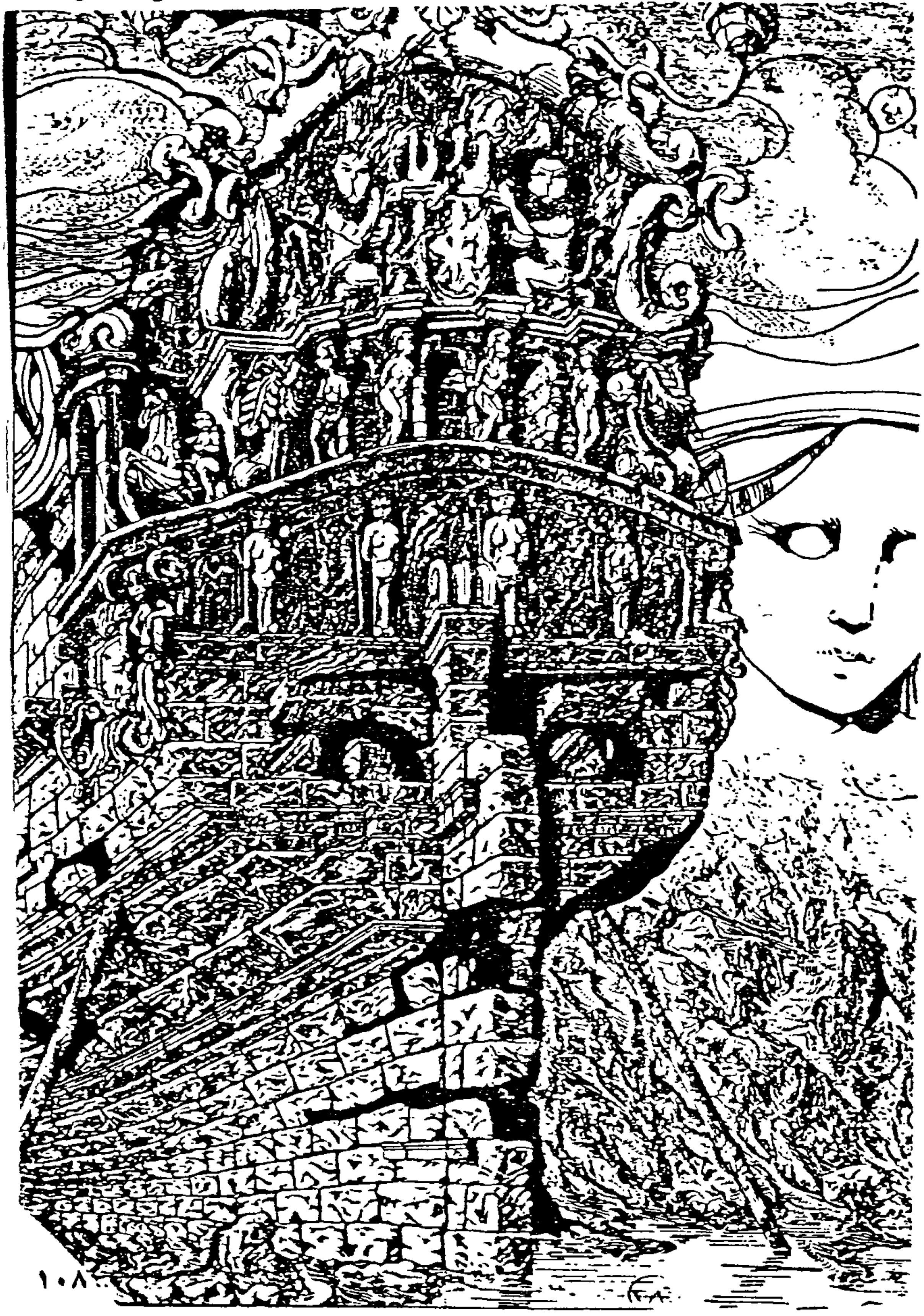

حين رأتها جميلة من شاشة التلفاز تشد عقداً يحوط عنقها ، إبنتها جثة بين يدي أبيها ، الذى غسل نصل خنجره بدمع حار ، بل قطرات من ماء النار تزيح ما علا صدره وقلبه ، حاملا بين يديه نقاءه ، طهارة قلبه التى تطهر بها حين نزفت دماء إبنته جميلة على ساعديه وخضبت راحتيه... وأمها وقلادة انفرطت حباتها ، وأساور ذهبية تنزعها وتلقى بها إلى تراب الأرض،فلم يعد للذهب بريقه ، ولا للقلائد وهج، صرختها تدوى في بطن الجبل من النجوع البعيد... ليصرخ معها قلب جميلة، وتلف لها عدسة التصوير وتريها وجه البوسطجى، فخرجت صرخاتها من عينيه، ملقيا بالحقيبة المشؤمة تاركاً جسده للريح ، عادياً معها ، يعلن تطهره على دماء جميلة.... ينتفض قلب جميلة وترحل عنها روحها بعيداً حيث هناك الآتى إليها..ولهفة قلبها على جهاز الهاتف الصامت أمامها، تدير قرصه ، تطلب عثمان،ليأتي اليها برواية البوسطجى، وحبات كريستالية تلمع في ذاكرتها وقلبها..وهل تتطهر جميلة بكلمات كتبها يحيي حقي ؟!...أم بكلمات أنشدها كروان من النجع البعيد طوى جسد هنادي ....

****

وأقدام أحلام يوم ساقتها من الخضرة.. بحيرة.. كفر الدوار...إلى عتبة بيت جميلة..حلم يقتلعها ويلقى بها على عتبتها..وانفجار بركان يندفع من رحمها يشيع بللاً يغرق ملاءات سرير تطوى جسدها على طرف منه،منكسة الرأس وراحتاها تضمان أسفل بطنها...بداية

هذيان باسم " منصور " ذلك الاسم الذى شاركها الحلم ومزق الغلالة البيضاء النقية،ملامح منصور تشبه ملامح الرجل الذى شارك ابنة" أبو حسين" أحلامها، استسلام أحلام لآلام المخاض في خبطات واندفاعات من كل اتجاه، لصوت يريد أن يصرخ في وجه الحياة.. بأنه حياة .. تشهق أحلام باسم منصور على عتبات مستشفى" الشاطبي" ولادة وسط تجمع نساء ينتظرن ليكتبن أسماء لإناث وذكور من عنبر الولادة .. مستلقيات على ظهورهن...بعض منهن يشددن بقوائم الأسرة، وأخريات استسلمن لآهاتهن وصرخات متشنجة يشد بها حبل المحلول المعلق على الحامل ومنه ليدها ، وكلمات الممرضة المارة بهن :

- تنسين الآن الساعات الخوالى ، وتأتين إلينا بالصراخ والدماء النازفة .. يا لكن من نساء قادرات !....

تتسمر لهن وسط عنبر الولادة تنظرهن غيظاً .... وكدرا .... وجميلة الواقفة تمسح بعينيها وجوههن المعروفة قائلة :

- كلهن منصور...ما الفرق بين منصور احتال ليضاجع أحلام... ومنصور آخر...وآخرين أين هم جميعهم ؟!! تتلفت من حولها لا أحد!!...

تقترب من النافذة ، تسقط نظرتها على رؤوس أمهات يلامسهن الهمس والأسى على إناثهن المستلقيات في الأدوار العلوية ، وهن متشبثات بصررهن تضم ملابس القادمين إليهن...إناث...وذكور

وليلـة قـد تـأتى بمنصـور أو أكثـر.. ومـن وسـط عنبـر يضـم أحـلام وغيرها مالت نحوها موشوشـة، تشد راحتهـا الهزيلـة بين يديهـا ، مثبت عليها لاصق المحلول تربت عليها قائلة :

- ستلدين الليلة ، وستكون بنتا مضينة الوجه مثلك

تمسح عرق وجهها ، تتلوى أمامها من خبطات ظهرها.. ارتطامات روحها في جسدها شهقت لها تود أن تقول :-

- منصور..سيأتى..سيعقد العقد هنا..هو وعدنى .. وسنخرج سويا أنا .. وهو .... و ....

- لا تشغلى بالك .. لم يعد يهم .. المهم هو أنت يا أحلام

وتحت إلحاح صوت جهورى خلا من الرحمة،انسحبت جميلة من عنبر الولادة وهواء يلفح وجهها بسياطه، وحافة سور واطىء استنامت على مجراه أعشاب هائشة.. جلست رافعة وجهها للسماء.. فطالعها قمر لليلة فضية.. أنت أيها القمر، أعرفك وتعرفنى .. كلما رفعت إليك وجهى.. تطالعنى .. وموعد مع حكايات مضت وأخرى آتية إلينا..من جميلة..أحلام .. هنادى..تعرفهن جميعهن.. أنت الذى أضات بنورك وجوههن حين واراهن التراب.. فكان لهن فيك آخر عناق.. وأروع عناق .. حب ينصهر في صلصال.. حمأ مسنون في زمان ومكان.. من زمن أبي جابر.. وزمان أبي حسين.. أبو جابر مهاجر يحرس مدرسة وكالة الغوث للاجئات، كن بناته خمسا وأصبحن أربع، وأخوات لها حرمن النطق باسمها .. ظلت أفواههن

تلوك أعشاباً برية تستقر مرارتها في حلوقهن حين يسألن ذلك السؤال ، ويجبن بأنهن شقيقات أربع ، وجميلة وتأكيد أمها الدائم لها ، كن خمساً

- أين ذهبت الخامسة ؟!....

- حكاية طويلة يا بنيتى ....

لم يمض وقت طويل حتى انطفأ نور قنديلهم، ورحيل إلى ما بعد نهر الأردن، وانقطاع أخبارهم، والخامسة بقيت في تراب لا ينسى جسداً أذابه فيه، وحكاية لم تذب، لم تفن.. بل ظلت تذكر جميلة حكاية غلفها الصمت والرهبة .. وأخوات لها أصبحن أربع خلف النهر .. ومن ليالى غزة المقمرة خيالات أبي جابر بجسده العملاق وابنته يقودها وراءه فوق أحراش البرية التى تزف القادمة إليها ، وعودة له بدونها .. ليصبحن هن الأربع خلف النهر ، وحين تسوقهن جدران المدينة إلى طرقات لا يقربنها ، ورؤوس لا يرفعنها، وأصواتهن لاتصل من يسمعها .. كأنها الواقعة في قاع بئر وتكسرت لآلاف القطع.. ومن هناك من خلف النهر قد يلملمن ما تكسر منهن

****

والقمر لازالت تلمع له حبات من نجيمات كريستالية ، نسجت معه خيوط حكاية من ليلة كهذه ، ألقت اليها بأحلام وليال بعيدة .. باتت قريبة .. بل هى عجينة واحدة لمذاق واحد يتجرع مرارته جيل وأجيال لازالت تتابع قوافلها، حسنة إبنة أبي حسين، خانتها فتحات

تشبه الشبابيك في مخيم كان فيه صباها ، حين وشوش لها محمود بنار الجوى :

- حسنة لست أنا بذلك الشرقى الذى ينفق أيامه جالساً في المقهى حالماً وحبيبته على بعد خطوتين منه ..

وخبر جاء لبيت جميلة، بأن حسنة قتلها أخوها، ومطلوب من أبيها الوقوف دفاعاً عنه في قضية تخص الشرف وعرضاً مهتوكا ، وتنطق أم جميلة وسط ذهول سابح يضمهم.. يعتصرهم وإياد .. تنطق في حزن.. سخرية .. تهكم.. من كلمات تقولها لصغيراتها وهى تضرب كفا بكف:

- أين يقبع الشرف فينا ؟!!

وجوه بناتها حولها ونظراتهن البريئة، لا يعين ما تنطق به أمهن ، ولكنهن يعين معنى الدماء والموت وثرى يفنى الأجساد البضة الفتية، وتعود تدور دورتها مرة أخرى، تسأل عن الشرف ؟!.....

- الشرف له معنى أكبر،ولن يكون يوماً في مواضع تثير حياءنا.. يا للعار..ويا لحزنى على الصبية..يا ليتها جاءت إلي.. كنت .. كنت ..

تدمع عين جميلة لبكاء أمها وتهتف من داخلها يا ليتها جاءت إلينا.. من نشيج وإجهاش وشباك حزن تلقى أمامهن ، قد يلقين بما أصابهن فيها

****

صورة حسنة مسجاة في ساحة دارها في" مخيم النصيرات " رافعة يدها أمام وجهها لكى لا ترى وجه قاتلها .. وعالم قهرها افترس منها أيامها وصباها .. وقاتلها يحيا بجسد يقطر بدمائها من جميع مساماته، لم تحن القلوب لصرخة حبيبها ، إنه سيتزوجها وأخذها بيده لبيت المختار ليعقد عليها .. جاءها أبوها متوسلاً يطلب منها أن تخرج عروساً من بيته ، تطيعه راضية ، وتعود إلى دار أبيها.. تخطو على عتبتها لتجد السواد سكن مقل العيون ، وأيد لا تنثني عن رفع رؤوس نكست ، تؤجل موعد سقوطها وانكسارها ..

خطوة حسنة على عتبة أبيها عقدت بها على كل لحظات الحزن والفجيعة فيها، وهى لازالت جسدا ينبض بالحياة .. ونبض آخر ينمو في روحها يؤنسها في ليال لا تطاوعها جفونها، تخاف أن تنسدل على عتمة قد تطويها وتذوب في جوفها إلى الأبد، للعتمة خيوط ، عتمة قبر سيضمها ، وعتمة قلوب أنكرتها تكومت على حواف بلطة مسنونة ، هوت بها يد شقيقها ، ويدها التى رفعتها لتغطى وجهها ، تحجبه عن عالم لم تعد ترغب فيه .. وأم دارت في حومة الفراشات فاقدة لعقلها حين تقطعت أوصال رحمها صارخة فيها :-

- كيف ترضين أن تذبح قطعة من روحك ؟!!.....

****

يوم زار القاتل بيت جميلة بعد أن قضى عاماً عقوبة لقتل أخته حسنة دفاعاً عن الشرف، لم ترفع جميلة ناظريها عنه ، بشعره

المقلوب إلى الوارء ، بأسنان مشطه الظاهرة عليه ، رائحة العطر تفوح من قميصه الأبيض ناصع البياض ، خلا من أى بقعة دم حمراء قد تلوثه، قسمات وجه فتية نضرة ، وعين جميلة منغرسة في أصابع كفيه التى يحركها بطريقة طبيعية، يضمها، يفردها، يمدها للصينية الحاملة له عصير الليمون، غارقة فيه حبات سكر قد تكون لازالت مستقرة في قاعه، ترفض أن تذوب له .. تسمع رشفاته ملء أذنيها.. ليمتزج بصوت كروان لم يهدأ قلبه، لم يطو جناحيه إلا حين يجد هنادى المتكومة في بطن الأرض.. يبلع ريقه يوزع التفاتاته إليها وللجميع لا شيىء تغير.. كل ما تبقي من الصورة أن يقابل والدها ليقدم له جزيل شكر وعرفان بعدما نفض يديه من تراب أهاله عليها ومسح يديه من كل آثار لها.. أما هى التى طواها الثرى ، جميلة لا تعرف اليه طريقاً حيث البرية، يا ليتها تعرف.. ويا ليت طائر الكروان يدله قلبه ويحط أينما هنادى.. لو عرفت جميلة ستذهب حيث هناك.. تحتضن صبارها.. توشوش قبرها.. أنها أحبتها وأن في العالم من يذكرها.. يذكرمن شقت حواف بلطة صماء خرساء جسدها.. تركت جميلة مجلسه ومجلسهم ولاذت الى ركن قصي وحيدة.. وكيف لقاتل أن يزور بيتهم ويجلس على أريكة ضمتهم.. ويشرب شرابهم ؟!..تتحدث اليه أمها.. وأبوها !!.. صدمة أطاحت بجميلة ، لم يستشعرها أحد، وظلت على زمن طفولتها

المبرعمة على حوائط دارهم هناك .. كلما سمعت للكروان صوتاً ينادى .. تسأل

- لم طاوعته يده لقتل أخته حسنة ؟!.... الخال .. وهنادى .. والأب وبناته اللواتى أصبحن أربعا

****

هل لجميلة أن تحكي عن نهاية ، ونهاية هو اسم لصبية ، اسم رسم شرخاً طولياً .. عرضياً .. في نفس جميلة .. من على سور واطىء تنمو عليه أعشاب هائشة ووجه نهاية يقذف به قمر آفل ليضيىء مدناً وقرى ونجوعا غارقة في العتمة .. وهذه النهاية التى تحدت قيم مجتمع ، وأرادت أن تحطمها و تمزقها من خلال غشاء بكاراتها الذى فضته مع كثيرين .. ومتعة تستمد منها وجودها ، بأنها البطلة الوحيدة والأخيرة ، أما الأخريات فلا زلن متواريات خلف الغشاء .. كيف لنهاية أن تحيا ؟!.. وكيف لهنادى أن تبتعلها البرية؟!..... وطائر عاهد عينيها حين رمقته بها مودعة أن لا يضم جناحيه ويركن للراحة إلا أمام عين هنادى .. تخلع نهاية رداء وتلبس رداء.. تضم رجلاً .. وتنكر رجلاً .. صوت أنفاسها تسمعها جميلة ووقع أقدامها .. صفقات أبوابها .. تعيش نهاية .. ماضية إلي كل نهايات جنسها .

الفصل الثالث عشر

محطـــــات

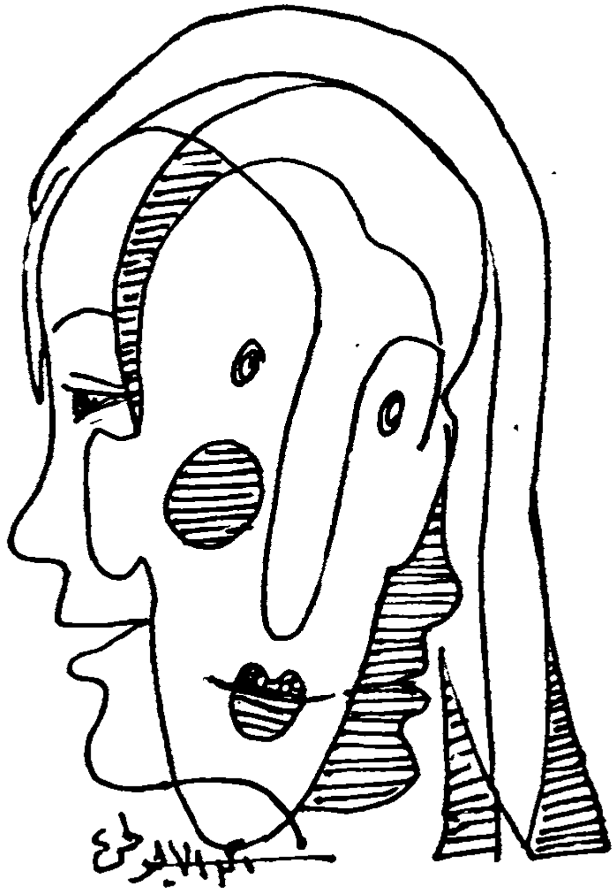

تلتقي جميلة بابنتها حين تحملها نسمات زمانها إليها ، تبتسم لها ، تناديها ليصل دفء قلبها إليها بعد ليلة أمضتها مع زميلاتها في نزهه برية ، كان فيها من لعب الورق وجهاز الألعاب ، ورغد تمضى عنها لحجرتها تلقى حقيبتها تبتسم لها بالتفاتة خفيفة دون السلامات والأحضان الدافئة .. وتجلس جميلة تصفن في زمانها الدائر من حولها وتسأل ، هل هى قسوة أم أن شعور الاحتياج معدوم لدى رغد ولم تعد قريبة من أمها ؟!.... وجميلة لم تبرح مكانها تراقب الأحداث ووقعها الأليم على كيانها المفتت.. عادت إليها تشد مقعدا تجلس قبالتها إلي الطاولة تحدثها قائلة :

- سألني عنك والد صديقتي .

التفتت جميلة مندهشة :

- ماذا قال لك ؟

- قال أنك كنت الأجمل بين زميلاتك في الكلية ومتميزة ، وفي كل مرة يراني فيها يذكرني بهذه الحكاية .

ترجع جميلة بظهرها للوراء تجمع وريقات صفراء من الزمن الماضى ترسم على لوحة ذكرياتها وجوها قابلتها،ولكن ملامح النسيان تقوى عليها وذاكرتها تضعف وتستلم لتعود رغد تكمل باقى حكايتها :

- أم صديقتى رائعة وقفت لساعات في المطبخ تعد لنا طعام العشاء، من شواء لقطع اللحم وقلي حبات البطاطا، وما إن انتهت من كل هذا

حتى أخذت مكانها في غرفة الجلوس تلعب على جهاز الألعاب حتى الرابعة صباحاً .

نظرت جميلة لكلماتها مندهشة:

- الرابعة صباحاً .... تلعب على جهاز الألعاب !!.....

- نعم كم كان رائعا منها ، وليست مثلك أنت تقضين معظم الوقت بين الكتب المتكومة هنا وهناك ....

ضمت جميلة شفتيها ورفعت حاجبيها في صمت .... جهاز الألعاب.... الرابعة صباحاً .... يا إلهي !!.....

وعادت تنظر إلى ابنتها رغد التى بدأت تتأفف وتنظر لعقارب ساعتها

- أنا بدأت أشعر بالملل هنا ، ليتنى ما عدت من نزهتى .

- ولم الملل ؟!!.....

- كل ما حولى يوحى بالملل

لازالت تحمل رواية تحكى عن تانيا وأمها ....

حين تضم أمها قائلة :

- حبذا لو نمت يا أمي ....

تمشط شعر أمها كطفلة صغيرة ، إلي أن أحست بأن أمها قد ارتخت فجأة كأنها نفضت التوتر الذى كان يشدها ، وخد مبلل بالدموع تحت يد ابنتها .. جف مجراه .. تضم رواية إلي صدرها،تغمض عينيها تذكر أمها وأحلاما جمعتهن معا ، والنظر إلي أمها حين تشرد عنها

بعيداً يمتعها .... وحين تلتقط أذناها صوت أنفاسها كانت تملؤها بالأمان ، أنها لازالت موجودة وأن هناك حياة تنبض بجوارها..

تقطع عنها دفء ذكرياتها المتعانقة صوت رغد يخاطبها:

- أماه لم تقولي لي ماذا سأفعل هذه الليلة ؟....

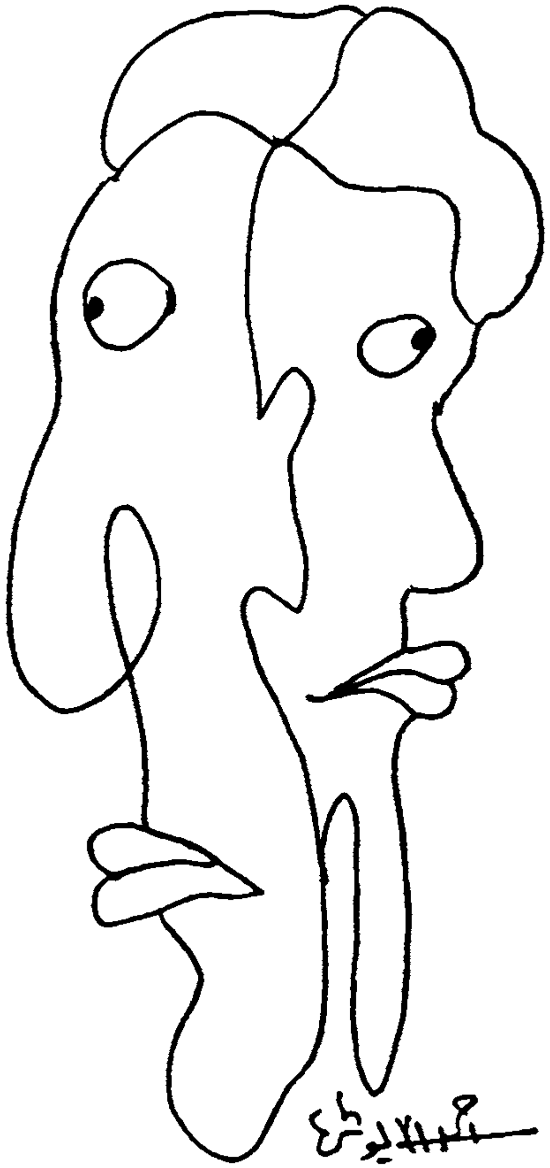

الفصل الرابع عشر

طريق النهايات

يوم مرت هدى ببيت جميلة رفعت رأسها تنظر شباك غرفتها فانعكس نوره الشاحب على عينيها .... أسدلت أهدابها على دمعة تمزج الشك باليقين على وجهها .... بأن جميلة نسيتها في وسط الزحام ، نظرت أمامها والطريق يزداد اتساعا ، تعاهد نفسها بأنها لازالت تذكرها ولا تستطيع نسيانها .... تدورعائدة وفي قلبها ذكرى لصديقة تحبها

****

وجميلة كما هدى ، صورتها تلح عليها .... وعتاب نفسها اليها لا يتوقف ، المدة تطول والزمن لا يتوقف .. وبين هذا.. وذاك ، تنقر بيدها باب هدى ، وعتبة تحمل أقدام جميلة، يشعل نور البهو ، ويفتح لها بابها ليشهد عناقا بعد طول غياب .... دموع هدى ووجهها المدفون في صدر جميلة ، تتمتم بين حناياه قائلة :-

- كنت أظن أنك نسيتنى

وبعناق دمعاتهن تهمس لها :

- لن يأتي هذا اليوم الذى تقولين .

رفعت بيدها وجهها تنظر لعينيها الغارقتين بالدموع الحاملتين لكل الذكريات البعيدة، تحاول تهدئتها حيث تعود بها لمسافات ضمتهما معا ..

- هل تراك نسيت يا هدى حين مرضت مرضتى الكبيرة وقال الأطباء كلمتهم ، أنها ساعات لا أكثر ، كنت أنت التى بكيت ،

واجهشت من حجرة بعيدة عن حجرتى التى أرقد فيها ، وحين تدخلين علي كان وجهك قرمزيا من حمرة الدموع ، كنت أعرف أننى مقبلة على رحلة هى الأخيرة، كانت روحى تودها وتتعجل الانطلاق إلى عوالم مجهولة قد أسكن إليها، ولكن من جسد لم يكل من المقاومة، وقاومت أنت معى، حملت إلي ما قد يشد أودي من بيتك إلى بيتى تصعدين درجات حاملة أواني مملوءة بما صنعت يداك ، واستجاب الجسد وبدأ رحلة التعافي، رجوتك أن تكفي، فكنت الأشد إصرارا على عدم التوقف إلا وأنت ترينني أسير على الطريق بمفردى .

شدتها متأبطة ذراعها ، حيث حكايات لم تقل ولم تسمع بعد

- أم زوجى رحلت منذ شهرين

ارتسمت على صفحة وجه جميلة الدهشة :

- احك لى

- هل تتصورين يا جميلة أنها يوم ماتت وذهبت لمراسم دفنها، حملها الرجال مارين بها أمامى ....

صمتت وكفت عن الكلام ذاهلة ، لكزتها جميلة بيدها لتقترب منها أكثر

- أكملى

- لم تطاوعنى دمعتى .... استجديتها .... توسلت لها أن تسيل، لم أجد ،أنا يا جميلة دموعي هي الأقرب مني دوما لأي مشهد.. أو فكرة

حزينة .... كان الجميع من حولي يبكون ، غرقت مناديلهم ، في حين جفت دموعي، فما كان مني إلا أن أخفيت وجهي براحة يدي المرتعشة عن الجالسين من حولي .... لماذا؟!! هل تستطيعين أن تجدي لي إجابة تريحينني بها ؟!! ....

لمت جميلة راحة يدها بين راحتيها قائلة :

- لو أنك وجدت حباً منها لكانت دموعك أول من طاوعك في وداعها لرحلتها الأخيرة، هي زرعت القسوة فيك

ردت بنبرة خفيضة :

- حنانها دافق لبناتها .... حنان جارف وكل السدود كانت تقيمها ما بيني وبينها ، فتعيق نهر قلبي الذي لم يجد سوى الجفاف .

صمتت قليلاً تستجمع قواها لتكملة حكاية لها بداية .... وأيضا لها نهاية :

- لحظات موتها كانت غريبة ، دخلت المستشفى وبعد دقيقة فارقت روحها جسدها وهي على مقعد متحرك ، وحين حاولوا رفعها منه لم يستطيعوا ، تشبثت به بكل قوتها ....

تحكي لها عن مشهد لم تره ولن تنساه وعادت تكمل حديثها :-

- لحظتها دفعوا المقعد خارج المستشفى حيث الطريق لبيتها ليس ببعيد وألقوا غطاء على رأسها لكي لا يرى من يمر بعد منتصف الليل تلك المرأة التي كانت .... وحين دخلوا بها إلى بيتها حاولوا رفعها مرة اخرى لم يستطيعوا إلا بعد عناء وجهد حيث ألقوها على

سجادة في البهو ليقدروا على رفعها إلى سريرها .. وفي ساعة الدفن غابوا في المقبرة مدة طويلة ، لحد إشتراه زوجى ، ولكن المفاجاة أن رجل المدفن تصرف به وباعه لآخر ، وكان شجاراً وتجمهر المعزين وخفراء المقبرة ، وفض الإشتباك حين وجدوا قبرا آخر قد يحل المشكلة ولكن فيه جثة ترقد من ليلة الأمس ....

****

هدى تقص لجميلة وجميلة سافرت على أجنحة الرحيل الى طريق النهايات ، الموت حين يترصدنا .... وحين يغافلنا .. وحين يعفو عنا إلى حين .... يوم رقد أبوها في مستشفى " الشفاء " " بغزة " لم يشك من شيء سوى أن جسده تعب من حمل روحه.... أبوها بجلبابه الأبيض على سرير في مستشفى الشفاء وفى جيب جلبابه العلوي وضع نقوداً خرج بها من بيته ، وكلمات أمها وأخواتها له :

- لا تحمل هذه النقود معك في المستشفى قد تفاجئك إغماءة ولا تدرى ما سيحدث ؟.. قد تمتد يد وتأخذ منك ما تحمله .

كان يلتفت عن كلامهم وينظر لفضاء غزة من نافذة غرفته ، تتغضن ملامح وجهه في ضيق لا ينفك عنه الا بالتوقف عن هذا الحديث ، إلى أن قالها لهم :

- من أراد أن يحدثني عن هذا الموضوع فليرح نفسه من عناء زيارتى .

ويفرد راحة يده على جيبه يتحسسها ويلصقها متشبثا بالجيب الصغير وما بداخله

وينن الجسد ، وتحزن الروح لفراقه ، لم يستطع أن يقول حديثا يوصي به ، أتوا إليه بقلم أمسكه .... وهنت أنامله عليه ، وهو الذى كان يقبض شلالاً من كلمات كان يخطها، حاول أن يكتب إليهم ولكن انتهت كلماته بخط مضى به الى أسفل صفحته البيضاء .. خلع جلبابه عنه لتتم مراسم دفنه .... وهاتف يدق بجرس من هناك .... كان صوت جميلة .... حدثها أخوها :

- هو الآن بجوارى يا جميلة تتم مراسم دفنه .

هل سمع نبرة صوتها الأخيرة حين سألت...

- أبى؟....

ولم في هذه اللحظات دق هاتف جميلة من هناك حين تعثرت قدماها أمام كل الحواجز والحدود المغلقة .... هل عانق صوتها روحه المسافرة ؟.... وتمت مراسم الدفن ، ورخامة كتب عليها اسمه يحتضنها غصن زيتونة ، وفناجين قهوة مرة .... يرتشفها المعزون وذبيحة تذبح للقادمين من القرى والمدن المجاورة ، يجلس أخوها في آخر ليلة ستظل وحيدة دونه يحكى مأخوذاً.. مشدوداً لأصل الحكاية ونهايتها :

- ما كان يحمله أبي في جيبه لم يتبق منه شيىء إلى آخر فنجان قهوة في يوم مأتمه .

أبو حسن .... أبو على .... جمعتهم مع أبيها صلاة واحدة في مسجد فلسطين الأقرب إليهم على مدى ليلهم الطويل يمضون إليه سويا ، يعودون سويا لم يخلفوا موعدا على هذا الدرب .... لم رحلوا مع أبي جميلة في شهر واحد ولم يبقوا على الأرض؟.. وحين زارت جميلة قبر أبيها كانت أسماؤهم متجاورة ، كيف أتوا ليكونوا معه ، وأى صدفة تلك التى جمعتهم هناك سويا" ؟!....

الفصل الخامس عشر

لأجل من ؟!!...
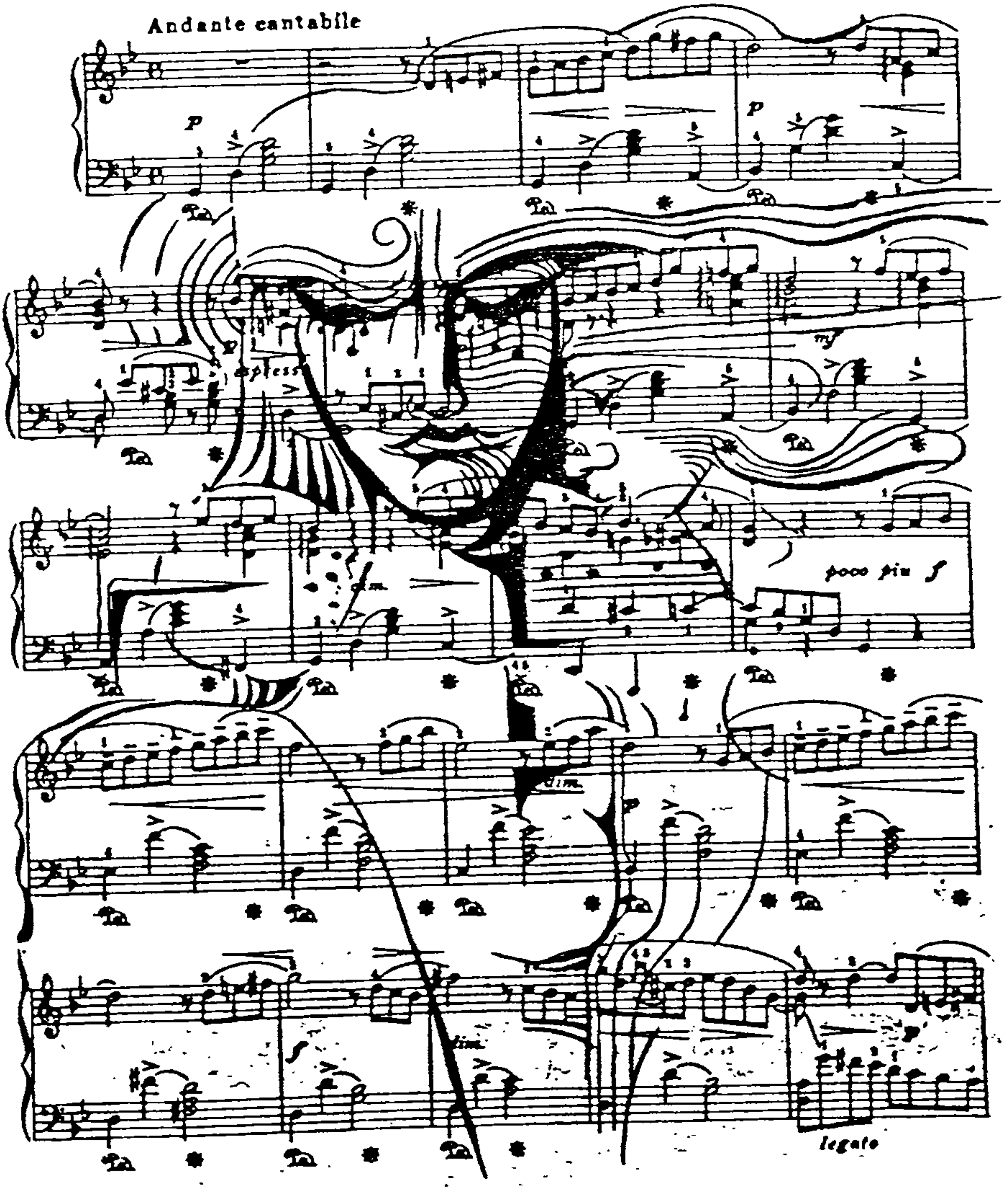
Andante cantabile
p
espress.
mf
dim.
poco più f
dim.
p
f
dim.
legato

حيث التقت بـه علـى الشـاطىء الرملـى وأنـوار تتحـاكى مـن فـوق الأشـجار المتدليـة عليها ، وموائـد منبسـطة ، أبـاريق ملونـة تحمـل المشروبات الباردة ومنها ما يحمل فى جوفه الساخن ، يجلس ينفث دخان لفافة ، وهى جلست شابكة أناملها عاقدة عليها شاخصة في مـن حولهـا ، وجوه غابت عنهـا لسنوات ، ملامح تبدلت، وأجساد منهـا مـا نحل ومنهـا ما إمتلأ ، ألـوان صـاخبة ، حرائـر مزركشـة ، قلائـد حملت الأحجار فثقلت علـى الصدور ، وصرخت ألوان أحمر الشـفاه .. زهـرى .. أو بلـون البرتقـال ، وورود علـى الأثـواب تكبـر وتتضخم ، تعرفه من زمن ، يخرج من البحر ينحنى أمـام خطواتـه ، ويد وهنت تمسك منشفة تلف خاصرته .. من وقت هجرتـه زوجتـه المتمردة الثائرة ، تتحرك مزركشة بكل ألوان الطيف علـى ملابسها وعلى وجهها ، شعرها وطوله وانسداله إلى ما بعد خاصرتها ، يلفت نظر جميلة ومقص لم يعرف طريقه لخصلاتها ، أحياناً تلفه بطريقـة دائرية ليتوسط قمـة رأسـها ، وقـرط يطـول إلـى آخـر حدود رقبتهـا ، يحمل ورداً أو خرزاً مطعماً بخيوط ذهبية وأحمر شفاه لم تكن تجيد رسمه على شفتيها المدببتين ، تركته ولـم تلتفت لـه بحجم توسلاته لها وبحجم مخلوقة ناعمة صغيرة أثمرتها تلك العلاقة ، عقدت النيـة وانطلقت إلـى عالمهـا وظل هو فـي عـالم لـم يتغير لـه ، هدوء فـي صوته وحركاته متزنة وعاداتـه الروتينيـة ، يجاور الرجل المتحدث إلى جميلة بين الحين والحين مرحباً

- أين أنت طوال هذه المدة ؟!....

- مشغولة

- بماذا ؟

- أقرأ وأكتب

- أتمزحين ؟!!....

- وطبعت بعض الكتب

- شيىء جميل جداً وجيد !!.... إذن أنت تحققين ربحاً من حجم مبيعاتك ، والمكاسب التى حققتها ، أقصد ثمن الكتاب وصل إلى أين؟....

صفنت جميلة ، لم تكن مهيأة لمثل هذا السوال .. وكثيراً ما تسمع مثل هذه التلميحات ودوماً تنسى حكاية الثمن والبيع والشراء ، تلعثمت في كلماتها ، تود لو تصنع كذبة تريحه بها .. ولكنها تخيب ولا تصيب في تركيب الحكايات .. وتذكر عثمان في موقف كهذا لن يتوانى عن أن يفرد له بساط الخيال ، ولكنها لابد وتجد إجابة :

- أنا أحاول الاتفاق مع بعض دور النشر وسأجنى ربحاً

وبدأ يفرد ويسرد لها عن عالم يعرفه عن الكتب

كتب هذا جميل ، روايات !!.... أظن أن كل الروايات تشابه بعضها بعضا ، بداية ونهاية ، لا جديد ، الكُتاب جميعهم طريقتهم واحدة

جف حلق جميلة ودارت بها الأرض ، بل يكاد كل ما أمامها ينفلت ، أباريق العصائر ساخن وبارد يختلط كل بالآخر ، لم يقرأ ما في عين

جميلة فلازالت أحياء وأمواتاً .. رحى الحرب تستشرى في عروقها.. تخال نفسها تلبس قلنسوة وتلف خصرها بحزام من الديناميت ، تبحث عن وجوه لتسأل .. لأجل من ذهب من ذهب ؟!!.... لأجل من كانت مأساة التاريخ ؟!.... في عظام ذابت وأجساد تحللت فتية محبة.. مقبلة للحياة ....

الفصل السادس عشر

أنين مدينة

كان مقعداهما قريبين والمسافات ضيقة والحديث له مذاقه حين يغلفه الهمس .. تحكى لها .. وتنتظر الأخرى نهاية لكلماتها .. رؤى كثيرة تسمعانها ، وزوجها الجالس على رأس الطاولة الممتدة طوليا إليهما ، نظارته سوداء تحجب نور الشمس ، ونبرات صوته خفيضة، وهى وزوجته كانتا الأشد قرباً .. حكت لها عن رحلاتها معه البعيدة ، حيث الأمريكتين والقريبة على جبال لبنان ، تميل جميلة بجسدها ناحية مقعدها ، تشدها الأمكنة وأسماء لها تسمعها ، وحين تصف الأخرى لها تكون قد حلقت في سماء الأمكنة بيروت وجبل يحتضنها ، وشريط ساحلى ضيق ، ووطن هو الأقرب لها من هناك.. من الشمال .. تعبر إليه .. وحيفا تصافح الجنوب ، ترقب غروب شمس يوم راحل .. وشروق يوم آت إليها .. استعدلت جلستها لتقص حكايتها مع الجنوب والشمال ، وكل ما تصفه لها لا يعادل وطنا لها هناك ..

- لمحة بصر وتصلين إليها، من البحر الميت .. من الضفة الشرقية تنظرين القدس بمآذنها من خلف النهر ، ومن حيفا تطلين على لبنان.. حيفا الأجمل والأروع

رفعت لها عينيها وراحة يدها تضم منديلها

ترد عليها جليستها :

- لكنها لم تعد لكم

كلمات قصيرة مقتضبة ، لصخرة إنبجست منها نتوءات وحراب ، تحاول الوقوف من خلفها لتجد لها مكاناً عليها .. تطالع لبنان من على صخور حيفا .. صخرة تفصل ما بينهما ، تعيق حركتها بل تشلها .. هى الكلمة .. هى الصخرة الناتئة التى مزقت كيانها .. تلقى بها للوراء لكى لا ترى وتعرف المكان ، دون الحدود ، دون القيود ، كلمات ألقت بها في وجهها ، فحطمت ضلوعاً تحتوى قلبها "لم تعد لكم ...."

***

تعود لائذة بكلمات كتبتها أختها في أنين مدينة .. تبحث عن مدن لها هناك .. وكيف لهذه الصغيرة في يوم ربيعي أن تقف بجوار جميلة من رأس الناقورة "حيفا" ترفع لها يدها مشيرة لوطن هناك ..

- أنظرى من هنا نرى لبنان

تلتصق جميلة بالصغيرة تحاول أن تتعربش على حدود نظراتها لتصل معها إلي بقاع أرض تبكي على أسياج تنحرها .. على مرمى بصر كان لهما أن يعدوا، كفاً بكف .. ويصلا لآخرحدود الشمس .. حيث مدن هناك تلم صرخاتها .. لماذا ؟.. وإلى متى ؟..

تقلب جميلة صفحات أنين مدينة ملقية جسدها على سريرها، تستعين بوسادة تريح رأسها عليها .. تلتقط حروف الكلمات وتعود تصفن في فضاء حجرتها .. وفي كتب متكومة حولها .. تحمل إليها كلمات العتاب والملامة فكل في انتظارها لتطل على عوالمها، تحثها

على أن تحمل زادها وتمضي في رحلتها إليها وهي التي لا تعرف بأى حال تكون حين عودتها ؟!.. تشد صفحات مدينة فتبكي على صدر أخت حبيبة ..وذكريات تكمن في جروح لا تندمل، مجرد أن نقابل أحد الوجوه أو تطرح علينا بعض الأسئلة، تتسلل نفس من حصار العقل عليها .. حتى يعود الألم .. وفي كل مرة أشد ألما .. فالجراح مزمنة .. تائهة في البحث عن أزمنة بيضاء .. تتقاذفها كلماتها .. تبكي، تنشج .. تهمس لنفسها :

- لم أبكي ؟ !.. لم فاضت مرارتي على كلماته؟!.. وسؤاله المضمخ بالحنين

- لم كل هذا الألم يا جميلة ؟!

وصياد الأرانب البرية وكيف يروض أرنبته إلي أن قضت نزفا .. وكيف لغريب يمر بها ويقف على حد بؤبؤ العين ليرى روح أبيها وماجد تسكن يمناها ويسراها .

وتدور بالحكاية فتقرأ اسم جميلة على صفحات أنين مدينة .. جميلة تتفتح كزهرة ربيعية، شمعة مضيئة لأمسيات رائعة .. وكيف لأنامل شقيقتها أن تكتب عن جميلة هناك؟!..وكيف يعرف أبوها أنها من الآن فصاعدا هى في طريق مبلل بملح الدموع .. وغربة تبدأ ولا تنتهي .. صغيرة تلك الشقيقة أن تعرف كيف يقتلع البشر من جذورهم .. وكيف تكون أشلاؤهم متناثرة تنقلها طائرات من هنا وهناك تبحث عين جميلة عن اسم مدينة بين طيات صفحاتها .. أين

المدينـة ؟.. واسم لهـا؟ .. فـالوطن مجـروح .. مقتـول علـى صـفحة البحيرة .. وكيـف عرفت الصغيرة مراسم الدفن فـي الأرض الرطبـة البعيدة ؟!..

نتجـرع الـوطن مـلء صـدورنا ولا نسـتطيع اقتلاعـه أو نسـيانه .. وذكريات هي محيط يجرفنا لتبتلعنا مياهه .. تتألم روحها في جسدها النحيل، تخاف أن تفارق على أرض غريبة .. وتدفن بعيدة .. تنكرها المدينة .. ترنو لها سماؤها وأرضها فتضمها مدينة فقدت سكينتها .. لم تعد مدينة .. بل أكواماً رمادية بلا ملامح كما أرادوا !!..وغريب يمر بها يلقي إليها بكلماته

- أيـام تمـوت يـا جميلـة، تصبح مـاض لا يعـود .. مـاض يدير ظهره للأحياء .. و كـأن الأمـس لا يصـب فـي مجـرى أيامهم تدميها كلماته .. ترفض موت مـاض لا زالـت تسـتظل بـه .. ماض كيف له أن يموت؟!..وكيف له أن لا يعود؟ !!!.....

الفصل السابع عشر

امرأة من هناك

تقرأ وتأكل من حروف كلماتها .... تبعثرها .... تلمها .... تغوص فيها ، بشعرها المشذب اللامع ، تغرس ناظريها على سطور كتبتها ، تنظر إليها من مقعدها الملتصق في الزاوية ، كتف زميلتها يلامس كتفها ، تسمع دقات قلبها المتلمس طريقا على شاطىء الكلمات " تهاني عمرو " وروح كاتبة جميلة ، تضفى إشراقاً ، تفاؤلاً وانسياباً حين تكتب نصها الإبداعى .... وجميلة تضيق بها زاويتها ومقعدها وكلمات تسمعها ترن .... تطن في مصعد لصعود ونزول.... تحلق وتحط ، والزاوية تضيق والمقعد يضيق ، ورجل جاء لمجلسهم يأخذ مكانه على مقعد يختاره من المنتصف ، يدس يده في جيب سترته ، باحثاً عن علبة سجائره ، ينتشلها ، يوزع على الجالسين ، فتشتعل أعواد، ويحوم الدخان مكاحل للعيون ، ويأتى دور قصة "الغلاية" والرجل صاحب اللفافات يرجع بظهره في مقعده ، تتدلى ذراعه متأرجحة ، وجسده الممتلىء يتراخى ، يتسع له مكانه، ومقعد هناك وزاوية يزداد اختناقها بهما ، رائحة الدخان وحلقاته تمسح وجهها ، تخترق أنفاسها ، تتحسس وجهها تسنده على راحتها المتعبة .... تطوف بعينيها على وجوه تعرفها ، ووجوه لا تعرفها وكلمات تسمعها .... تفهمها .... ولا تفهمها .... والآخر الجالس في زاوية في آخر الجدار ، يرتدى اليوم ملابس أنيقة ، حذاء أسوداً لامعا ، قميصاً حريريا تتناثر عليه ألوان منمنمة ، يحرك رأسه مزهواً بقصة المصعد ، يعلن بعينيه انبهاره ودهشته ....

دومـاً يـدس تحـت ابطـه كتابـاً أو كتـابين ، وحقيبـة بحجـم كـف اليـد كثيراً ما تسقط من يده على الأرض ، تنفجر بمحتواها ، يتبعثر منها ختم ، ومحبرة ونشافة ، ينحنى يلمها ، يعيدها إلـى محبسـها ، يغلـق عليها ، يريح نفسه منها بوضعه إياها على النضد المقابل له ، تتمدد تنكمش لتعود كما جاء بها في بداية مجلسهم ، لتستعد لرحلة العودة معـه ، ولحظـة يـتخلص مـن كتابيـه " خارطـة الجسـد " "وبـيض النعام" ينتفض من مقعده ليتبعها حين تغادر مجلسهم ويسلمها مـا منع تداوله ، ويعود يزفر بأنفاسه ، يريحها ، حيث هديـة مـن نـوع فريد.... هديتـه الـدائرة دومـا إلـى عـودة إليـه مـرة أخـرى ، يمـد يـده يستعيدها بعد انقضاء المدة المتفق عليها لدورة اخـرى ، لخـرائط لـم ترسم بعد وطرق إليها لازالت بعيده ، ويـأتى اليـه دوره ليقول قصة عن رخـام وركـام .... تبحث من زاويتهـا الضيقة عن الرخـام وسـط الركام فلا تجد ، تنهض زميلة أخرى تقرأ وتقـول قصتـها .... ويبقـى نـداء آخـر.... لـوطن يبتعـد عنهـا أكثـر .... لابـل يشـتد اقترابـاً مـن هنـاك....

****

مشذبة لشعرها، خطت علـى أهدابها ، ضمخت رموشـها بمكحلتـها ، رموشاً لم يعد يظهر منها ما قد تمسك به فرشاتها ، ومسحوق أحمر باهت مسحت به خديها ، وفم رقيق رمت إليه بأحمر شفاه لتنطق بـه شـفتيها ، تضـيء وجهها آلـة التصـوير ، فتفـتح لهـا عينيهـا علـى

آخرهما ، وتميل بغنج ودلال لتكتمل صورتها في عين عدسة التصوير ، ترخي أهدابها ، تسرح ببصرها متنهدة للصبا الذى ولى، وبعض من خصلات شعرها لفتها ، فتشمعت على حواف كتفيها ، بعينين لا تملان الإنفلات نحو مدخل القاعة لرصد القادمين والمغادرين ، تضم حاجبيها قد يسعفها البصر ، ولكن تقطع عليها كل هذا عدسة التصوير ، فتبتسم منبهرة مندهشة للقطاتها السريعة، ما تلبث أن تتكىء على المنصة الجالسة خلفها تنظر الجالسين أمامها ، وتعود ملتفتة لصاحب الكلمة يقول فيها ، عن تلك المرأة قمرية المولد .... قمر ينكمش ، يصغر ، تتحسس له وتنكمش....

يا لقلبها المرهف !! .... ويا لرقتها وهى تداعب أوراق الزهور المستنيمة أمامها على المنصة!!.. لفافتها من ورق منكمش، تحتضن زهوراً فيها لغز الحكاية .. يمد السيد المجاور لها من المنصة يده يلتقط وردة حمراء ، يستنشق عبيرها ، يملأ صدره على الحلم الذى كان .... مسافراً خلفه بعيداً وسط كلمات يقرؤها زميله، يحكي عن رومنسيات مجموعتها القصصية ونجيمات تسقط على وجه القمر .... وتعرف عبور القنال من خلال حبيب مسافر إليها ، وطائر جريح خبت نجومه الذهبية على كتفه ، تنظره نجمة سيناء، وورود بنفسجية مُرخية لأوراقها على المنصة من مكانها الأخير لم تمتد إليها يد لتلتقطها .... وورود لا تبوح ولكن قد يعرف الجالسون هناك عنها.. يعرفون عن وجعها الأبدى ..من خلف تلال من سهول

وجبـال .... مـن أرض الأحـراش .... مـن غربـة لا تـاريخ لهـا ولا عنـوان، شدت قامتهـا وامتطت قلمهـا وكتبت عن اسم بـلا عنـوان.. انتفض لها رجال ونساء ، كتبت عنهـا أقلام قد تسترد لهـا الهديـة ، وتلك المرأة التي من برج القمر .... حين كتبت عن نجمـة زرقـاء شـارونية ، ويـد تقطـر دمـاً ، ودرة مدفونـة ، ورصاصـات ، كـان تقطيعهـا شـارونياً ، لـم تتـوان عـن أن تنـزع عـن وردة بنفسجية ورقاتهـا التي لمت فيها قضيتها ، تريد أن تبعثرها .... تطيرها أوراقاً خريفيـة حيث هنـاك ، ولا تكـون إلا هـي المـرأة التـي تحكـي .. إمـرأة واحدة من برج القمر .... تعود إليها آلـة التصوير تقطـع كل الخيـوط الممدودة ، تنظر إليه من علـى منصتها ، تشير لـه كيـف يلتقط من زوايـا مختلفـة وأيـن يـذهب بعدسـته المتحركـة ، الأسـتاذ سـادر فـي كلمـات كتبهـا عن مجموعتهـا، وشـهرزاد وجهـاز الكترونـي ، وكيـف باتت وبم أصبحت ، شهرزاد التي كف جهاز إرسـالها ، باتـت جهـازاً يستقبل .... شهرزادنا في محنـة ويالهـا من محنـة !!.... إمرأة من برج القمر كان لها أمس تلم به خصلات شعرها ، تعقد عليها بخيط باهت ، وحين تنظرها جميلة تجد أن مـا بعد هذه لا شيء .... تعود ترفع يدها من خلف المنصة لتؤكد على تلك الخصلات المتشمعة أنها لازالت ثابتة في مكانها كما شكلتها يد المصفف

****

زميلتها علىِ المنصة وجهها مكفهر .... رحلت إشراقتها في يوم بهجتها ، أمام باقة زهور أمامها يزداد ذبولها أمام نظرات عينيها التائهتين ، تمد يدها تداعب وردة البنفسج ، تنزع عنها أوراقها ، تقرب إحداها من أنفها ، فتدور ورقة البنفسج تطوف بعينيها على الجالسين ، فإذا بالزوج يشير لها أنه سيمض، عيادة المرضى في انتظاره ، دروب الأدب لم تفلح في أن تجنبها محنة هى واقعة فيها.... تختنق ورقة البنفسج بين أناملها الضاغطة عليها ، تفركها، تود أن تصرخ لها بأن تتركها تهوي أسفل أقدام تسحق المخلوقات الصامتة .... تتراخى أناملها عنها ، تملس على ورقتها تداعب أحلامها المسافرة، ترحل السحابة الغائمة عن وجهها، تلمع عيناها، تنظر الجمهور الجالس أمامها .... لتجد مقعد الزوج خالياً، مضى إلى عيادته المكتظة ، عادت لورقة البنفسج تهديها ابتسامة راحلة اليها من على منصتها العالية، وأخرى تجاورها لم تكف أو تكل من تفحص وجوه وملامح، يدها على جهاز التسجيل وعين على عدسة التصوير ، ونور يضيء وجوه الجالسين، المتطلعين للمنصة

****

الهواء يتكوم في صدرها تود لو تطلق زفراتها في وجه الجالسين ولهيب الكلمات لا ترغب في سماعها ، السيد الناقد غارق في سرده عن نصوص كتبتها ، أفرد لها وأبدع فيها ، فراق للحاضرين

سماعه .... بدأ يكثر النظر في ساعة يده وما تبقى من أوراق لم يقرأ منها ، ووجوه الحاضرين الشاخصة اليه ، فخاطبهم قائلا :

- أتمنى أن لا نطيل ، فهناك ندوة تلفزيونية تقدم أعمالاً أدبية نعرفها ، قد تشتعل هناك أعواد ثقابها من خلف الجدار ومن على بوابات الإنتظار .... سيقدمها الناقد الروائي " عبد الله تايه " أتمنى أن تستطيعوا مشاهدة هذا البرنامج ، يرفع حافة قميصه يحذر ساعة يده من أن تسرع بعقاربها فيفوته هذا اللقاء ، لم يستطع اخفاء هذه الحركات عن الجالسة بجوراه ، زفرت ورجعت بمقعدها للوراء تود لو تنطلق لدارها وتبدل ثيابها وتنفض ما علق على وجهها من مساحيق التجميل ، وهاتف يسكن مكانه ينتظر راحة يدها لتحمله ، تدير قرصه ، على رقم منقوش على حواف أناملها ، تسمع رنيناً يقطعه صوت ينتظرها متحفزاً لمكالمتها ، لتبدأ امرأة من برج القمر في حديثها عن امرأة بلا عنوان تحمل هوية ، وشبحها الذى يلاحقها القلق يسألها:

- من تكون ؟!.... ومن أين أتت الينا ؟!! .... وكيف نصرفها الى أبراج بعيدة نائية لا يطل عليها قمر ؟....

تتخلق دمعة على خدها ، تود لو تقول لها على حبل هواء ممتد بينهن :

- هي امرأة أحب أن ألقاها ..

****

تعود جميلة وحيده تجلس أمام التلفاز تفتش عن رمز محطتها الفضائية .... عن قبة ذهبية تجدل عليها خيوط الشمس لتودعها هدية لقلب فجر المدينة العتيقة ، وساحات رخامية .... صخرية .... تنبجس من زواياها أشجار الصنوبر .... تظللها زرقة السماء ، وفسيفساء البناء الشامخ على جبال الزيتون هناك .... تطل على عين أمها .... وذكريات طفولة لن تموت .... ولهفة تنبض في كيانها لوجوه هناك تشتاق لأن تراها من وحدتها ، وكلمات السيد فضل تهز كيانها المسلوب

- الوقت يا سادة .... أخاف أن يمضى الوقت عنى .... فهناك من سيشعل أعواد ثقاب ....

في تلك الليلة غابت .عوادها لليل يدثرها بدفئه ، وتأتى حلقة تنتظرها والجميع معها ، ناقد .... وكَتاب .... وكاتب من دروب المنافى "فيصل حورانى " مسمية ... هجرة .... إقتلاع .... كتب .... إبادة.... خمسون عاماً لم تمض .... خمسون عاماً عائدة .... في تلك الليلة سمعت جميلة عن كاتب من هناك وحيدة أمام تلفاز ورمز القبة الذهبية ، نسيت أعواد ثقابها... وكلمات يحملها لها عبدالله تايه من هناك... أمام زمن توقف في زمانهم هم كم هى بعيدة المسافات في غربة تسكن خلف الرأس... مسافات من هنا...إلى هناك

الفصل الثامن عشر

حبات دموعها

حين إغتالت سهام حقدهم قلب جميلة ، بعد يوم تحوطت فيه بحب عظيم حملها الى آخر حدود السماء ، ولا يكاد ليلق بها لأعماق الأرض لتعود حيث طريقها الطويل ، وعين لا تستطيع إدراك مداه ومنتهاه .... لم تطاوعها نفسها على الركون في بيت تضمها جدرانه ، جدران قد تعيد عليها كلمات قالوها فيها .... جدران قد تسمعها أصواتهم .... قد ترى منها عيونهم ، هو إنفجار يدوي داخلها يكاد يصرعها .... ومشوار لها على طرقات المدينة البعيدة ، تلملم من عليه حبات دموعها المسافرةعلى طريق غربتها .... من على طرقات المدينة ، مصابيحها مدلاة .. مضاءة .. ومصابيح قلبها عتمة استقرت في قاعة مشاهد .... وذكريات .... وأبواب النهايات المفتوحة.... يلاحقها سؤال بعدد وقع خطاها

- حين ترحلين يا جميلة .... من يحملك إلي ترابك هناك ؟.... هل هؤلاء؟!!..

صرخت روحها فزعة وجلة :-

- لا ....

- من يكونون إذن يا جميلة ؟....

تأوهت بآهات غربتها .... تذكر فيها عبد العزيز الرنتيسي حين حملته قلوب أحبته كان هو معلمها .... تعود لحيرة قلبها من الذي سيحملني الى آخر حدود النهايات ؟....

- هؤلاء ؟!!.... لا ....

مع وقع خطاها تتقاطر دموعها الحاملة لسؤال يحمل إجابة .... فتحول بينها وبين النور .... تفتش في عتمة ليلها عن يد تمتد إليها... قلب تحن إليه .. يحن إليها .. تستلقي بجسدها فيه تنام ملء جفونها .... غير آبهة بنهايات تقترب منها ، تذكر أباها الذى عاش وحيداً من الأنيس والرفيق ، وعزيمة لم تخذله .... إرادته كان ينحت بها في جوف الصخور ، يشق طريقاً لأجل الوصول .... فوصل لقلبها وقلب آخرين .... لا تذكر من هم .... ولكنهم لازالوا يعيشون بنبض حياة .... وأخيها حين إختار الطريق .... مضى به... ولم يقف ليلتفت إلى الوراء .... أما هي فليس أمامها سوى معول تشد عليه إرادتها ، تهدم به ما شاخ من بناء وتهدم ، تمضي بخطاها.... تبنى .... تمضي حيث من مضوا قبلها .

الفصل التاسع عشر

حبات لؤلؤية

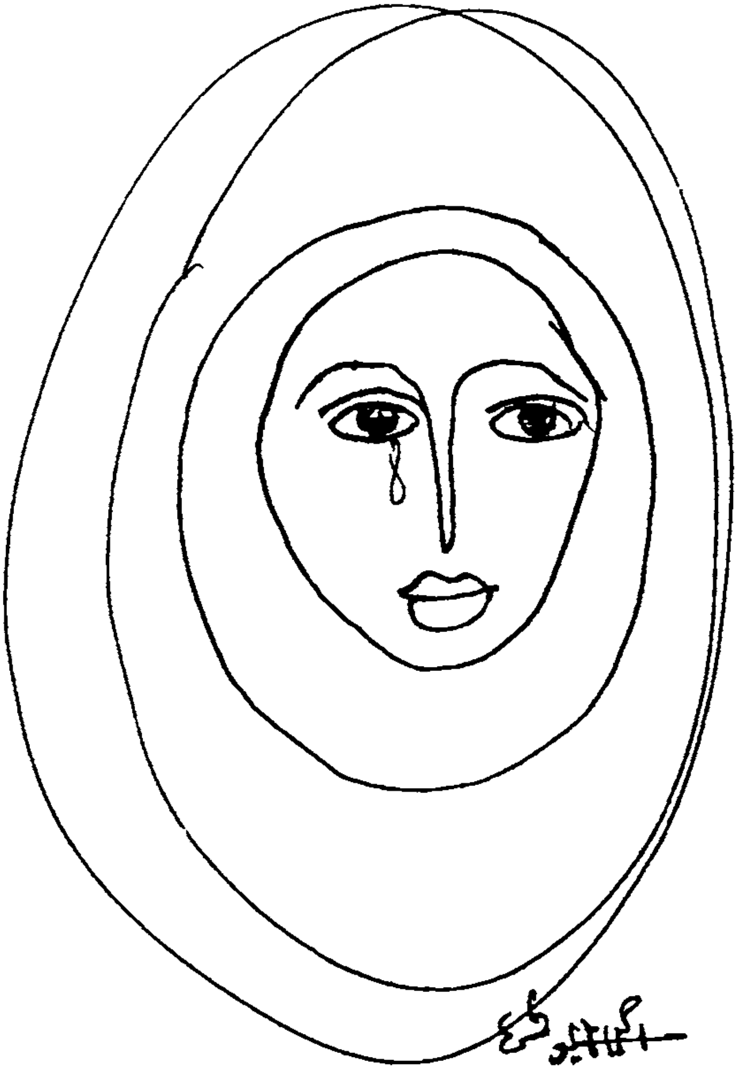

حبات لؤلؤ مهداة إليها ذكرتها " بكاميلو خوسيه " حين قطف زهرة من على حافة الطريق وحفظها طيلة الوقت في كتاب ، فتصبرت بين وريقاته ، إعتقد أنها الأجمل حين يهديها ، ولؤلؤات "سلطانة" حين تصبرت خارج محارتها إلى جراب مخملي يضم أروع معاني الحب والإنتماء.تأتي تحمل حقائبها من مملكة البحرين ... تحكى عن ملكها وولى عهدها..كلمات لها وقع في أذن جميلة، ملك ومملكة وأعتاب قرن جديد لممالك لازالت قائمة !! ....

هل هو ملك الفقراء...أم أمير...صاحب السمو، تتضخم عبارات تنطق بها سلطانة على مسمعها ، تتعثر على ألقاب تعجز عن فهم ما ورائها، إقتفاء أغوارها... ولؤلؤات البحرين لازالت غارقة في قاع بحر العرب هى الأقرب لملامحها، وساعدا الرجل الهرم فوق صفحة الماء مجدولان على حبال مركب عائم يتشبث بهما ، ووعاء شبكى يحتضن صدره ويلف بخيوطه على رقبته فهى التى سيملؤها ويطرحها على ظهر سفينته ، وفطام يقبض على فتحتي أنفه ، يحبس بها أنفاسه التى هى وقوده في رحلة النزول إلى القاع، تنفلت السواعد عن حبال مجدولة بها إلى مغاصات اللؤلؤ ، تدلهم عليها عين عذاري وتشير إليها نجوم لها أسماء يهتدون بها كمن يقرأون في صفحات كتاب في زمن مات الحرف فيه.. والكلمات...من ليل غابت نجومه، يفقد منهم رجل ورجال تحملهم سفينة على صفحة بحر العرب...عيون الأهل لازالت بعيدة ، وعين رجل لم يعتد فتحها

إلا في أعماق سحيقة، يلتقط أكماش الدانات، اليوم ينام الجسد نومته الطويلة ، يكفن في ما تيسر من قماش ثوبه وأزراره والصلاة عليه وإسقاطه بالحبال إلى أعماق كان يجوس فيها بيديه، ليسكن بجوارها ويختلط الأبد بالعدم... وضرير يركب اليم معهم من العتمة على صفحة الشاطىء إلى عتمة في القاع، قد تكبش يداه وتلم في وعائه الشبكي على صدره، وجسده المجدول بحبل لحين تشده سواعد الرجال ويرفعونه من العتمة إلى عتمة هو تائه فيها ، له أنامل ماهرة قادرة على البحث في القاع عن محار ضارب بجذورد، وسط خطر البحر وتياراته ، وجوارح متحركة سابحة فيه ، مرتكزة في قاعه أنامل تقبض على محار بين نتوءات بحر تفجر تيارات عنيفة قوية يعرف سرها، وتكوينها، ذلك الحيوان الرخوي لا يكف يفرز مادته الكلسية لأجسام غريبة لا تكف تدخل المحار، لتستدير اللآلىء فيها ، رحلة تكوينها وعتمة يعيش فيها...عتمة هو قادر عليها... تفتح سلطانة حقيبتها، تمد يدها لجميلة ، تهديها قرطاً ذهبياً مرصعاً بحبات اللؤلؤ، وشغف جميلة بدنيا اللؤلؤ وحكايات الطواشة،امبراطورية اللؤلؤ في الدكاكين الصغيرة والمقاهي، عطر الأجداد وجهادهم ليفوح عبيرها علينا،وأخبار صفقات مراهنات ، وأحاديث محاصيل المواسم وحياة لهم من أعماق بحر العرب.. محار وأصداف، وجمع حبات لؤلؤ بيضاء.. صفراء.زرقاء.. سوداء..تسيل عليها حبات عرقهم المحملة بأسى يشجي القلوب،

لؤلؤات يحملونهَا إلى بلاد بعيدة.. وبلاد قريبة.. لتبدأ رحلة الغربة من جديد، حبات كانت معهم في سكينة البحر ورهبته، وسكين مدببة الرأس تشق محاراتهم، لتظهر لهم حبات تضاهي عرقهم المسكوب عليها... من تمر وقهوة، ومن بزوغ فجرهم العنيد ، وصوت جهوري ينادي فيهم " أطلبوا الله " يردون بصوت واحد " يا فتاح يا رزاق يا مقسم الارزاق " وشاطىء لازال بعيداً عنهم وقهوة الطواويش وحكايات لا يقف مدها...حرية... تعنى حياة...حلفاء وجبهة المحور ومن يبقى بعدهم؟...يلفهم ليل يدثرهم وحيوان رخوي قابع بين صدفتين يبغي الخلاص، طيلة ليلهم وحركته الدائمة، يفتح ويغلق صدفته، فلقد أزفت آزفته ، لينتهى مع ديدان بحرية يدب معها...حياة بحر العرب تحملها سلطانة في حبات لؤلؤية تستدير على قرط ذهبي، ستخلد للسكينة على أذن جميلة ، تبتسم سلطانة لهدية أحبتها جميلة قائلة

- كان أهلي في الطواشة لهم حياة، وصلت تجارتهم فيها إلى فرنسا، أدواتها وما يخصها كانت لوقت قريب في بيتنا... يوم سألت أمى عنها أجابتنى دون أن تكترث لسؤالى:

- ألقيت بها ولن تعود مرة أخرى،أين اللؤلؤ ولم تبق حاجته؟!..

هزتها كلمات سلطانة وأحدثت في نفسها انفعالاً يقترب من حد الصدمة ، لم تعد تصغي إليها بعد ما قالت لها ، بل أخذها ذلك المشهد المروي لها في دائرة حزن وتساؤلات تكبر وتكبر في

عقلها... أم سلطانة لم ألقت بكل أدوات الطواشة ؟!.... ميزان ، منخل ، مغرفة نحاسية مناخل وتبانة تلم حبات لؤلؤ سالت من عليها حبات عرق الرجال، وقمر يضيىء ليلهم على صفحة اليم وحبات لؤلؤ تحملها راحات أيديهم لمعت لحبات عرق تسيل عليها فتحدث وهجاً ، نوراً تتماوج ، تتراقص عليه صفحة اليم ، فيتوارى قمر ليلتهم حياء للحظات هو شاهد عليهم فيها، عادت سلطانة تمسك أطراف حديثها تقترب أكثر من جميلة التى باتت هناك على أطراف الجزيرة العربية.

- سنوات طويلة وأنت هنا يا جميلة ولكن شعورى بك أنك تركت فلسطين أمس.

ألقت سلطانة بحجرها في بئر إلى أعماق عتمة تآلفت مع صخوره الصامتة وأعشاب نبتت عليها واخضر لونها .

أى حجر تلقى به سلطانة؟!..ليفجر ثورة، يفتت جبلا من ذكريات أليمة ترسخ على كيان جميلة...تذكر زوجاً كان يحطم فيها لهجتها الكنعانية ، وحرمانها من طهي أكلات تحمل مذاقات جدتها وأمها .. كيف تقدر جميلة أن تنسى؟! وهل لها أن تنسى ماذا يعنى أن تكون منبوذاً مقطوعاً عن وطن بات بعيداً بلا وزن ولا ثمرة ولا حاجة لأحد بك.

تظل جميلة تعاند وجودها في كل مكان ، حيث هى فلسطينية، وهوية تحملها بداخلها

الفصل العشرون

بطاقة من القدس

يقترب الوقت من جميلة لمقابلة عثمان ، تخفي أفكارها لما يمكن أن يدور بينهما من حوار .... قد يكون إنسياب النيل في مجراه أو ثورة البحر من نوات الشتاء ، ترمق مكان جلوسه منذ هبوطها بسيارتها أول الطريق، تراه جالسا مسنداً رأسه للجدار ، برقبة متصلبة متيبسة في اتجاه لا يلوي عنه، لتصل إليه من حيث لا يتوقع ، تهب بعاصفتها تنتشله من إستغراقه ما بين دوامة الانتظار وهوة اليأس ، ينهض يحييها لقدومها فلم تخذله في موعدها ولن يعود أدراجه قابضا على الريح .... شد المقعد الخشبي دون توقف لكلماتها :

- إحك لى ما أخبارك ؟ ....

- أقرأ طوال الوقت ، لم أضع من وقتي أبدا.

- ألم تذهب لراسم بعد عودته من الأقصر؟

يمسح براحته على رأسه ثم يمررها على ملامح وجهه وكلمات يستعد لها...

- أنا عائد لتوي من عنده .

- وما أخباره ؟....

- هو لا يفتح لى أوراقه ولا يصارحنى وحين أسأله عن أصدقاء أدباء وصحفيين قد يكون التقى بهم في مؤتمر أدباء مصر ، لا أحصل منه على إجابة محددة ، يحدثني وهو يتنقل من مقعد إلى مقعد في حركات قلقة غير مستقرة يرميني بنظرة خاطفة ما بيني وبين كتاب ، يقلب في صفحاته قائلا لي :

- هل صحيح أنك عشت في هذه البلد سنوات .. لا أصدق يا عثمان... وهل رأيت ما رأيته أنا فيها ؟! ....

يتوقف قليلاً ليعود ينظر لجميلة بعينين يزداد لمعانهما ثم ما يلبث أن يسدل أهدابه قائلاً :-

- وهل كثير على رجل مثلي أن يعيش في الأقصر أربع سنوات في مهمة عمل مكلف بها ، ولكن هذا ليس موضوعي معه المهم في الأمر هو ما جاء به راسم من هناك يا جميله ....المعجم .

- المعجم !! .... أي معجم

- معجم أدباء مصر ٢٠٠٤

رفعت جميلة يدها تحاول أن تسترجع ذاكرتها ....

- ذكرتني يا عثمان حين طلب منا راسم ملء الإستمارات بأسمائنا وكتابة عن أعمالنا من القصة والرواية كان المطلوب يومها صورتين على إستمارة ، ويعود يذكر وينبه بأن مدة إرسال البيانات والإستمارات إلى القاهرة قاربت على الإنتهاء والثقافة الجماهيرية تستحثه على سرعة تقديمها

توقفت قليلا تسأله مندهشة:-

- ولم يستحوذ هذا المعجم على إهتمامك ؟ ! ....

- صورتي يا جميلة .. لأول مرة في حياتي أجد لي صورة في كتاب.

ساد صمت ما بينهما .. تعتدل جميلة في جلستها تعيد التفكير فيما قاله لها وهو شارد بنظرته بعيداً يستحضر صورة له على صفحة من صفحات المعجم ، تقطع جميلة عليه خيالاته قائلة :-

- أكمل لم توقفت ؟!.....

- المعجم ، إسمي وصورتي ، وإسم بلدتي التي شهدت مولدي ، هو معجم ضخم جداً .

رفع ساعديه لتتقابل راحتاه ويفسح مساحة أكبر يسترسل من خلالها في حديثه :

- ثمانمائة صفحة بل أكثر .... صورتي وإسمى بجوار أكبر أدباء مصر ، حين يفتح المعجم ، محمد السيد عيد .... محمد أبو سنة ويجدوني ....

يتوقف لدقات قلبه المتلاحقة ويعود يكمل مزهواً بنفسه :

- إسمي وأعمالي تقابل صفحات هم فيها ، قدر لي يا جميلة أن أحيا عمري هذا لأعيش هذه اللحظة .... صورتي .. وأنا والمعجم .

فرحته وكلماته إليها كانت محملة بالأسى والشجن ، تلمع لهما عيناه، وحركات أصابعه التي يشرح من خلالها حجم صورته ومكانها.

- مسعود شومان ياجميلة طيب القلب رقيق المشاعر كتبت عنه قصة منذ سنوات بعيدة ، هو لم ينسني بل ذكرني وأدرج اسمي في معجم أدباء مصر .... لحظات نادرة من يوم عاد .

توقف مد كلماته وغاضت ملامح وجهه....

- لم توقفت أكمل ؟!!..

- لم أجد إسمك يا جميلة ..فتشت ما بين الأسماء ... ومررت بحروف الأبجدية فلم أجد !!...

تداركت جميلة لحظتها أنها تكتب الكلمات كما هو يكتبها وأنها ملأت استمارة وتركت صورة لها .... وبحماس ملحوظ يكمل حديثه لها :-

- وجدت صوراً لأديبات كثيرات ، فتشت ، فتشت عن صفحة لك فلم....

توقف فجأة يدقق النظرفى ملامح وجهها ، يحاول أن يحاكي صمتها

- أراك حزنت ... هل أخطأت حين أخبرتك بأن صفحتك لم أجدها في معجم أدباء ....

عاد لصمته ..... ليعود مرة أخرى :

- أنت حزينة الآن.

قاطعته بحزم قائلة :

- عثمان لم تصر على أن تذكرني أن هناك خطأ ما ، وأن هذا الخطأ في دائرة أنا فيها ؟

تلعثم واجتاحته موجة إرتباك لردة فعلها :

- أنا لاأقصد يا جميلة .... بل ألوم نفسي أنني تسببت في جلب الأسى إليك ، ثم لعلمك أنا متأكد أنه خطأ غير مقصود وأنه "سهى عليهم"

رفعت جميلة رأسها تفتش بعينيها عن غيمة في فضاء سمائها تعلق بصرها عليها ، قد تنقلها بعيداً ، فتطالعها لافتة " قطاع الرأس السوداء "

تقتلع بصرها منها لتمتطي جواد الفضاء مسافرة به حيث هناك بطاقة وصلت إليها كسرت الأغلاق والحواجز ... وصلت رغم الحصار والطوق ، بطاقة حملت إسمها من القدس ، كتب عليها أنها هناك معهم، لم تعد معه بل سافرت بعيداً ، حيث هناك .... عز الدين أبو صفيه.. عبد الله تايه.. زكي العيلة وإنهمار لفظته إقتلاعها .. لتغرق الأرض من هناك :

لما حملوا كلماتها من "إقتلاع" وألقوا بها إلى مطبعة في أحد شوارع القدس ؟ .... لتخرج إليهم صفحات مكتوبة يحملها أبناء شعبها تدق الأبواب وتركن على حواف شبابيك تينع وتزهر آمالاً تسافر إليها ..

وبطاقة حملتها يد الأب التي قبضت على كل جمرات الوداع للراحلين دون أن تصرخ من عنفوان الألم ، بل مضت عبر الطرقات تبحث لجميلة عن بطاقة يكتب إسمها عليها ويسجلها مع العائدين وكلمات أمها له :

- ما الفائدة .. لقد رحلت جميلة ولن تعود .... لم تتعب نفسك في ملء البطاقات وتسديد الرسوم لها ولإخوتها ؟!.... لم تكل خطواتك من طول الطريق وبعد المسافات .

يتمتم لها بفؤاد مجروح :

- بل هي عائدة .. حتماً ستعود .. سأرسل لها بطاقة .

وتذكر جميلة حين سهت عن ورقة خضراء تحملها وعليها تاريخ ختم الخروج ، يبرق لها أبوها بحتمية حضورها على أتم السرعة وإلا سقط تاريخ خروجها ومعه حق عودتها ، وتصبح ضمن جموع النازحين ..لا تستطيع أن تنسى هذه الليلة وكيف حزمت أمتعتها ... لاتعرف ما الذي تلمه في حقيبتها .. تاركة اطفالها ، تتحرك بين الحجرات وبين لحظة وأخرى تغرس عينيها على تاريخ خروجها والتاريخ المعلق في ساعة الحائط ، ولم يتبق سوى ساعات، يحملها قطار سيدي جابر إلى رمسيس لتتوقف عجلاته لخلل في مركبة القيادة يلفحها الصقيع .... تلف قدميها بشالها الصوفي ، متكومة في مقعدها ، تنظر الوقت الذبيح في ساعة يدها وساعات قادمة قد تلقي بها خلف البوابات الموصده ، لا تريد ان تسجل إسمها في بطاقات النازحين .... البيت .... الأرض .... الصبى الذي كان هناك .... من تكون بعد ذلك .... أيعقل كأنها لم تكن ؟.... تبقى منزوعة مقتلعة دون أحد من هنا أو هناك .... وقع من ذاكرتها ما وراء المحطات كلها ، لم تعد تحمل سوى ذاكرة واحدة .... الوطن الذي لابد أن تقطع كل المسافات لتصل اليه.... الصقيع يكاد أن يجمدها ، يلقي بها حيث هناك، لتعبر خلف البوابات رافعة بطاقتها من وراء حاجز الزجاج ، تناولت المجندة تصريح خروجها ، ترميها بنظرة تتفحصها قائلة :

- إبتعدي وعودي مرة ثانية حين تسمعين إسمك .

تختزن المجندة في ذاكرتها وجه امرأة عائدة تمر في لحظات قد تكون الأخيرة .... وجميلة تسمع وقع الختم على تصريح دخول .. تسمع اسمها تناديه المجندة مع العائدين ، تقترب منها تمد يدها تقبض على بطاقة دخول .. تدمع عين جميلة تود لو تضم كل الأكف التي لوحت لها من البعد ونادتها لأجل العودة ، حين كتب أبوها .... وكتب عز الدين أبو صفية ويده الممدودة إليها في أرض الغربة ، أودعت فيها إسما لها وعنوانا من هناك ليوقع عليه عبد الله تايه .... زفرت بأنفاسها لتعود أمام قطاع الرأس السوداء وكلمات عثمان :

- أنت حزينة يا جميله؟...

- عثمان هل لك أن تتوقف عن كلماتك هذه .... أود أن أقول لك كلمة... ولدت بحزني، وهذا الذي تراه يسكن ملامحي .... هو وجع أتنفس منه وأكتب كلمات .... فقط كلمات .... أنت لا تعرف ان لي بطاقة ....

تسكت كلمات جميلة ، تفسح طريقا لدمعة تخشى السقوط .

- نعم لي بطاقة .... هناك ....

الفصل الحادى والعشرون

قطاع الرأس السوداء

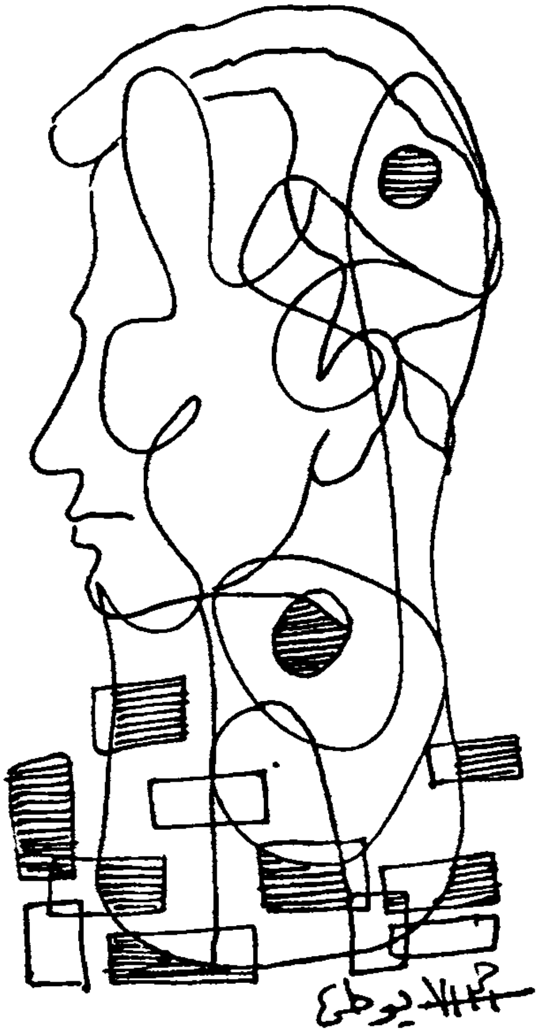

عثمان أمامها ووجهها يقابل اللافتة العريضة المثبتة على قوس بعرض البوابة الحديدية " قطاع الرأس السوداء " وكم من المرات جلست أمامها جميلة .. لم انزعجت هذه المرة ؟!!... لأول مرة تدقق فتقرأ اللافتة المثبتة فوق البوابة ، يفتحها ويوصدها بقوة الدفع التي تصنع صوت إرتطامها، جنديان من الأمن المركزي ، تخرج منها عربات مصفحة بفتحاتها المغطاة بأسلاك متشابكة ، تنقل العسكر ببزاتهم السوداء ، لم اختير هذا اللون الأسود ؟!!..ولم قطاع الرأس السوداء ؟!! .. الهراوات فى أيديهم ، ذاهبين بها نحو هدف محدد وتعليمات لاجدال فيها، تعلو الأصوات .. تنزف الحناجر بالهتاف فتذبحها هراواتهم ، تحطمها .. تكسر عظاما ، وأنفاس ملتهبة تختنق بالدخان المحمل بالغاز ، وعلى الناحية الأخرى بنايات تحوط السور من ناحية الغرب ، بنايات تحجب مدينتها التي هناك .. ظلال مدينتها تقترب منها لتطل على قطاع الرأس السوداء .. وبنايات باتت تشبه مدينتها تطل بشبابيكها عليها ، وتقطع المسافة بين مدينتها التي تزداد اقترابا منها تلك المقطورة التي تنثني في التفافها بما تحمله من صفائح سمن وطحين وسكر ، غذاء لجنود يلبسون بزات سوداء . وعثمان لم يتوقف عن مواصلة أحاديثه، أحداث بارع فى نسجها من رنات صوته وبريق عينيه وارتعاش حاجبيه ، تتنهد جميلة ، تريح ساعديها على النضد ونظراتها ترحل إلى فتحات الشبابيك ... أهي عيون غزة تطل على قطاع الرأس

السوداء ؟ ... وأهل يزورون ويحملون السلال ... لمن ؟ ! ...

تحمل الحلم فى عينيها باقتحام البوابات لترى ما يجرى هناك داخل قطاع الرأس السوداء .

****

تلمح جانباً من وجهه وهو ينفخ ويسحب أنفاسه من قاع النرجيلة، يطلق دخانها عبر فتحتي أنفه حراً طليقا ، لترتد ويذوب... يذوى في الهواء فوق جدار يحوط بوابة تحت لافتة " قطاع الرأس السوداء " ما إن رآها حتى ألقى ما بيده جانباً وفي لمحة بصر كان النادل يرفع النرجيلة من أمامه ، ينفض يديه منها وكأن شيئا لم يكن .... ولقاء بينهما بعد زمن ليس بقصير ، بدأ المكان لها بمشاهد جديدة تراها لأول مرة .... شدت مقعدا يقابله ما إن جلست حتى رفعت عينيها إلى وجهه فكانت ملامحه بعيدة تعود إليها صورة وجهه ببطء شديد مع برودة كلماتها ، ما بينهما كتاب مقلوب على النضد ينتظرها ، وعادة لم يكف عنها في لف أغلفة الكتب حين يحملها ، لإخفاء عناوين روايات انتقاها .... أسماء كتاب كتبوها .... قد يكون زماننا غفى عن ذكرهم .... أما هو دوما باحث في أكوام ملقاة على أرصفة الشارع الطويل في " النبى دانيال " يتوهج لأفكارهم ولبريق أسمائهم الذى لم يخب في عينيه ، يلف عليها لمرة أو مرتين لطمس معالم كتاب يحمله .... وخصوصية

يستمد وجوده منها .... يقرأ .... يقلب .... أو تراوده فكرة دسها في أحد كراتينه المتكومة ،جالساً أمامها يعقد راحتيه ينظرها قائلاً :

- غيبة طويلة يا جميلة

- ....

لا ترد

- تبدين اليوم أكثر إشراقاً

ضحكت جميلة ودهشة تصطنعها لكلماته ، فبادرها قائلاً بصوت خفيض يفيض مرارة :

- أظنك لم تضحكي منذ زمن ؟!!

- بل ضحكت كثيراً

- لا يهمك من شيء ، كل ما أريده ، الإطمئنان عليك

تجتهد لأن تجد كلمات للخروج من حالة أصابتها .... مكامن ضعف... مواطن قوة تتجاذبها ....

- وأنت ماذا فعلت طوال هذه الغيبة ؟....

- قرأت كثيراً .

- في أية قراءات ؟ ....

رمقها بنظرة تحمل سخرية مبطنة :

حين أمسك بكتاب لا أقرأ منه الصفحات الأولى ومن المنتصف الى النهاية ، قراءاتي كاملة متكاملة يا جميلة .... وهذا ما ساعدني على اجتياز أزمة كادت أن تطحنني في رحاها ، لو كنت من الضعف لكان

الموت الأكيد .... صمدت على حواف وأطراف الحكايات فاغرقتني في فلسفات لم تخذلني ، كدت أن أجد نفسي ، أفتش عن مخطوطات كانت منسية ، أدركتها تحتضر في قاع الكراتين ، ألقيت بها الى منير عتيبة ....

قاطعته بصوت خفيض تغلفه الدهشة لحديثه إليها المنعم بالعذاب والألم:

- وأي روايات هذه ؟!! ....

- تشتيت إلى موت .. ويوم عاد ....

حديثه لم يتوقف ، وجميلة عادت تحوم بنظراتها في ذلك المكان الجالسة فيه ، فسقطت نظراتها المتعبة على جدار واطىء منبسط يحوم النمل عليه من وراء مقعده حائراً في عدوه وإيابه ، ما إن تصل معه لحافة الجدار حتى يلوي عائداً ، ومنها لكرة أخرى ، قد يجد له مخرجاً ، كلمات عثمان بدأت تهدأ وتهبط إلى حيث قراره الدفين ، حين مد يده يلتقط الكتاب المقلوب على النضد ، يعيده لوضعه الطبيعي يريها إياه :

- إليك بهذه الرواية " جنرال الجيش الميت "

عاد يقلبها مرة أخرى قائلاً لها :

- حقاً إنها رائعة أدبية ، لا أريد أن اقطع عليك متعتك حين تقرئينها ولكن نفسه المحملة بالأسى لم تطاوعه فأخذ يقص عليها ما أخذه من هذه الرواية ، وجميلة إرتاحت نفسها لجنرال رافقه في رحلته

المريـرة لينسـى عثمـان مـرارة نفسـه ، والنمـل لازال حائمـا علـى انبسـاط الجـدار أمامهـا .... ويبـدأ فـي الاختفـاء حيث الطريـق الـى جحورهم ، يحملون بقايا من فتات آحاداً .... أو مجموعات لحجرات أقاموها لليالى الشتاء الباردة .... شاخصة نحوهم ورحى دائرة على صدرها وعقلها بروحها التائهة وأذناها تسمع له ما يقصه عن جنـرالات ايطاليـا .... ألبانيـا .... سكان الجبـل الاسود .... حـروب بلقانية عانى منها كثيرون، صرب بلغاريون .... يونـانيون ومهمـة الجنرال لاستعادة جثث لأبناء وطنه بعد مرور سنوات طويلة ، لمعت الفكرة في رأس جميلة ، مقاطعة دون تفكير :

ـ ما هذا ؟ إنه لهراء ....

عثمان لم يتوقف عند تعليقها بل استمر فـي سرده دون التركيز لمـا قالته له مقاطعة :

ـ كتب الجنرال بيانات بأسماء الجنود وقياسات مدونة عنهم ، لحجم سواعدهم .... أقدامهم .... وجماجمهم لتدل علـى أصحابها وقلائـد يلبسونها تسمى قرص الهوية ، محفور عليها أسماء لا تذوب وتفنى مع أجسادهم ، بل تبقى على الهياكل شاهدة على أصحابها ....

غابت مع كلماته ، حلقت ، وارتدت ، ملقاة على مقعدها .... تغوص في كلمات غاضبة يتفوه بها دون أن يعي وقعها على نفس جميلـة ، تشعر بجسدها يترضرض من وقـع ارتطامـه من علّ ، غام وجهها واكفهر ، تسمرت نظراتها على كتاب دام مقلوب أمامها فوق النضد

، مالت برأسها فلامست ذقنها أول حافة قميصها ، مطبقة شفتيها على مرارة الحكاية سألها مرتعداً :

- ما بك ؟!! .... هل قلت ما ضايقك ؟

أأكون أخطأت معك دون أن أدري ؟!! ....

- ....

ترفع وجهها الذي تجاذبته غيمات ، تحبس دموعها بين طياتها، فبدا وجهه والعالم الذي حولها ليس بعالمها .... عالم لا تعرفه ولا يعرفها، نطقت متمتمة :

- إستمر .... أكمل

- جميلة عليك بإلقاء "أحياء وأموات" التي تقرأنيها وإليك بهذه .

إرتدت بمقعدها رافعة رأسها في دائرة انفعالات عصفت بها

- لا تقل لي هذه الكلمة مرة أخرى ، أحياء وأموات هي ملحمة قلبي وروحي ، أعادني "قسطنطين سيمونوف" إلي الحياة من رحى الحرب .

عثمان لم يقرأ أحياء وأموات ولكن جميلة قرأتها .... جميلة لم تقرأ رواية يحملها إليها في ذلك اليوم ، حينها رد عليها قائلاً بتأكيد وثقة:

- بل جنرال الجيش الميت .

غامت .... وتاهت .... وحين رأف لحالها المتبدل أمامه لان لها بصوت خفيض:

- جميلة ما بك؟ إنقلب حالك في لحظة ، بل أقل!!...

قاطعته بصوت تتجاذبه كل مكامن الضعف :-

- عثمان .... ليس هراء كما قلت لك منذ لحظات .... أنتظن يوم تتحرر أرضنا من خلف السياج .... هل اترك ماجد أخي يرقد وحيداً في برية هناك.... مقبرة في بيروت " مقبرة الشهداء " أقاموها للراقدين هناك تحتها .... ولكننا نعرفه جيداً .... ولن نحتاج لبيانات مكتوبة عنه ، عن طول عظامه .... وحجم رأسه لنعيده .... نعرفه دون قرص الهوية .... مكتوب عليها إسمه وتاريخ استشهاده.... ليس هراء .... في أموات وأحياء .... وجنرال جيش ميت يعيدهم من منفى طوى أجسادهم وأذاب عظامهم .... ليس هراء.... في أول لقاء لي بأبي بعد أن أودع أخي ثرى بيروت ، مددت له يدي مصافحة ، وقبل ان أنطق له بكلمة واحدة قال لي :

- وضعنا جسده في معدن لا يتأثر بالزمن لكى نعيده يوما ....

وكرر كلماته مرة أخرى :

- يوما سنعيده يا جميلة .

ليس هراء ما حدثني به أبي أول ما رأت عيناه عيني ، أبي الذي لم يقرأ أحياء وأموات ولا جنرال الجيش الميت الذي تقول .... ليس هراء حين كان أبي أول من عبر مع خيوط الفجر الى الضفة الشرقية مسافراً ، لتتلقف كفاه جسد إبنه المكفن بعلم الثورة .... كان يريد أن يعرف مرقده لأنه سيعود به يوما إلي أرض لنا في كنعان ، عبر أبي

أجهزة اللاسلكي والرادار منع كل من عبر بعده لأجل حمل جسد أشعلوه انتقاما، عظامنا تبقى فيها وتفني في تراب الأرض ليس هراء ....

هل هراء حين يجفل قلب جميلة لحظة التفكير في الوقوف على قبر أخيها ، وتلوي عائدة ، تاركة إياه في أرض تشبه أرضا في كل مكان، ولكن ليست الأرض التى هناك ....هل هراء أن يسألها في حمله ونفض تراب وطين أسود وجذور وبخار وتمضي به .... كيف لها أن تذهب اليه ؟! .... وأنى لها أن تعود بدونه لأرض تنتظره ليذوب في جوفها؟ .... أسراب النمل الحائر ودليل قاده إلى موطن يحن إليه في ليالى الشتاء الباردة ، يدور محرك سيارتها .... تطالعه... عاد النادل اليه بالنرجيلة وسحب انفاسا وزفر أنفاساً .... تذوب.... تذوي أمام بوابة تسكن عليها لافتة " قطاع الراس السوداء "

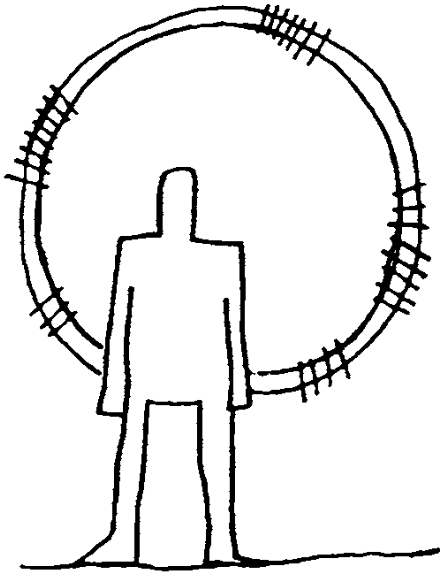

الفصل الثانى والعشرون

عثمان و ....

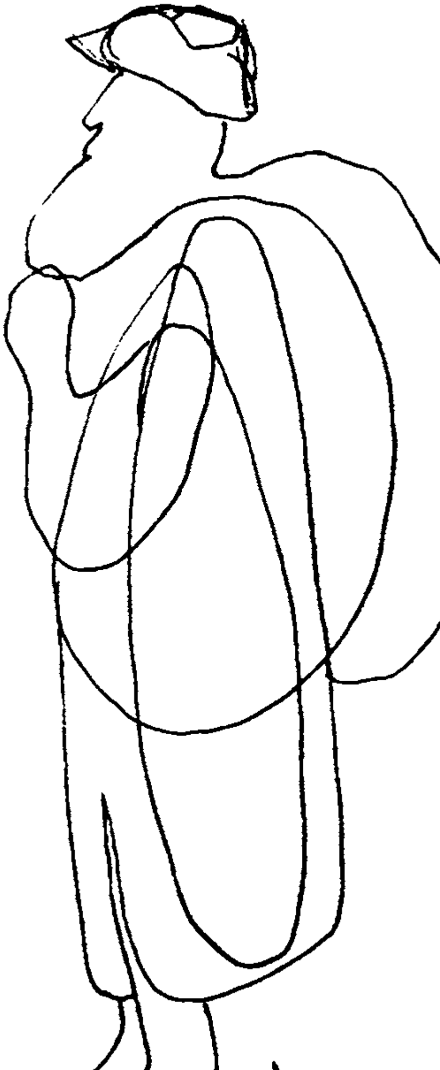

تجلس قبالته تمعن النظر في هيئته وملامح وجهه دون أن تثير نظراتها اهتمامه .... أحيانا تجده مشرقا و أحياناً معتماً ، يروق لها قميصه الأبيض ، تدقق فيه قائلة لنفسها :

عثمان يحاول أن يحسن من هندامه ، قميص أبيض من قماش التيل وأزرار كبيرة، يبدو به مكتمل الهيئة.... تقف نظراتها على أحد كتفيه لزر مثبت فوقه ، قام هو بحياكته بطريقة عشوائية لا دراية له بأمور الحياكة ، الخيوط متكومة تتسع وتضيق الى آخر الخيط الأبيض المنسدل على كتفه من بقايا خيط مقطوع بأحد أسنانه ، تنهدت قائلة لنفسها :

- الأمر لازال معقولاً ، كان من الممكن أن يستخدم خيطا أسود أو أحمر، كل هذا وحديث عثمان لم يتوقف ، ولم تتوقف دورة الفحص والتدقيق على هيئته .... حديثه كله نادرة ورحلة بحثه عنها ، في كل مرة على النضد ما بينهما كتاب أو إثنان ، ولكنها اليوم لم تسمعه جيداً حاولت أن ترسم له صورة خارج المقهى الجالسة معه فيها.... تذهب هناك حيث بيت يأتي منه إليها .... كيف يقدر هو أن يختلق الحكايات ويرسم منها صورا في واقع سحري، وحين يحكي لها عن شطحاته الجنونية يضحك مزهوا بنفسه ، فترد عليه :

- كم تحب و تعشق القص و اللصق من هنا ... وهناك...وقدرة غريبة لديك على الجنوح بالخيال فتصنع منه حقيقة ... أو من الحقيقة تصنع الخيال .

يحكي لها عن بيته وأولاده وكيف يدير الحياة معهما .... وكتبه في الدور الأرضي مغلق عليها .... وكيف نقلها للدور الرابع .... كتب تقبع في كراتين لم تعرف طريقاً لرفوف تستلقي عليها ، لم تكل قدماه من السير في شارع النبى دانيال يلتقط كل ما تقع عليه عيناه ، يقلب ويشتم عبق ماضيها ويعرف أنه الكنز الذى ينتظره ليحمله إلى بيته ، يسابق المسافات يقطع كل الأزمنة و مساحة صغيرة تتسع لجسده، يتكوم على عتبة يضع رأسه على حافتها .... وبقايا لمفارش صغيرة تحوط هذه المساحة الضيقة .... وورود صناعية أخذت انحناءة لمزهرية صغيرة منثورة حوله .... زهور مترية ، باهتة ، عطشى ، لم تمتد يد لتسقيها .... دنياه كتب جالس على بوابتها.... كم تبقى من زمنه ، القليل ؟!.... أم أقل من القليل وتلفظه عتبة دار ملئت بالكتب ....

****

يستلقي عثمان على الساحة الضيقة أمام عتبة داره تتزاحم خيالاته التي دوما تواعده في ساحة الكتب من المساحة الضيقه ، وهو على عهده معها أن يصنع منها الحقيقة.... تأتيه في غفوته خيالات تحمل صورة جميلة تقف أمامه تتحول عنه ، تجوب في مكانه تنظر كراتينه المكدسة بكتب ترتفع من حد الأرض لأخر حدود السقف .... يرسم حواراً يدور بينه وبينها، تساؤلاتها وفضولها أمام رجل قلب كيانه ، حيث جاءت إليه خلجات منتحرة من عمر الزمان الذى غفى

غفوته الطويلة وعادت اليه تدق على كل وتر من أوتار روحه .... قلبه وجدانه ....

يفتح ويغمض عينيه في المساحة الضيقة يتحسس مواقع أقدام جميلة ، يفرد راحة يده على مكان دقت عليه بقدميها .... على كتب لمست أغلفتها ورفعتها لتقرأ عناوينها ، يعود يمسد على قطعة صوفية لازالت تحتضن جسده ، باحثا عن بقايا .... قد تكون تركتها وراءها ورحلت

****

عثمان وعين تنطق بآلامه الدفينة لإنسان مسحوق، وعواطف متأججة تكاد تفتك به .... وعالم يتمناه وحلم لازال غافياً في أساطير الحب العظيمة .... ملامحها رآها على وجوه النساء القدامى.... هي التي تستطيع أن تدفن في داخله مكامن الرغبة لتحل محلها حالة الرضا بل الفرح لدقائق يراها فيها ، فتلمع عيناه على كيانها الرابض على الصمت والغموض ، مؤمن أنها تراه عبر كل العصور .... وما علاقة هذه اللحظات أو الدقائق بعمره ؟ .... ترفع جميلة عيناها لتستقر على زر متكسر وخيط تكومت أجزاؤه على حوافه ، وطرف خيط يتدلى من على كتفه

****

يختلي راسم بعثمان عبر الأثير ينغلق العالم عليهما

- أين أنت يا عثمان؟ .... مدة طويلة لم تزرني ولم أسمع صوتك ، أيعقل هذا .... أنت الصديق الوفي تتركني هكذا تتجاذبني الظنون والهواجس بك

- ما أخبارك يا راسم

- لو كانت أخباري تهمك كنت سألت ولو عن طريق الهاتف

يباغته بسؤال لا يتوقعه راسم

- كيف حال جميلة ؟ .... وما أخبارها ؟....

- أنت يا عثمان تسأل عني لتسأل عن أخبارها ، كم من المرات قلت لك اترك هذه الأمور ، بالأحرى دعك منها ومن السؤال عنها ، هي لا تستحق منك هذا الاهتمام ، وإجهاد نفسك في المراوغة لأجل الوصول لأي خبر عنها ، لم لا تكف عن طريقتك هذه؟! .... العالم يتغير من حولنا وأنت لازلت تقف في مكانك ....

تقطعت أنفاس عثمان وسيول من العرق تغطي مساحات وجهه المتغضن ، يلتقط اللحظات ليرد عليه :

- ما الذي حدث ؟ أخبرني ....

نبرات صوته تعلو ، يريد أن يعبر به القارات البعيدة ليسمعه راسم

- لا شيء يستحق الذكر ، نواياها ليست صافية ، بعث الله لها "صانب" الذى أخذ منها نقوداً كثيرة للمراجعة اللغوية ، وحين إستردتها منه تبين لها أنه لم يصلح منها شيئا ، هي تستحق ما

جرى لها ، وآخر كتب لها بعضا من نفحاته التي عبر من خلالها عن انبهاره بروايتها .... بكلمات كلاسيكية لا معنى لها

يجف ريق عثمان يتحشرج صوته :

- ومن يكون هذا الآخر ؟....

- صائب وأيضا الشيخ عاطف الذي كتب لها رؤيته في مجموعتها القصصية ، عثمان إسمعنى جيداً ، هناك أديبات أحق منها في بأخذ إهتماتك .... إذا كانت جميلة تكتب فليست آخرهن .... وهى الغريبة عن بلدنا ، أتت من بلاد بعيدة، أما أخواتنا الأخريات فيجب الإلتفات لأعمالهن ، وتخرج من ذلك المنفى الذى أنت فيه وتأتى الندوات وتكتب لهن دراساتك المثيرة وإبداعات لم يسمعوها من أديب يماثلك.

أسدل عثمان أهدابه وتمنى أن يلقى بالهاتف في مجرى النهر ليتخلص من هذا الصوت وأصوات أخرى تطن في أذنيه .... وصوت راسم ينادى في الهاتف وعثمان يتركه ويمضي ، لا يعرف أهو حزين لأجل جميلة أم لأجل نفسه .... وعتبات طريق أمامه لا يرى لها نهاية .

الفصل الثالث والعشرون

لاجئـــــة

بدأت جميلة تسلك درب الآلام وبين أحياء وأموات ، يحملها إليها عثمان تخايله عناوينها وفخامة أغلفتها ، يعود الى بيته يحلم بها ، أنها تحوطه في مكانه من قاع كرتونة أغلق عليها وتراكمت فوقها كراتين الكتب .... ورحلة البحث عنها من جديد ، ويقينه أنه وضعها في زواية ما

- أين تكون الآن هذه الرواية ؟!....

وحين يفتح عينيه يتيقن أنها مازالت هناك تعتلى أرفف مكتبة راسم، ولكن كيف السبيل للحصول عليها .... يتذكر " الأم " لمكسيم غوركى، حمداً لله أنها موجودة لديه ... هدأت أنفاسه حين تذكر أنه أفرد لها كرتونة تضم جميع أعمال غوركى.... وتظل رواية ""الأم"" تلح عليه لأن جميلة طلبت منه البحث عنها في شارع النبى دانيال....

- هي عندي .... كم أود أن أشكر تلك الأم لأنها أعفتني من رحلة البحث هذه ....

يسند رأسه للجدار يتأمل قدميه المتعبتين من عناء رحلته الطويلة.... وصناديق تتآكل مكدسة من حوله .... وفكرة تعذبه في نقلها من الدور الأرضي للرابع .... يتنهد .... يغمض عينيه مستسلماً للعتمة

- إلي أين أنت ماض يا عثمان ؟!....

يتعثر في إجابة .... يراوده يأس ممزوج بأمل فيستسلم لحالته هذه إلي أن يشق نور الفجر أهدابه ، يمد يده للكتاب الصامت بجوراه ....

- هذه الأم .... آه .... ما هذه القسمات الحادة.... النظرة الفزعة.... أنفاس محتبسة علام تبحث جميلة ؟!! .... كم أخاف أن تطلب منى "أحياء وأموات" ...." درب الآلام"

قلبي يحدثني أنها تقرأ أفكاري قبل أن تمر بخاطري ، أحسبها القادرة على افتضاح أموري التي أحرص على مداراتها لأعيش في هدوء...من أين أتت تلك الجميلة ؟ وماذا تريد ؟!! .... أخاف حين أقابلها أن تعرف بنواياى وخطط أنام ليلي أدبرها .... وأمنيات ألاحقها في الحصول على تلك الكتب الفاخرة.... "قسطنطين سيمونوف" الجميع يغطون في نومهم ، الجميع نسوا أبطال الحرب والسلام .... والدون الهادىء .... أنا لازلت أذكرهم .... وأعيش أيام حروبهم وسلامهم ، ولكن جميلة هل لها أن تسطو على أمنياتى وأحلامى ؟!.... لا .... يقظ أنا ، بل متنبه لها ....

وما لبث أن استسلم لضعفه أمام غد قادم إليه سيلتقي بها .

****

يوم ألقي لها بكتاب على النضد، وجه امرأة تهيم بملامحها عبر التلال والأحراش .... ثقبت عينيها كلمة " لاجنة" ينفتل يعدل من قامته على المقعد الخشبي متأملاً للفضاء البعيد ، يستجمع أفكاره التى سيضعها أمامها :

- إقرأيه حتما ستجدين فيه قضيتك التى تبحثين عنها دوما

- أين كنت بالأمس ؟

- عند صديقي راسم

- عم تحدثتما ؟

- حاول أن يمحو أثراً من سوء فهم بيني وبينه ، قال لي :

- نحن أبناء بلد واحد يا عثمان وجميلة ليست من بلدنا .... اترك أمرها قليلاً ، وانتبه لحياتك الأدبية التي بدأت في هجرانها

لمعت عين جميلة والتصق فكاها في فمها .... طنت أذناها .... إحتدمت حراب ونبال وسيوف في عينيها .... غاصت بدموعها التي أغرقتها لتلقيها على فتحة حنجرة جافة وقلب يتقافز أمامها من حواف سكين مسنونة تقطع منه وتلقي به فى النهر الذي بدا لها بعيداً بطينه وزرعه

****

ومن لاجنة كانت الأم ورحلة البحث عنها " مكسيم جوركي " تقرأ ما قدمته الأم وكيف تصنع الأبطال .... تقلب صفحاتها الصفراء المهترئة بعينيها ، ورائحة عطن تنخر أنفها ، وحواف ورقة تآكلت من فعل الزمن بها ، بعضها أصابها بلل من الزمان فبهتت كلمات فيها ، ولكن جميلة ماضية فيها بروح جسورة فرحة .... وان هناك غاية ستصل إليها .... تصل إلي أبطال يسطرون تاريخهم .... الأم ومكانها ، وأرض كانت من أجل الأبناء وكيف يأتيهم الموت حين

يدنو منهم وجلاً .... خائفاً وحياة أليمة لأناس طيبين .... وحرية تطعم الخبز ، وتهب الحياة .... وكيف يجب أن تموت حبة قمح وتبعث حية في سنبلة جديدة ، والأم التي هناك تسبح في ماء عين جميلة لا تكف تجدف بكل قطعة من جسدها .... في مشاهد حية لا تموت ، والتي نامت وابنها في فراش واحد، لليلة كانت الأخيرة لصيف أخير

وشوشته :

- أنها راضية عنه .... وفي ذمة الله أودعه ....

ووسادة تشهد عناق الدمع في ليلة كانت الأخيرة .... هي تعرف أنها الأخيرة.... تقوده إلى هناك .... ويقودها الآخر معه روحاً تدفعه... روح أم تصنع الأبطال .... علمها كيف تدق على الهاتف النقال لتسمع صوته لآخر مرة .... ولكن في المرة الأخيرة كان صوته هو دوى القنابل المتفجرة من صدره على أجساد لآخرين لا يعرفهم .... ولا يعرفونه

وتلك الأم كانت تعرف حين سقطت شبكة الهاتف وسقطت كل الشباك في شبكة واحدة .... فتذبل لها الحقول الخضراء .... ويرقد الأفق في العتمة .... وتتعرى أسطح المنازل .... اى أم هذه ؟!.... وأى أم التى قرأت مع مكسيم ؟!.... يا ليته ينتفض من تحت التراب ، ويشاهد ملحمة تتفتق حكاياتها ولا تقدر أن تجاريها أقلام المبدعين... هل تعطينى يدك يا غوركى لنمضى معاً وأفتح لك البوابة الحديديه

المكهربة والمزروع على أرضها حراب نـافرة ؟.... هل تعطنـي يدك لتشتم معى رائحة الدم ؟.... فتصرخ الأرض .... أكون أو لا أكون .... هل لـك أن تـأتي معي وتدق بيدك لتفتح لـك الأم التـي تحجرت فـى عينيها صورة الشهيد ؟!....

هـل لـك أن تمـد يـدك لتنتـزع كـل الحـواجز تزيحهـا عـن وجـه الحقيقة؟!.... وأنت الذي قلت .. أنك جئت إلى هذه الحياة لتعترض .. من غسل الصحون ، إلى خدمـة فـى محل أحذيـة .. جمـع الخرق .. اصطياد العصافير .. وعينـان تكشفان عـالم الظلم ودنيـا الجـوع .. وكيف يسمو النضال فى دخيلة الانسان علـى كل مـا هـو حيوانى وأنانى .. ويبقى اسمك يا غوركي .. اسم أنت صاحبه ، يوم نطقت " غوركى" تعني المر والمرارة ..

الفصل الرابع والعشرون

مدينة نعرفها ..

أحيـاء وأمـوات .... درب الآلام... روسـيا البيضــاء .... قعقعـة آلات الحرب ومعارك تفوق التصـور .... راحـات ممدودة يعصف الـوهن بها، أسلاك حالت بين عيون حبيبة ستشتاق ، تفـارق ، ترحل ، وقد يكون الرحيل دون عـودة ، " ماشـا" تـدق علـى صـدرها برمـوش عينيها... فراق ابنة وحيدة .... ابنة هناك وحبيب هنا ....

وتظل صورة جورباتشوف ذلك الرجل وخريطة رسمها على جبينـه ، تدقق فيها كلما ظهر على شاشة التلفاز .... خريطة لعالم لا نعرفه.... عالم عرفنا فيه معنى التيه والشتات ، روسيا البيضـاء وكيف حملت طائراتها بنات الجليد، صاحبات القلوب الدافئة والأجساد البـاردة .... يرجـع بنـا زمـن الرفيـق ، فتـاة ثلجيـة يضـمها بهـو قصـر تـدق فيـه بأناملها الباكيـة معزوفتهـا الحزينـة .... وآذان شرقية ترهف السمع للجديد القادم إليهم وسط رائحة النفط الآسنة ، لترقص أخـرى علـى نغمات مسافرة متعثرة من على قمم جبال سيبريا .... تعرفهن جميلـة منذ انفرطت حبـات عقد روسية تدحرجت لتلف الكرة الأرضية ، لا تعرف ميقاتاً لتكف عن دورانها

من البداوة إلى النفط " عبد الرحمن منيف " الآن هنـا .... " وهو الآخر لـه صورة من ملامـح شرقية .... منهـا تـأتي ريـاح معاكسـة متمردة .. ملامح تحبها جميلة حين عبرت بها الزمان ورسمت حدود المكان .... مكان لازال من القدم يسكنها ، هو يعرفـه مثلمـا هـي .... وكلمات قالها أحبتها .... دائما تحوطنـا المدن القديمـة ، أمـا الآن فـلا

نعرف ما الذي أتى إلينا ، ولكن لا تكف أيدينا ترسم وتكتب عن مدينة كانت لنا قديمة عرفها هو وعرفتها هي .. وتظل رقصات الفتاة الثلجية مثل نغم ناي حين يرجعه الصدى

****

مدن بعيدة نلم حبالها، نشدها إلينا، مدن ضاربة في القدم.. من اليمن إلي معين .. سبأ .. وسلطانة التي حطت رحالها على شط العرب .. بلاد فارس .. وعودة أخرى لقبائل يسمون "الحولة".. تعود سلطانة وطفولة لم تغادرها تغرق عينيها بالدموع، تشكو همها لأمها:

- يقولون أني فارسية، جئت من فارس .. لم يا أماه ؟!...

تدمع عين الأم لحال صغيرتها، تضمها بقوة إلى صدرها :

- هم لا يعرفون .. ولكنك تعرفين ولن تنسي يا بنيتي.

تكبر سلطانة والسؤال لم يكف يدور عن المدينة البعيدة .. يمن .. هجرات .. قبائل .. لتظل المدينة القديمة هي الساطعة في سماء قلبها.. شط العرب لا.. فارسية لا.. بل هي مدينتي الضاربة جذورها في قلب جزيرة العرب .

الفصل الخامس والعشرون

المساكين .... أبناء وآباء .... ليزا

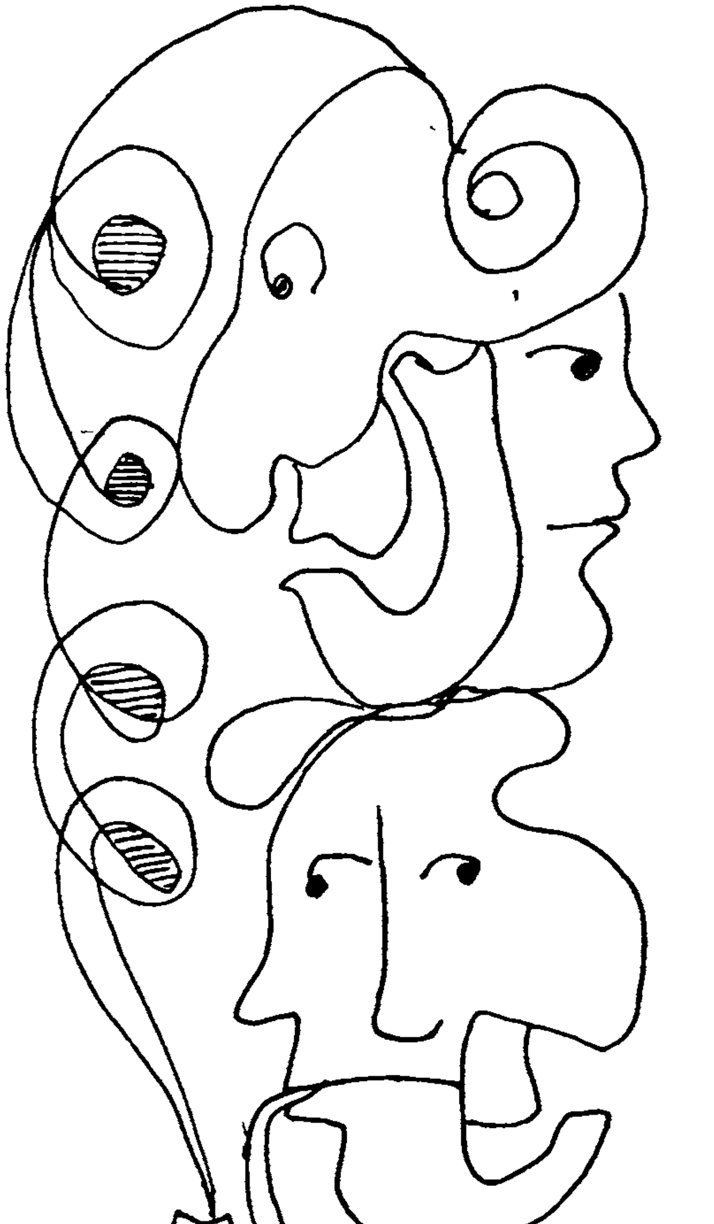

لازالت الكتب راقدة على النضد الفاصل بينهما ، يلفها عثمان بورق سميك عليه خطوط حمراء باهتة ، يضم شفتيه للأمام تعتمل الفكرة فيهما .... يعود بهما لحالتهما الطبيعية ، يحرك أنامله، يسرد لها ويفيض .... تستوقفه :

- هل أحضرت القائمة التى أمليتها عليك؟

يهز لها رأسه بزهو تلمع له عيناه :

- نعم .... إقرني القائمة وعلمي على الورقة بما جئتك به تغوص بأناملها إلى قاع حقيبتها تبحث عن ورقة بيضاء .... تجدها .... تشدها ، وتقرأ له ، ويبدأ هو في فك لفافة الورق عن الكتب المحمولة إليها ، ينزع الورق عن مساكين " دستوفيسكي .... ليزا.... آباء وأبناء" تورجنيف " تتناغم كلماته إليها مع حركة يديه في نزع اللفافة ورص الكتب أمامها:

- هى مطبوعات قديمة من سلسلة الألف كتاب ، انظري إلى" ليزا" يا ليتك تقرئينها .... وهذه "آباء وأبناء" حين تصلين لبيتك إبدأي بها... نعم إبدأى بآباء وأبناء .

مدت يدها تضم هذه المجموعة بين ساعديها ، تبدأ تقلب فيها ، تبحث عن شيء ما في أغلفتها المتهالكة ، يرجع هو بظهره إلى الوراء، يزداد إلتصاقه بالجدار ، فاتحاً عينيه عن آخرهما ، يستحث نفسه ليزيح بعضاً من قلقه وهمه من أن تكتشف شيئاً هو حريص أن يخفيه عنها .... تتقاطر هواجسه حين يسأل نفسه:

- عثمان ما الذى يحدث لو أيقنت وعرفت أنك تبيع لها كتباً من بيتك الكرتونه التي تفككت جوانبها وتحللت من الرطوبة والبلل .... وسهرتْ الليل بطوله ألصق على جوانبها اللاصق المتين السميك ، وأقص قصاصات مربعة لا أحد يجيدها مثلي.... لأخفي ثمنا أكتبه بخط يدي

جميلة تقلب الكتب وتقرأ في مقدماتها وفهارسها .... وتاريخ طباعتها هل هى الطبعة الأولى .... أم الثانية وهو غارق في هواجسه بعيداً عنها .

- جميلة تعرف عنك كل شيء يا عثمان .... وتعرف خطك في كتابة الأرقام والخطين المتوازيين اللذين يحملان الرقم الذى أحدده من قيمة الكتاب ولكني أحكمت اللصق .... أحكمت كل شيء .... ولن تكتشف أمري معها .... بعد ما عاهدتها أننى لن أبيعها شيئا من مكتبتي .... ولكن قد أهديها لها عن طيب خاطر، جميلة تقلب في "المساكين " يوقف حركتها في حديثه معها:

- أنا اشتريتهم بالأمس من شارع النبي دانيال الولد طمع عندما وجدنى متمسكاً بهم ، فأخذ يعلو بالسعر ، ولكني حاولت معه لنتفق على ثمنٍ معقول ، وعدت بهم ، وطوال الليل ألصق على الصفحات المنفلتة لأحفظ لك تلك المخطوطات من الأدب العالمى الذي سيصنع منك أديبة حقة

لم تنطق له بكلمة ، غرقت في بحر الصمت أمامه ، وحين رفعت رأسها من بين الأمواج لتسترد انفاسها ، سألته :

- ورق الظهر منزوع عن الكتاب بأكمله من الغلاف

- نعم .... لقد وجدت آثاراً لكوب شاي فآثرت أن أقطع الجزء المتسخ من الغلاف

- أول مرة أراك تطاوع يدك وتقطع غلاف كتاب، أنا لا أحب هذه الطريقة كان لك أن تلصق ورقة سميكة تحجب ما لا تودني أن أراه دون نزع الغلاف

كانت تحدثه وتتكيء على مخارج حروف كلماتها في تؤدة تحمل كل معانى اللوم له .

- اود أن أقدم لك أحسن ما استطيع أن أقدمه

قلبت في الكتاب الثاني في حركات بطينة مشيرة له باصبعها:

- والكتاب الثاني مقطوع أيضاً كيف ؟!! ....

- لا تكترثي لهذا ، المهم أنك حصلت على ما تريدين ، وهذه معجزة بحد ذاتها

أخذ يلم الكتب وعاد لحركته المعتادة في حواراتهم خلف الورقة السميكة المقطوعة، يبلع ريقه بصوت مسموع لها ويمسح عرقا تفصد من وجهه:

- جميلة أحسب أنك تشكين في أنني أحضرت لك هذه الكتب من بيتى، لا ، أنا أؤكد لك أننى أخذت شارع النبى دانيال طولاً وعرضاً

لأجد لك ما تريدين ،أتعرفين معنى أن أبيعك من مكتبتى .... لا .... لا أريد أن أتصور هذا أبداً.

بدأ يحرك رقبته يمينا وشمالاً ويخبط راحتيه كأنه ينفض آثار ما تعلق بأنامله من صمغ وورق، صمتت جميلة لكلماته وعادت تهدىء من قلقه قائلة له :

- أنا لا أشك في هذا أبداً ، على الرغم من أن بيعك كتبا لي من مكتبتك ليس جرماً كما تصف ، خذ الأمور ببساطة بعض الشيء وهذا لن يفسد للود قضية

- لا ... أرجوك لا تنطقي بهذا الكلام وتبسطين من هذا الأمر .

بدأت رحلة النظرات الحائمة على الكتب التي أمامها والمكان وما حولها ، وبدأ هو يستعيد يقينه بأنها لم تكتشف شيئا فتسربت لروحه نفحات من سعادة متقطعة ما إنّ تأتيه حتى تنفلت منه برجع عنيف فتوقع في نفسه صدمة لا يعرف كيف تأتيه لتذهب عنه ، فيبدأ حواره مع نفسه ، بحديث يألفه معها :

- ما الذى جرى يا عثمان ، كل ما أعطيته لجميلة قرأته أنت من زمن واستطيع أن أجده مرة أخرى في هذا الشارع ، بل أستطيع شراء ما لم أقرأه بعد .... لم حزنك هذا ؟.... أنت لم تخسر شيئاً .... بل كسبت أشياء، امتنانها لك .... والنقود لا بد أن تتوازن أمامها ، لتكمل معها مشواراً بدأته .... وتمضي أنت ، وتمضي هى ، وكأن شيئا لم يكن....

لمت جميلة ما تبعثر على النضد من أشيائها .... كتب ونظارة قراءتها .... تستأذن للإنصراف ، دون أن ترفع عينيها لنظر ه جهه الذى بدا أكثر امتقاعاً وقف يسلم ، مظهراً لها وداً واحتراماً .... ومضت حيث الطريق البعيد .... حيث هناك ومكتبة لها تعتليها .... درب الآلام .... رحى الحرب .... الأنفس الميتة .... أرى الشمس .... تلف مفتاحها في فتحة الباب على غرفة تركت فيها نوراً شاحباً لساعة المغيب يترنح في زواياها لينسحب راحلاً .... عادت إلى العتمة تنقل خطواتها في حجرتها ، تحفظ كيف تمر فيها ، ومقعد تخلع منه حذاءها ، ملقية بثقلها عليه .... ومشجب ينتظر أن يحمل لها ما تلقيه إليه من ملابسها .... عين بدأت تعتاد العتمة ، إلا من نور شاحب يتسرب إليها من إنارة الشارع .... لم تفتح مفتاح النور فور دخولها .... تألف العتمة وتحبها .... تدور بعينيها من حولها لتسقط نظرتها على مكتبها .... تمد يدها إلى مفتاح النور لينتشر الضوء على وجهها .... يكشف ما حولها .... كتاب وكتب.... عشق للكلمات .... ونار تكتوي بها .... تصلي أناملها .... تلقي بجسمها على سريرها ترفع عينيها على رفوف مكتبة صغيرة تحمل درب الآلام .... رسول الحرية .... أرى الشمس .... وما كتبه "نودار دومبادز" عن حبيبة خلا وجهها من الدم .... بعينين زرقاوين.... معتمتين تحدقان في البعد تنادي الطريق

- الى أين تجري أيها الطريق ؟ والى أين تقضي بقريتي ؟.. وعزيمة لا تبارح صدرها .... تمضي عبر الطريق قائلة .... سنعود.... سنعود ميممين وجوهنا صوب الشرق الذهبي .... وعندئذ سترتفع الشمس من وراء الجبال .... وتظل الصبية تنادي .... أيها الناس .... إني أراكم

شدت قامتها المتعبة مادة يدها تسحب اللفافة وتعود تستلقي بها على ظهرها ، ترنح عنها ما تبقى من لفافة ممزقة .... تتأمل ما حملته اليوم ، وقصاصات مربعة ملصوقة خلف الأغلفة في أعلى الزاوية اليمنى .... وخلال خطه الذي تعرفه جيدا... أرقام فوق خطين متوازيين متعرجين .... إنه هو .... والكتب التي حملتها اليوم .... كتبه هو .... تزيح الكتب المتراصة عن بعضها ، تفرقها .... تتعثر أناملها بحافة غلاف مقطوعة لازالت حوافها قائمة، عاجزة ، مثنية في التواء حزين ، تقلبه مدققة النظر فيه انها رواية ليزا .... تورجنيف .... مجموعة الألف كتاب .... تتأمل قوام ليزا المرسوم على الغلاف ممسكة بزهرة لازالت متفتحة .... ليزا وتورجنيف ومدن هاجعة دار فيها وحيداً شريداً ، وأناس مازالوا على رهن الحياة ولكنهم تواروا عن مسرحها .... ويقين جميلة أنها قرأت ليزا، وتذكرت قلبها الذي انفطر على حبيبها ، واديرة أذابتها على أطراف بلادها البعيدة .... مضت في هدوء وصمت .... عثمان هانت عليه ليزا وقطع غلافا يحمل حكايتها دون أن تأخذه شفقة بها وبمن أحبه

قلبها .... كلاهما مضى وحيداً .... ولم يتركا سوى مقعد قضى عليه الحبيبان أوقات سعيدة ، حال لونه الى سواد والتوى .... ولحظات أتت إلى جميلة تود أن تبوح لنفسها وتشير إليها .... ولكن هل يظل من الخير أن لا نتحدث طويلاً عنها ؟! .... وكتب تناثرت حولها تكاد أن تصرخ لها بأعلى صوت للكلمات فيها.... أنها لم تأت إليها من الشارع الطويل لبيع الكتب القديمة .... بل من بيته هو .... ضغطت على اللاصق الأبيض تفركه بيدها .... فازدادت الأرقام المتخفية وراءه وضوحا عشر جنيهات على خطين متعرجين .... لم يعرفا طريق الإستقامة .... هذه هى الخطوط .... وهذه جميلة .... تسكن حركة يدها عن الكشط بأناملها ، لتزيح دمعة ويرزخ السؤال أمامها:

لماذا .... لماذا .... ؟!!

تمد يدها تضغط على مفتاح النور لسلك متدل بجوارها وتعود العتمة تسبح في فضاء غرفتها .... ومصباح يتراقص في ترنيمة حزينة ترتاح نفسها اليها

الفصل السادس والعشرون

ورقة نقدية

لمعت عين عثمان حين أخرجت جميلة ورقة نقدية فئة العشرين جنيهاً ، مدت له يدها بها؟ .... في ثوان معدودات سافر عنها بعيداً على أجنحة تلك الورقة المهترئة من يد ليد .. وآخرها من يدها إلى يده ....

اعتلت وجهه ابتسامة .... فرحة .... سعادة بعد طول انتظار .... وموعد تحقق وأصبح واقعاً أمامه ، تنبه لنفسه وكم هو مأخوذ بما مدت يدها به .... رفع عينيه إليها وأشاح براحة يده يعلن رفضه

- لا فلتؤجلي الدفع ، إحتفظي بالنقود معك .

الكلام يصل إليها بتتابع منمق كما تعرفه في موسوعة مجاملاته التى لا ينتهي مدها ، يعود ويكرر قائلاً :

- أرجوك ضعي النقود في جيبك

لم تفكر في التراجع ولو لثانية واحدة ، فما قرأته على وجهه لهو كفيل بجعلها تصر على أن يقبض ثمن ما تبقى له من ثمن الكتب .

جاوبته في ثبات :

- أرجوك هذا حساب وحق عليَّ ويجب أن تقبلها وإلا ذهبت هذه النقود في مصارف أخرى.

إعترته نشوة لم يستطع أن يكبحها ، ويده التى بدأت تتحرك تجاهها نحو الورقة النقدية، حيث التقطها وألقي بها في جيب قميصه ، استرد أنفاسه وانتظمت دقات قلبه ، فهو يستعيد بعضاً من ثمن ما قدم إليها من كتب لا تنفك تخايله في صحوه ومنامه ، بل يقرؤها

عبر الفضاء الممتد أمامه ... ناموس الخلود... " نوداروميادزه".... "صاحب الجلالة الانسان" .... "نافخ البوق" " توماس هاردى " الحب الأول تورجنيف "ثمن الدم" " ايفان " يهز برأسه في زهو لذاكرة لا تخيب معه حين يود أن يفتح ملفاتها .... عادت بظهرها للمقعد تنظر البعد الذى أمامها .... وعقارب ساعتها والزمن الدائر أمامها ، وهل ما سيأتيها به ستقرؤه صفحة صفحة .... كلمة كلمة أم أن زمانها سيغافلها ويمضى عنها ، ترحل تاركة كل هذا وراءها لا تدرى لمن ؟! .... لتظل تلك الورقة التي كلما ذكر نفسه بها وذكرها بالمائة جنيه وبأنه سيعيدها اليها ، فهو لم يستطع أن يأت لها بكل ما كتبه تشيكوف من مكتبة راسم ، تقطع عليه كلماته قائلة له في حدة وتصميم :

- لا أريد هذه النقود ، بل ستأتي لي بتشيكوف .

ردها أقام أمامه حاجز الصمت ، يغرس أسفله ناظريه ، غارقاً في حيرته:

- وراسم وقد وافق وانتهى الأمر .... كان بيني وبين حمل تلك الكتب قاب قوسين أو أدنى .... يضم شفتيه محركا رأسه في عجب ودهشة ترى ما الذى جعله يغير رأيه ؟!.... تشيكوف كان ملقى على آخر الرف من ناحية اليسار من آخر زاوية في غرفة تستقبل نور الشمس من الناحيه القبلية .... أسمع صوته ينادي متململاً بين كلماته المطبقة عليها مجلدات قديمة ثقيلة من غزو الزمن عليها ....

ملت استكانتها ، وموات صفحاتها ، وأناملي لا تكف تتراقص في جيبى فأتسل بها أمدها لأسحب أول كتاب ، أجلس منحنياً في آخر الزاوية، أقلب في صفحات تلتصق بأطراف أناملي معانقة ، تودني لو أنطلق بها بعيداً عن سجنها الأبدي في مكتبة راسم ، أرزخ تحت ثقل نظراته المملوءة بالغيظ والتأفف لمنظري المتكوم تحت رف يعلوه تشيكوف

يفرد وجهه يرفع حاجبيه مناجيا أفكاره المتدفقة ....

- رقيق الملامح هو .... قد تحبه جميلة حين تراه ، وتتعلق به ....

يرجع بظهره إلى ظهر مقعده يفرك ذقنه براحته .... كأنه الغريق .... يهدهد هواجسه المرتابة :

- لكنه رحل منذ قرن من الزمان .... وجميلة دوما تحب الراحلين.... تلهث وراء الأوهام المتسحبة خلف ظلال المغيب .... لاأنسى يوم قالت لي :

أنها تحب إدريس .... وبعده كان يحيى حقي من أنشودة البساطة إلى البوسطجي .... ومرة تتجاذبها دوائر الوعي واللاوعي .... رسومات ناجي العلي .... إبحث يا عثمان في صحف القبس القديمة .... السفير اللبنانية على أرصفة النبي دانيال ، كنت قد نسيته منذ زمن .... هي تعود بي الى أزمنة مضت عني بوقت بعيد .... تلاحقني تحفزني لأجل أن أبحث لها عن "حنظلة" هذا الذى تقول ، ومرة

تنطق بناجي العلى .... تذكرنى أن معلوماتى فقيرة عنه حين تقول ....

- أنت لا تعرفه جيداً هو الذي إستطاع أن يرسم بالعظم البشري .... وبحمض الكبريتيك .... ينشر الحياة على الحبال وفي الهواء الطلق....

كلماتها تدب في كياني ثورة كادحين ، مطحونين ، مقهورين تهتف قائلة :

- هؤلاء من يدفع الثمن

يعود ثانية من لحظات سلبت كيانه بعيداً عنها .... يعود ومقاطع وجهه ترتعش يؤكد لنفسه هذه المرة .... هو تشيكوف .... سيأخذ عقلها وقلبها معاً .... تعتصره موجة ألم تسحق نفسه المعذبة ....

- وأنت يا عثمان الجالس أمامها دماً.. ولحماً.. تحيا.. تتكلم.. تقرأ.. تكتب تحمل إليها كلمات الآخرين فترحل بهم بعيداً عنك .... لتتسع المسافات وسنوات الاغتراب والجفاء بيننا .. أنا هنا وهي التي دوماً هناك .... واليوم تشيكوف الذي رحل وترك لنا ما أنا جاثم لأجله تحت رف أمام عين راسم مستسلماً لتقريعاته اللاذعة .... تشيكوف يا حلم جميلة .... يرفع عينيه اليها فتقابله بكلماتها :

- أريد مجموعة تشيكوف .

فيرد بنبرة يأس واستسلام :

- لتأخذي نقودك وننتظر

ترد بعصبية:
- لا أريدها..أريد...
يقاطعها بحركة يده مؤكدا لها أنه لابد ويحضرها لها، فتستكين نفسها بأن تشيكوف ، ملامحه الساكنة على وجه كتاب فوق مكتبها...لا بل يجاور وسادتها وصفحة مثنية على آخر قصة وقفت عندها...وملامحا له لازالت غامضة في مجلدات تضم كل ما كتبه من "فرحة" حين هتف "ميتا" لأبيه وأمه:
- الآن أصبحت كل روسيا تعرفني ...من قبل لم يكن أحد غيركم...وبطة برية لازالت في قاع المحيط... والمرأة التي قال عنها "مغفلة" تشد بأهداب فستانها،تحمر عينها وتملؤها بالدمع،ترتعش ذقنها دون أن تنبس بكلمة مع حبات عرق طفرت على أنفها يقول لها:
- سرقتك.... نهبتك
تقول :
- في أماكن أخرى لم يعطوني شيئا.
ومن بلاد من هناك تمزق سياج ليحكم حصار أشد على جسد وروح جميلة .... وما أسهل أن تكون قوياً في هذه الدنيا !!!.... ودموع لا يراها العالم بين جدران تحجب الرؤيا من خلفها .... قد يكون الفقد...
الوهن .... لوعة وأسى .... شجن من خلف دموع تشيكوف .... تنبه للنادل يمد يده بصينية القهوة ، يمد يده يتناول فنجانه ، تنتظره جميلة في مكر محدثة نفسها :

هو لا يعرف قصة " وحشة " ولمن أشكو حزني.... أظنه كتبها له .... لعثمان .... أو عنه ..... هل أقول له أم ألوذ بصمتي .. فما جدوى أن تضاهي حزنه بقصة كتبها تشيكوف ... تتنهد وتطلق أنفاسها في بطء شديد .... أظنه قرأها ويعرفها من قبلي بزمن ... وهل لأحد أن يصغي إليه ؟!.... ولو أن صدره انفجر وسالت منه الوحشة ربما أغرقت الدنيا كلها ولا أحد يراها .... هل هي وحشة جميلة ؟!.... أم وحشة عثمان هي المختبئة في صدفة ضئيلة؟!.... قطع عليها مشوارها البعيد ليعيدها قائلاً :

- ما بك اليوم ؟!!.... فنجان قهوتك انقطع دخانه وركد البن في قاعه هل أطلب لك فنجاناً آخر ؟....

قلبت ساعتها في يدها تنتظر عقاربها :

- لا وقت لدى ، سيارتي في ورشة التصليح لابد من ذهابي الان.

- جميلة أرجوك انتظري قليلاً وأصغ إلى جيداً .

يحدثها بصوت هامس ويده واقعة داخل معطفه ملتقطاً بها شيئاً ما وفي عينيه لمعة حذر ، حيث أخرج لها ورقة فئة المائة جنيه.

- إليك بهذه أرجوك لا تقاطعيني ، حين أحضر لك تشيكوف سآخذ منها ثمن كتبه ولكن ....

مد يده لها بإصرار عازماً أمره

- رجاء

إكفهر وجه جميلة ووجه لتشيكوف يزداد ابتعاداً عنها وقسماته بدت بعيدة يلفها ضباب المساء ، وتعاسة تسكن عين عثمان لفشله في أن يقدم لها ما يفرح قلبها ....
سيارتها ودخانها المتقاطر بالسواد .... ثقوب صدئة تحيط بصفيحها .... تصلحها ، تعدل من حالها بثمن كلمات تشيكوف .. ورقة لم تحب أن تراها .... ورقة حجبت عنها وجه صاحب الكلمات لازالت غائبة ساكنة في صمتها على رف من رفوف مكتبة راسم ... تزفر جميلة بأنفاسها ، تطلقها بعيداً .... قد تأتيها بالبعيد المسافر عنها هناك ....

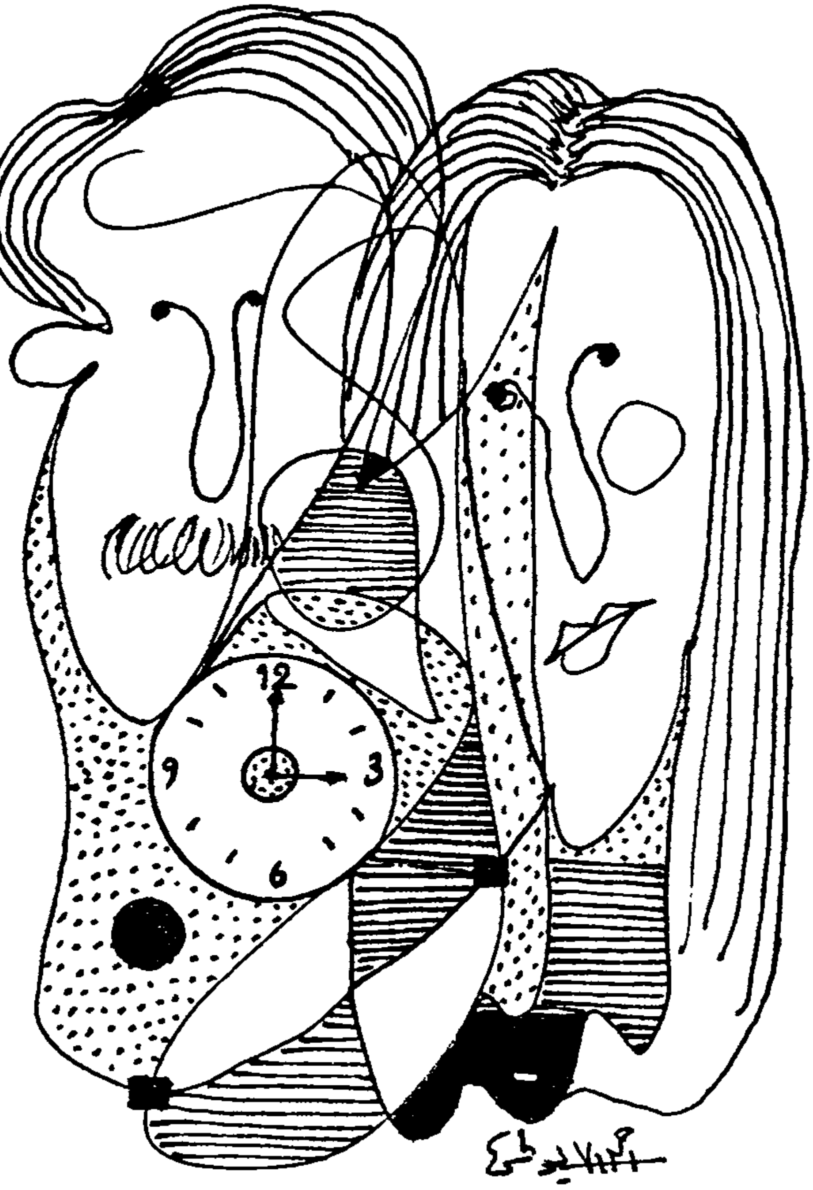
12
3
6
9

الفصل السابع والعشرون

قمر شاحب

لم تعتد جميلة على نبرة الحزن في صوت راسم ، ولم تفهم حالته هذه إلا بعد أن أفصح لها عن ضيقه من أعمال الصيانة والدهان في بيته .... وأن عملية الترميم والاصلاح هذه وطأتها ثقيلة عليه ، فكل شيىء في بيته يصرخ في وجهه لوقف زحف الكتب التى تكاد تغرقهم جميعاً .... تحتل أماكن لهم .... قد تحتوي حاجياتهم ، مقتنياتهم خصوصياتهم .... وهنا يظهر لهم عثمان .... يتردد يوميا على بيت دون الباب والشباك .... ألواح خشبية تحمل مواد الطلاء.... ترفع الرفوف لعودة ثانية .... ولكن من هم أصحاب العودة الأخيرة ؟ .... هل أجاد راسم حسبته .... لم يكف يحملها ويرصها على الرفوف وفي كل مساحة فارغة قد تتسع لها .... منها ما أخذ أيامه وسنين عمره قراءة ، ومنها من ينتظر عسى وعسى .... ولكن هو الزمن بسكينه الحادة تقطع علينا كل طرقات قدْ تؤدي بنا إلى الوصول .... أم أن مسافاتها الطويلة تبتلعنا وتدمي أقدامنا .... وتئد أحلامنا .... تسترق عين عثمان كل عناوين الكتب ، قبل أن تحملها يداه عادياً حيث بيته الغارق في كراتين متراصة .... عين عثمان تقرأ الأسى على وجه راسم .... أسى يفيض بعد احتباسه في صدره سنوات طويلة .... وعين عثمان لا تتوقف عن التسحب على الحوائط والأرائك الخشبية ، تحت الأسرة ، يلتقط بها كل ما يمكن أن يساوم عليه ويقلل من شأنه ، يجلس القرفصاء أمام مجلات مرصوصة بنظام وعناية، تتدلى من على جانبيه أهداب معطفه

الصوفي ، تظهر من أحد جيوبه حواف أكياس بلاستيكيه يدسها في جيوب عميقة لا يعرف أحد مداها ، يمد يده لأول مجلة ، يضم شفتيه، يعقد ملامح وجهه بطريقة مصطنعة يجيد حبكها

- أخبار الأدب !! ما هذا ؟!! وكل هذا يا رجل ،!!!.... أنا سآخذ تلك الأعداد إلى بيتى في الأمان .

يدور راسم في المكان حائراً يود أن يصرخ من شدة لوعته وأساه ، ليعاوده الآخر يكمل يلضم أطراف خيوطه

- حين تطلبهم ستجدهم ببابك على الفور

بدأ ينسل بالكيس البلاستيكي خارج جيبه ببطء مشوب بالحذر :

- إذن أنت جاهز على كل حال بما تحمله

- لم القلق ؟.... هذه أجولة سأحمل فيها مخلفات مكتبتك ، أنا أعرف أننى سأحل لك مشكلة كبيرة أنت واقع فيها ، لدى مكان يتسع لكل هذه الزيادات ، الدور الأرضى ومنه إلى الرابع ، الطليعة الأدبية ، الهلال .... التراث الشعبي العراقي .... هذا تكدس رهيب .

يلقي راسم بجسده على الأريكة المقابلة لعثمان الواقف أمامه قابضا على أجولة .... يطالع النافذة .... قمر مدينته شاحب هذه الليلة ، تعصف بصدره تنهيدة من أعماق قلبه المتفتت على ما جمعه في سنوات عمره الطويلة .... يجاهد ضعفه .... إستسلامه لصوت عثمان الراغب في لملمة كل ورقه من بيت راسم منتشياً

بزهوة النصر .... حين بدأ يلقي بأخبار الأدب فى قاع الجوال حتى جاوز العدد المائة.... ليتوقف ثانية ملتفتا لراسم

- هذه مجلة الأقلام .... عراقية....

عاد يضم شفتيه ويتمادى في رسم الحيرة لمشكلة واقع فيها راسم... وعينه لا تفارق وجه صديقه ليعرف كيف يدق على حبات الفلفل ، يفتتها ، يطحنها ، يحمّلها رغم حرارة ولهيب مذاقها ، يمسك الأقلام بين يديه يقلب فى صفحاتها قائلاً :

- راسم قاربت أن تتآكل صفحاتها .

يرد بنبرة أسيانة :-

- حتى هذه يا عثمان ؟.... اتركها .

- ماذا ؟ أترك مئات الأعداد !! .... أين المكان الذي سيتسع لكل هذا؟!! ....

كان يعلو بنبرات صوته ، يصطنع الانفعال والتعاطف لحال صاحبه وما آل إليه ، فترد إبنته .... إبنه.... زوجته :

- حاجياتنا لم يعد لها مكان هنا .... يجب أن تحل هذه المشكلة في هوجة الصيانة والترميم ....

تقترب زوجه منه قائلة في استعطاف لقلبه لأن يلين لها :.

- حاجيات إبنتنا أين نذهب بها ؟!....

تلمع عين عثمان ، يقترب من راسم هامساً:

- قلت لك كل ما سأحمله من هنا على سبيل الأمانة وأي وقت ستطلب مني أي كتاب سأكون جاهزاً به أمام بابك .

لم ينطق راسم بل عاود النظر إلى نافذته وقمر يزداد شحوباً في وجهه ، فيضفي قتامة على نفسه وروحه ، وعثمان يفتح الأجولة على أفواه جوعى متعطشة لكنوز راسم الملقاه فوق وتحت الأسرة.... وعثمان يلمها على صدره ويلقي بها في قاع الأجولة ، تمتلىء ، فيضم فتحاتها ويربط عليها ، تنتظم أنفاسه حين ينفض راحتيه من تراب قد يكون عالقا بها ، وراسم يجلس مغتالا من شحوب قمر مدينته، وعثمان يرفع أحماله يلقيها وراء ظهره عائداً بها شابا فتياً تدب في أوصاله طاقات لحمل كيلوات فوق ظهره الذي لم تحنه كنوز كتب من مكتبة راسم

****

رفعت جميلة سماعة الهاتف يطلبها عثمان يحدثها بصوت يسمع الدنيا كلها:

- أخبار الأدب .... الأقلام .... الطليعة الأدبية.... الكاتب .... والحياةالثقافية التونسية كلها في بيتى الآن يا جميلة .

ضحكاته تخنق صوته ، يتوازن ليعود يكمل لها :

- أقنعته أنها أمانة وسأردها له في أى وقت يشاء .... ولكن أين ومتى ؟!! ....

قطعت موجات سعادته المتدفقة قائلة :

- تقول الأقلام ؟!!..... هذه مجلة عراقية ....

- نعم لدى أكثر من مائة عدد

- أريدها

صمت

توقف صوت أنفاسه فى أذنها وتبعثرت حروف كلمات كاد ينطق بها.... وحلت مكانها حشرجة صوت لم تعتدها جميلة ، عادت بمطلبها تعيده على مسمعه

- أريد مجلة الأقلام العراقية يا عثمان

وبصوت خفيض فقد وهجه وحدته

- كما تريدين .

- أين ومتى ؟

- كما تحددين .

أغلق الخط وبدت العراق أمامها مغتالة .... مغتصبة كلمات لها ملقاة ما بين ضفتي أمان راسم .... وعثمان .... ثم إليها هي ....

تذكر كلمات صاحبها البعيد .... الغريب .... " مدينة تبتلع الأشياء كلها حتى أحلام البشر من أقاصي القارات " الربيعي ، وأين هو الآن من بلاد المنافي ؟ .... حين تخترق الأجساد الزاحفة عتمة الضباب كأشباح غامضة تزحف نحو وليمة لا يعلم أحد كنهها ، وهل كان يعرف لحظة ما كتب أن وطنه هناك كانت عليه الوليمة.. كأنه الحلم.. قد يأتيه حنان وطن يقتل جفاف أيامه.... يضمه حتى الفناء...

الأقلام أمامها ... تمد يدها وجلة لأول عدد يقابلها ، تقلب صفحاته تطالعها " شحوب القمر " فرحت لتلك اللحظة حين وجدته على صفحات الأقلام ، لم تعد قادرة على أن تبحث عنه وسط الركام .... والمآذن المهدمة .... وأشلاء الجثث .... نزيف الدم .... والمدن الزائلة .... والخراب المقيم .... ومن شحوب قمره يحكي عن بيروت المخضبة المقتولة، مادة يدها مشيرة بالإتهام إلى القتلة كلهم ، بأي هوية جاءوا .... وبأي شعار تاجروا ؟!.... تصيبها تنهيدة .... ترفع عينها لآخر حدود جدار حجرتها

- هل كنت تدري يا عبد الرحمن أن كلماتك هذه هي بغداد الأن .... الناصرية .... الفلوجة .... وأنت الذي أخذتك متاهات المنافي وأكلت قلبك وعدت بطعم الصحارى في فمك ....

قمر شاحب حوط نافذة راسم ومكتبته بعدما غاض لونه الشاحب على العراق كلها ، هل ندير عقارب ساعاتنا جميعنا ليبدأ زماننا من هناك من على آخر سعفة من نخيل العراق.... وجميلة حين كانت أمها تعانقها بعينيها تحوطها ، تضمها لصدرها ، تبعد عنها وجه ابنتها تتأملها قائلة لها :

- أجمل ما في وجهك مسحة شحوب تحتله .

ترد جميلة مندهشة :

- لم أسمع أن للشحوب جمال يا أمي!!...

تضمها إليها بحنو شديد :

- صدقيني يا جميلة

وحين حكى الربيعي عن شحوب قمر في سماواته وخطاياه وبراعته.... وخطواته المترنحة في خوف وشجاعة ....

أنت يا عراقي المولد .... لم تكن تدري .... لم تدرك كل شحنات أفكارك أنك تحمل شحوبا لقمر عراقي من قديم الأزمنة ، وجوها شاحبة في مدينتة بل مدنا قتيلة في عالم فقد الربيع والرجاء .. تجاذبت جميلة وطن لها هنا ، وطناً هناك .... وهل تحزن على صديق مضى ولم يعد .... أم على موطن نازف وأغرقت دماؤه كل نفثات الحياة التى قد تشير بأصابع الاتهام إلى أصحاب القرار .... حين كانت هى الحرب .... حرب تلم فيها الجماجم وتوارى العظام التى رحلت دون عودة.... الأقلام حين حملتها .... تصعد درجات بيتها لم يصبها تعب .... أو إحتباس أنفاس في صدرها .... العراق ستكون في مأمن .... هنا في مكتبتها .... الأقلام في يد جميلة، تقرأ في شحوب القمر .... تستعجلها صديقتها :

- ساعة أو ما يزيد وأنت غارسة ناظريك في تلك الأقلام .

تجيبها هامسة :

- الأقلام .... العراق

هدأت نفسها حين أراحت جسدها على الأريكة والأقلام تستنيم في أمان على رفوف مكتبتها .... والربيعي عائد ولكن في شحوب القمر...

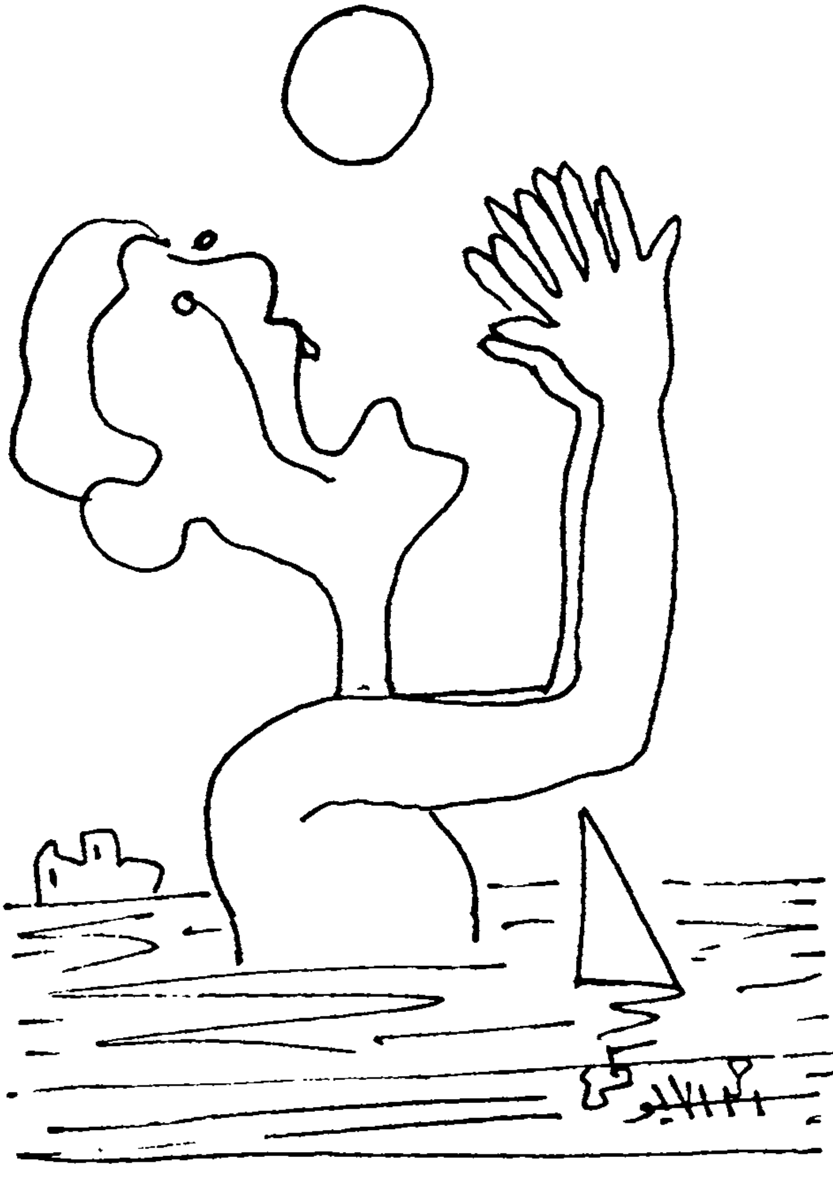

الفصل الثامن والعشرون

حـنظلـــة

ليل يشق قلب القمر ، فيخبو ضوءه .... في ظلمة الكون ، تغتاله أسلاك نافرة ، يتبعثر وينكسر قمر المدينة .... يحوط الكون سياج يلف جسد امرأة من كنعان ، لاتهاب حوافه المسنونة .... تلتحف الأرض ، ثابتة أقدامها عليها ، تمزق حوافه حدقة عينيها ، تتقاطر دموعها ، تبلل شالاً يلف رأسها .... ورسومات كنعان على صدرها.... ومن خلف السياج لازالت تقف على الأرض وعلى خصرها كوفية مسيجة ، تعقدها وتحكم عقدتها .... كوفية تلم ما تبقى من ثوبها الفضفاض .... تستكين أناملها في سلام تحمل زهرة بلون الدم .... ليظل " حنظلة " هو الواقف بجوارها من خلف السياج ، ينظر الأفق البعيد .... قد يأتي إليه بقريته " الشجرة " قد يرد عليه نداءه الشهيد " عبد الرحيم محمود " ....

يطالع قمر مدينته المشطور فإذا هي العتمة ، عتمة تحجب أشكال المدن وطرقات قد تؤدي إلى قرية تدل عليه .... حنظلة من خلف السياج في رأسه قذائف من نار .... خمسون ألف لوحة ولوحة ، من السياسي الشهير إلى المثقف الشهير .... حنظلة قتلته رسوماته .... وماجد قتلته كلماته على أرض المنافي ....

****

من صوت الأمة تقرأ جميلة عن الرئيس ونسائه ، وفي مربع طلي بالسواد ، كتب بخط أبيض " فريدة " والتقاؤها بالرئيس في تونس.... فريدة يعرفها العالم بعد اغتيال رسام الكاريكاتير حين ذكر

إسمها في أشهر لوحاته ليتعلق دمه في رقبة الرئيس و .... تلقى جميلة بالجريدة وتلقي بثقل رأسها على أطراف راحتها شاردة والطريق أمامها يطول وكم من محطات تستوقفها ، تنزف على أرصفة الطرقات ، تستصرخ ذاتها ، تستنهضها أنها لازالت تذكر ولن تنسى حنظلة ، وحين يسألونه عنه يقول لهم :

- حنظلة ذلك الأيقونة التي تحفظ روحي وتحفظني من الإنزلاق....

ليظل حنظلة طفلاً لم تغادره طفولته ، ظل واقفا يدير ظهره للعالم ، شابكا راحتيه وراء ظهره ، وهل ينسى الجميع يوم فك اشتباكهما ورفع صورة لفارس قتلته كلماته ، صورة ماجد الذى قال " لا " ومن عينيه دفقت دمعة تقول " روما " .... حنظلة يا أيقونة الروح حين رسمت ملامح الغريبة على حوائط مرسمك في المنافي ، ونقش لإسمها في قلب كنعان ، حينها ساقوها حيث سراديب وعتمة .... صرخاتها سبقت خطواتها .... قص شعر .... الجلوس في برك آسنة، تتقاطر جرذان المصارف أمامها .... ترنو لها جذعة .... تلمع لها عيون الظلام .... تمد يدها الواهنة تتحسس بلاطاً تشقق ينوء بالحفر والبلل .... عبثاً تجد الغريبة مساحة جافة تجلس عليها .... وهل تسعفها أقلام تعيد لها ملامحها الذاوية .... وأين منها حنظلة في دهاليز الصمت المعتمة؟ !! .... أين منها شاب نحيل الجسد ، أشيب الشعر أدار ظهره للعالم .... لتظل " لا" .... وهو الراحل حيث مخيم

عين الحلوة لازال هناك مزروعا فيه ، واقفاً أمامه تلميذ صغير .... هارب من غرفته الصغيرة يرسم على الدرج

- ماذا تفعل يا حنظلة ؟ ! ....

- هنا أشعر بالعفوية كأني طفل سارح في الخلاء يرسم بعيداً عن ضجيج إخوته

- حنظلة كيف يبدأ التهجين ؟

يرد بمرارة وعين شاردة هناك حيث السياج وأسلاك نافرة مزقت حدقة الصبية

- حين يعترف العالم بي .... تدريجياً .... بالرشوة ، بإرهابي.... إن قبلت المساومة أعطوني أكثر حتى تتم الصفقة نهائياً ، ثم يرمونني كقشرة برتقالة ، أنا لست من هؤلاء .

- ألا تخاف آفات طفيلية قد تنخر جسدك النحيل في المنافي البعيدة ؟

قد أكون الهارب إلى الوراء لأتقدم خطوات إلى الأمام ، في جيبي رصاصة في قلب الفساد .... المساومات .... التخلف .... لن أطلقها على أحد .... دماء لوحاتي غزيرة ليصرخ الجميع معي بكلمة" لا "

تنهض جميلة .... تقترب من نافذة حجرتها يطالعها بائع الجرائد... تفترش الأرض كتب ومجلات .... وأوراق .... والرجل جالس على مقعده الخشبي ، أخذته غفوة عميقة من عقارب زمن هو سارقها ،

تفتح عينيها على آخرهما .... وتصميم ثائر في داخلها، تسكت ثورتها .... تهدىء نفسها بكلمات ....

- هو .. عثمان الذي سيأتي لى بخمسين ألف رسمة ورسمة لناجي العلي .... ويفتش عن طفل يدعى حنظلة ......

الفصل التاسع والعشرون

كمال إسماعيل

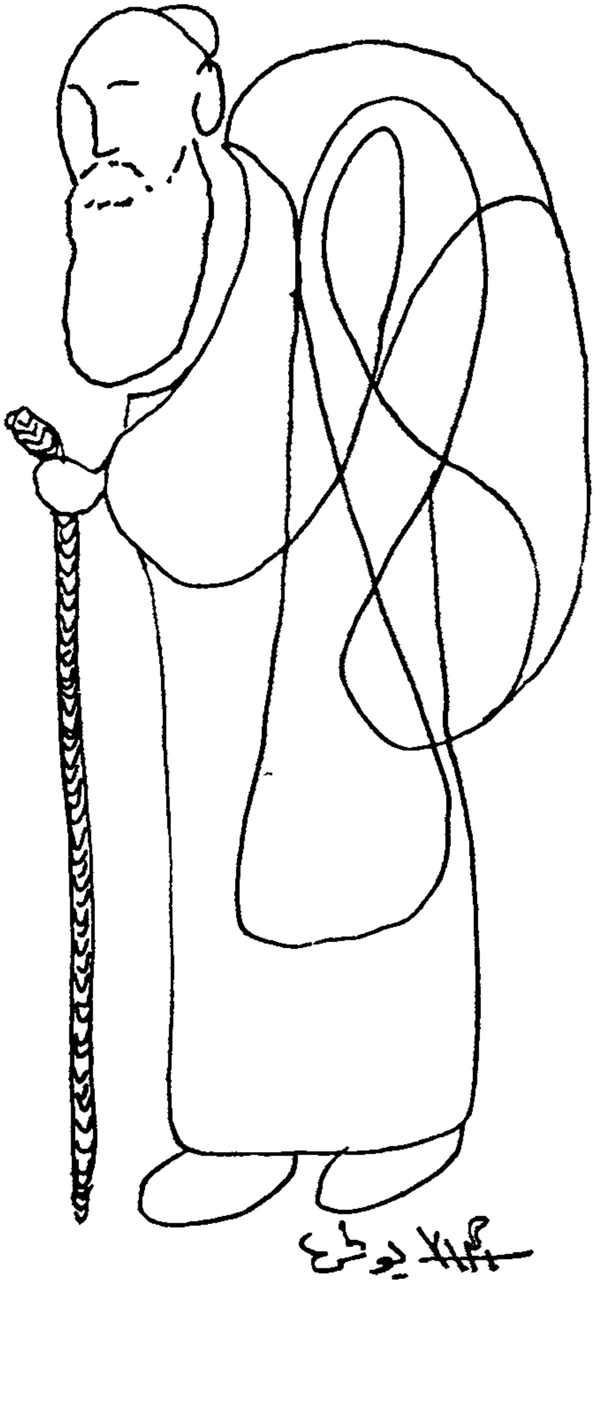

لو كانت تعرف أنه سيرحل قريبا ، لأعطت عينيها فرصة التدقيق في تفاصيله من قرب وبعد .. أول لقاء عرفته فيه في مؤتمر أدباء الأقاليم في الإسكندرية ، مركز الإبداع .. أنوار تضيىء تتوهج من فرحة التجمع بالإخوة والأخوات ، فرحة الالتفاف حول الكلمة ، يومها فتحت خزانتها ، أزت في أذنها ضلفته ، وجديد سترتديه بعد نسيان ، غافية أشياؤها في خزانة معتمة ، تشد منها سترة زرقاء سماوية ، تتخللها نقط بيضاء لامعة ، منثورة عليها .. تتأبط كتبها لتهديها ، وكلمات إهداء تنتقي أحسنها ، فيفرح قلبها .. كان راسم في انتظارها وعثمان يقف على حافة الرصيف ، يتابع حركة السيارات ، وعلى غفلة من أفكاره وتثبيتها ، لمحها تدخل البهو المؤدي للقاعة ، أسرع يقود خطاه اليها ، ينادي :

- جميلة ....

وقفت تلتفت ، فإذ هو يطالعها مهللا.. باشا .. مرحبا ..

- أنا من سيعرفك بأدباء مصر كلهم .. سنوات عمري معهم ، أعرفهم ويعرفونني

وبين لحظة وأخرى استدار من أمامها ينادى باسم كمال ..

- تعالي لأعرفك .. هذا كمال

من وسط الجمع المحتشد داخل القاعة وحولها .. من همس وضجيج وحديث من هنا وهناك.. أشار لها .. اقتربت منه ، يقف أمام وجه تندى بسمرة النيل .. فارع القامة .. حنطته تبوح وتحكي ، وما بعد

قسماته المصرية ، كان جواله الأقرب إليه ، من البلاستيك اللين .. كبير مستدير فوهته تتسع عن قاعها بمرات مضاعفة ، وقماش من التيل الأبيض خاطه من حوله ، أحالته الشمس والترحال الى لون رمادى ، إنحنى ليرفعه عن حدود قدميه ، يحاول أن يتأبطه ، يضم ساعده عليه يضغطه بشدة لينعقد في عقدة واحدة.. نظر إليها كمال ، ولم يتحدث بكلمة واحدة ، بل وقف صامتا ، متحداً بجواله ، أما عثمان فلم يداري فرحة بلقائه قائلاً لها :

- هاتي ما معك ، اعطه لكمال.. كمال اسماعيل هو الاختيار الأمثل لتوزيع كتبك.

وكلمات راسم وتحذيره لها أن لا تلتفت لعثمان ولا تعيره أدنى اهتمام حين يطلب منها كتباً ليعطيها لآخرين ، أحجمت وارتدت إلى الوراء خطوة وعيناها في عيني كمال الذي لازال على صمته ، وعثمان يمد يده قائلاً :

- هاتى يا جميلة ، ماذا تنتظرين ، إنه كمال اسماعيل ، ألا تعرفينه ، أنا سأشرح لك بعد ذلك .

ما بين جفوتها وبين كلمات عثمان إقترب إسماعيل خطوة منها قائلا:

- هات ما لديك ، وأنا سأدق على كل باب من كتاب ومفكرين ومهتمين وستصل كتبك لا تخافي سيدتي

وفي ثوان أنزل ما كان ملتصقا به ليفتح على تلك الفوهة العميقة السحيقة وأخرج لها كتباً متنوعة

- هاك كل هذا ، وأنا لو أعطيتنى ساوصلها لكل هؤلاء

مدت يدها تطالع أول كتاب غلافه أسود والكتابة انجليزية " لن ننسى ..لن نفرط" تقلب فى صفحاته السوداء لتحفر صورا في عينيها لن تموت .. وجه طفل يكشف عن أسنانه .. يصرخ من قلب الحصار ثورة .. وساعد المجند يضغط على صدره ليلف على ساعده الحامل لنعله يضرب به يصرخ .. يصيح .. وآخر تحاصره قوة من رجال الجيش ، فتبرق عيناه بالذعرِ .. فقلبه الصغير لازال يتنفس البراءة.. رائحة الدم لم يعرفها بعد .. ولا دق الهراوات على المفاصل .. تمزق صرخاته فضاء قلبه الصغير .. لم يعرف سواها ولم تمهله الأيام ليعرف أكثر .. وصورة لوجه العذراء متناثر عليه طلقات الرصاص .. ولم تسقط يداها بعد .. تنظر كيف يذبح الانسان!!.... وكيف يعلن عن يوم فنائه وسقوطه .. " حرية التنظيم والأحزاب في مصر " ،"صهيل المحارم "،" أبو الهول يبكي ".. دار الصمت بينهما ، وأدارت هى يدها تفتح حقيبتها تعطيه قلادة من جبل النار .. ألقى بهما في جواله المسافر من تحت ذراعه إلي المنيا .. منصورة .. بحيرة .. سوهاج .. غاب عنها كمال اسماعيل .. وغابت هى في سماء الكلمات والبحث فيها ..

****

باقتراب موعد التسجيل التلفزيوني واستعدادها للسفر إلى القاهرة .. تجهز ملابسها وما يخص زينتها ، خرجت لمحطة سيدي جابر بهية .. مشرقة .. تلتفت الأنظار اليها ، مشغولة هى لساعة الوصول والدخول لمبنى التلفزيون "ماسبيرو" ، تقف على رصيف رقم ثلاثة وسط ملاحقات العيون لها ، تنظر فضاء القضبان ، وقطار آت.. وما هى إلا ثوان حتى لمحت وجهاً من سمرة النيل تعرفه .. ولازالت تذكره .. انه كمال اسماعيل .. شقت طريقها اليه من بين الأجساد المتناثرة على الرصيف .. تخاف أن تنفلت منها الخطوة فيتوه وسط الزحام .. وملاحقة العيون ترصد حركتها .. تتبع سيدة تسرع تتعجل لحظة تودها .. لتقف أمام كمال اسماعيل .. تناديه ..

- أستاذ كمال

يرنو إليها بعين الطفولة البريئة المغلفة بالحياء

- أين أنت ؟!.... غيبة طويلة ، لم لا تأتي لندوتنا عند راسم ؟!.... أرجوك أن تأتي يا أستاذ كمال .

تفجرت من وجهه حمرة خجل لمعت على وجهه فأضاءته .. وهو يحدث من باغتته بالنداء

- قدمي يا سيدتي تؤلمني .. تعيقني .. بيت راسم هو الأقرب لي لظروفي هذه سأحاول الذهاب إليه في باكوس .

صفير القطار وضجيجه قطع الطريق عليها ، وكمال بجواله وحذاء من قماش التيل يلف قدميه .. تغادر .. ترحل .. ويغيب عنها وحلم

لزيارة بيت راسم يعود اليه بعد غيبة طويلة.. يوم دق باب راسم تبين خبطاته التى يعرفها، ومن لحظة دخوله بدأيدور بعينه على أرفف مكتبته ليسأل:
- أين كتب جميلة؟.. أعطني كل ما كتبته لن أوزع منها هذه المرة،بل سأقرؤها كلها يا راسم.. سأريح جسدى وأقرأ لجميلة فقط
يحكى لها راسم عن زيارة كمال اسماعيل له وعن عزة نفسه وإبائه.. يرفض الطعام.. الكساء..كل ما يبغيه كلمات..ثقافة..حياة..تضحك..وتذكر لراسم لقاءها به على رصيف المحطة وأنها السبب فى عودته لراسم بعد انقطاع، يطلب كتب جميلة لا ليوزعها بل ليقرأها...
قال السعداوي الكافوري قبل أن يقدم ندوتها في معرض الكتاب:
-كمال إسماعيل مات.
يحكي لهم وهو يقلب فى صفحات مجلة الأدب، لا يرفع رأسه عن النظر فيها، يهز رأسه متأسيا:
. أنا سأكتب عن كمال اسماعيل.
شخص راسم .. صمتت جميلة..مال برأسه يهمس لها:
- لأول مرة يطلب منى رغيف خبز فلاحى.. ويموت.. هل عرف مذاقه؟!..أم نسيه كما نسى كل ماديات الحياة؟.. هل لحق بكلماتك يا جميلة وقرأها أم غاب عنها؟!..
رفع راسم راحة يده ممسكاً جبينه قائلا:

- وترك لى كتباً غلفها وربط عليها عليها، كان يود أن يوصلها إلى شقيقتك صاحبة جداول دماء..وخيوط فجر..

ردت جميلة بنبرة مفعمة بالدهشة:

- إلى غزة!...

تمتمت هامسة :

- لم يكن يدرك بعد المسافة ما بين هنا..وهناك..

طوقتهم سحابة حزن..وصوت السعداوى يتردد فى اذانهم

- لقد رحل كمال إسماعيل

رحل بعد عذابات المنافى.. رحل من كلمات الثورة يوم أحبها ونادى بالحرية والاستقلال، تبرأت منه اسرته الاقطاعية، ألقت به فى مستشفى الصحة النفسية ثلاثين عاما قابع هناك مع من ذهبت عقولهم وبقيت ضمائرهم..إلى أن عثروا عليه فاطلقوه فى دنيا يعيشها.. لم يعرف الفرش.. ولادفء حوائط البيت..ولاحنين الأبناء.. بل عرف كتباً وكتاباً..مسافر..مسافر إلى أن قطع فضاء كوكبنا ليلحق فى مدارات اخرى..يظل كمال اسماعيل معنى أكبر من معان لازلنا نجهلها..

الفصل الثلاثون

قمر بوبا

في الندوة كانت القصص مستنيمة تحت يد راسم ، يرفع يده عنها حين يشير إلي أحدهم ، أو يحيى آخرين ليعود بها مرة أخرى فوق الكلمات المكتوبة ، تنتظر أن تسمع اسماً لصاحب لها ، يأتيها ليلقى بها على الحاضرين المنتبهين الغافلين ، الصامتين ، المأسورين ، ووجه جديد من النوبة ، رحاب ، لازالت ممسكة بورقتها طى أناملها، لحظات وتطير مسافرة من النوبة تسير إلينا عبر مجرى نهر على عود السيسبان وحكايات تخرج من بوابات الأسطورة العظيمة " قمر بوبا " أسطورة ترفع عنا ما أنهك قوانا ، قد تعيد لنا عذوبة الحياة ، وترد لنا معانيها ، حين سألتها جميلة عن نفسها قالت لها بثقة محببة إلى نفسها :

- أنا المغردة بالكلمات في الشعر وفي القصة

تهمس لها جميلة :

- لتجمعى إرث النوبة في كلمات ، تطلقينها لتسافر تلف الكون من قمر بوبا. والقاص مصطفى زكي نصر الذي إحتار في اسمه حين بلغ الشباب وتبرعمت موهبة القص فيه ، وجد اسما يشبه اسمه .. نصر.. عروبة .. هو أو ذاك..

وراسم يطلب له تسمية ، وأخرى تنوه عن لقب للشهرة في بحر صمته الهادىء .. قد تتشابه حروف الأسماء ، ولكن لكل اسم ولكل حرف إشارة وعلامة .. هو يعرف هذا؟ .. ولو يفهمون معنى صمته لما اقترحوا عليه وسألوه أن يغير اسمه ويحيرونه معهم .. من

مصطفى نصر صاحب رواية "ظمأ الليالي" في ليالي غربال ، يقترب مصطفى من أوراقه المكتوبة بقلم رصاص يستعد أن يفك أسرها .. كلماته شدت جميلة لرجل يبيع أعضاءه .. يداً .. وساقاً .. وفي نهاية الحكاية يبيع عقله .

ضجت الجلسة لقصته ، منهم من راقت له ومنهم منهم أدهشته لرفض كل ما قدمه مصطفى ..

كلمات مصطفى زكي التي حملت جميلة على أرصفة السوق القديم .. تقف تنظر عقل الرجل ومن يكون مشتريه؟.... تقدمت في نهاية الندوة فاطمة زقزوق ورحاب وآخرون يحوطون راسم .. يفتح حقيبته ، يقدم لهم الاصدارات الجديدة ، تستوقفه رحاب وهى تدقق بنظراتها على صفحة الغلاف :

- هذه الكاتبة أعرفها وقرأت لها !....

وقف يتفرس وجهها ، مرخيا سمعه لكلماتها له :

هل أهدتك نسخة قبل ذلك ؟!....

لا أعرفها شخصياً ، بل أعرف أعواد ثقاب ، ولا أنسى غلاف تلك الرواية الأسود ، وذؤابة من نور شمعة أمام سيدة تتأمل فضاءً معتماً يحيط بها .. وكتب تسكن على الحزن والإنتظار ، ومن لحظتها اشتريته وقرأت تلك الرواية قاطعتها فاطمة بلهفة :-

نعم يا رحاب أعواد ثقاب تباع في محطة الرمل وراء بائع الفشار "فشار جوجو" بجواره رجل يفترش الكتب على الرصيف .. هناك رأيتها وأنا معي النسخة الأخيرة ، إشتريتها منه اليوم .

لمعت عين راسم ، وحول نظراته عنهما حيث جميلة ، لا يعرف إن كان يخبرها أم يتركها ؟.... وأنى له أن يحتمل السكوت!... أشار إليها فاقتربت منه قائلاً لها :

جميلة هل تبيعين روايتك في سوق الكتب؟!....

علت وجهها الدهشة ، تاهت .. عادت تحاول أن تجمع أفكارها وتمعن في فهم ما يدور حولها :

- أى رواية تلك التى تسألني عنها ؟!....

- أعواد ثقاب

- أعواد ثقاب !.... لم أطرحها في السوق أبداً ولم أفكر في ذلك .. والأعداد التى في حوزتي تذهب كإهداءات للنقد والأدباء والمهتمين

- رحاب وفاطمة شاهدتا أعواد ثقاب على الرصيف خلف بائع الفشار .

إقتربت منهم أكثر والحيرة تفتك برأسها:

كيف ؟!!....

رد راسم منفعلاً :

انتظري يا جميلة .. تريثي

وقفت لا تصدق ما سمعته ، هل هي الحقيقة أو ما يشابهها ، وما أن إنفض كل منهم إلي طريقه ، وقفت هي وراسم وحيدين أمام قصر الثقافة ، وانفعال لم يغادر وجه راسم ولكنه يحاول أن يواري حالته إلي أن يصل إلي الحقيقة ، عاجلته جميلة قائلة :

هيا بنا

إلي أين ؟!....

إلي محطة الرمل ،إلي محل " فشار جوجو"

الآن !!..

الآن يا سيد راسم

وقف عاجزاً أمام إصرارها ، وخطوات لهما تزحف نحو الشارع العريض المؤدي لمحطة الرمل ، تشقه قضبان حديدية تنزلق عليها عجلات الترام ، تحمل رؤوساً وأجساداً .. لم يتحدث اليها .. ولم تتحدث إليه ، كل منهما في رأسه فكرة تتجاذبه الظنون والهواجس، وهى ماضية تحاول أن تشق لها طريقاً وسط الزحام والباعة الجائلين .. وما يتناثر أمام عينيها على الأرصفة .. يباع ويشتري.. محافظ ، حقائب ، مفارش بلاستيكية ، مرايا ، أمشاط ، ألعاب صغيرة تتقافز في مكانها من مفاتيح تدور فيها .. تفتش بين كل هذا علها تجد أعواد ثقاب ضائعة منها على أرصفة الطرقات ، المسافة الطويلة تقصر وتقترب اللحظة التى تنطق بالحقيقة .. ليس أمامها

سوى راسم الذى يسير متعثراً في حفر الطريق وأرصفة عاليـة .. واطئة .. تقترب منه قائلة :

- هل تشك في أحد ما ؟!....

- فلننتظر ، لم يبق إلا خطوات ونعرف

يظهر لهما قلب المحطة ، في تقاطع الطرق إشارات مرور حمراء .. خضراء .. صفراء .. توصل هنا وهناك .. تمر ويمر من خلفها مبنى البريد المركزي .. وقصة مصطفى زكي حين أدخل كل أبطالها كابينة رقم " ٤ " ولم يغادروها ، إبتلعتهم حكاياتهم وأسرارها .. وما خفى منها .. ورجل يبيع ساقاً .. ويداً وعقلاً .. تسرع خطاها من جانب البريد المركزي فلازالت قصة مصطفى تغلف مبنى البريد .. ولازالت يد الرجل وساقه وعقله قابعة على أرصفة محطة الرمل .. من يشتري ؟!.... ومن يبيع ؟!.... صوت الفرن يعوق تقدمها .. وزحام خلف بائع الفشار .. تقف جميلة غارقة في حيرتها وحبات ذرة محتبسة في وعاء الزيت تختنق به ، يختنق بها ، تتفجر ، ليظهر منها ذلك الجسم الأبيض الهش الذى تفرح له الأفواه ، تقرمشها ، تلوكها مع رشات الملح ، ليحلو مذاقها وسط تأرجح البرميل المعدني الحامل لحبات الذرة المنتفخة ، يلقيها في صينية كبيرة تستدير له، تغرف منها يد البائع وسط أيد ممدودة تتناولها منه، جميلة وراسم تغرقهما المحطة وعيون لهما على كتب هنا وكتب هناك .. يبتعد عنها راسم ، تبتعد جميلة وعيون لهما مغروسة في رصيف

المحطة.. بين أحذية وأقدام .. ورذاذ حبات المطر المتكوم على ملامح وجوه واجمة .. وعين جميلة .. وعقلها .. يذكر أن ليلة ظهر فيها عبدالله تايه عبر شاشة التلفاز ينتظرون كلمات سيقولها .. أعواد ثقاب .. رواية مدينة .. غزة وما حولها .. شخوص تحيا هناك.. فرحت وحزنت ورحلت .. مدينة لهم تشتعل فيها أعواد ثقاب.. تعانقت دمعات لها مع حبات مطر باردة لا تعرف من يتلقفها قبل سقوطها .. يعيدها صوت راسم :

- هل وجدت شيئا ؟....

ترد بصوت يحمل نبرة اليأس ..

- لم أجد شيئا

يتنبه لوقفتهما وحيرتهما بائع الكتب

- هل لكما حاجة أقضيها ؟....

ترد جميلة متعثرة بإجابتها :

- أعواد ثقاب

وصوت راسم يلاحق كلماتها:

هل تبيع رواية باسم أعواد ثقاب ؟....

يقترب منهما أكثر ، يتنحنح .. ينتفخ صدره ، ويعلو بقامته ، ليهبط بها مرة أخرى

أنا أعرف أعواد ثقاب، كانوا أربع نسخ وبيعوا

قاطعة الإثنان :

من جاءك بها ؟....

- رجل يتردد علينا منذ سنوات طويلة نعرفه جميعنا هنا

عاد راسم يسأل وجميلة تزاحمه بأسئلتها :

هل تصفه لنا ؟....

قصير القامة، معطفه يلبسه صيف شتاء .. يأتينا بكتب ويذهب بكتب

وما إن أنهى كلامه حتى عاد ينظر إليهما بريبة:

ما الحكاية .. هل أفهم ؟!....

يرد راسم بلهجة مفعمة بالصدمة :

لا شيء معذرة ، لا وقت لدينا

وقف راسم يتتبع فضاءات المدينة القديمة يتمتم ملء صدره كلمات.. تساؤلات عن مصير كتب وأوراق حملها أناس من بيته .. أدار ظهره وتبعته جميلة ، مضيا عبر محطة الرمل وسط الزحام بصمت يطبق على قلبيهما .. يبيعون أعواد ثقابها ، والرجل يبيع ساعده .. قدمه .. عقله .. وقمر بوبا يحمل مآسيه ، يطيرها ، يذيبها في أسطورته .. ليحملها عبر مجرى نهر من جنوب وشمال ، وكابينة رقم " ٤ " دخول دون عودة .. راسم وخطوات له بجوار جميلة .. خطوات ممزقة تخيطها كلماتهما .. كلمات جميلة .. وشهادة راسم ، بأن في البدء كانت الكلمة

لا تتوقفي يا جميلة .. بل اكتبي ما استطعت من حكايات من هنا .. أو هناك..

الفصل الحادي والثلاثون

ماجد

في طريقها إلى قلب القاهرة تعبر كل النوافذ المفتوحة والمغلقة .. عيدان هائشة على حافة النهر وأخرى منكفئة لأحزان الأمس، وقطرات من ندى لم تستطع أن تغسلها لتصلب عودها لفجر جديد، أشجار نفضت أوراقها تستقبل الشتاء ، ملقية بأحمالها في وجه كل الفصول القادمة ، نقر الدجاج في الطين ودوران البط على ضفة النهر ، وقطط نامت في حفر خمشت لها في الأرض يدثرون بعضهم بعضاً ، أسلاك البرق لازالت مشدودة على الحكايات .. ماضية .. حاضرة .. وأيام قادمة تستعد لحمل أحداثها .. وكأن البيوت تسير أمامها تنتظرها .. تسألها :

- إلى أين تمضين ؟!.....

تترقرق دمعة حزن .. فرح وشوق تمر بها على الجسور الملتفة على قلبها وعينيها .. ومداخن قرى تلقى ما بجوفها من سواد في فضاء المدن المارة بها .. وفضاء لمدينتها يطوف بروحها .. وصبى يقف غارقة قدماه بطين الأرض ، يداعب بأنامله عيدانا شبت لطوله ، عين له تمخر الفضاء المسافر على جوانب قطار يلتهم المسافات ليصل إلى قلب القاهرة .. ملابس تعلقت على الحبال بملاقط ممسكة بتلابيبها لئلا تفوح منها رائحة الذكرى .. تحتضن بعينيها كل المشاهد فحين عودتها قد تهب نسائم تسابقها تمسحها لتأتي بأخرى .. حين يجأر القطار يدوى في قلبها الضجيج ، لحظة دخوله محطات لا يقف لها ، تفزع عيون الناس ، تتقافز نظراتهم المتعبة عليه ..

من خلفه .. من على جوانبه إلى أن يذوي صوته ، يغيب في فضاءات تتلهف لقدومه..

رفح الفلسطينية .. رفح المصرية .. وأين هو الآن من تلك المدينة المدينتين ؟! هل سيصل إليها ليشهد شهبها الدامعة على ورقات الدهر الغارب عنها ؟ .. وحديثه معها ليلة الأمس :

- أغلقت الحواجز ، ومحاصر أنا بين جهتين بعد انتظار ساعات .

وحين عادت لبيتها ظلت كلماته لها تعذبها .. هو الآتي إليها .. محاصر .. ولازال لديه أمل في العبور لقلب القاهرة .. وشهب لها قد يشهد معها سقوطها .. يستبد بها القلق ، يستطير ، يضج بين ضلوعها ، تغادر بيتها إلى مكتب الهاتف ، تطلبه .. يرد صوته .. فيهديها حنين الوطن :

- أهلاً جميلة .

لم تنثن حروف كلماته ولا وهنت روحه من عذابات المعابر ، قطع الطرق عليه وعلى رفاقه ، كلماته المتدفقة وروحه العالية أعادت إليها السكينة وسط ريح عاصفة كادت أن تدق قلبها ، تفوق أمطار ورياح مدينة هي فيها ، تعود إلى حجرتها لتستعد لاستقبال غد.. لازال وسط الحصار .. فلسطينية .. مصرية وكلمات له من (زمن الغياب) .. (في سماء حزيران) .. و(حكاية الريح الحمراء) .. لتسدل جفونها على سكينة أهداها لها .. وكيف تلوذ بسوافي الرمال ..تداعب أطياف الذكرى البعيدة على رمالها .. وكلمات ماجد

تفترش سوافي الأرض هناك .. تطفو فوق مساحات ذهنه، تأتيه من خلف الأسوار " أساس النظرية الصهيونية ، مصادرة..استيطان .. مشانق مؤجلة .. وحز عنق واحد .."
وكيف تشتعل جباليا .. وكيف تصبح "المجدل " .. "أشكلون ؟!.."
وكيف للسوافي الناعمة المنسابة على فراغات الأرض أن تتصلب؟!..

****

على المقهى الثقافي امتدت الجلسات واللقاءات في بلد واحد يتسع فضاؤه لهم .. يلتقون في أرض القاهرة .. يتجمعون .. يتحدثون .. يرتابون .. يتهامسون .. يصمتون .. تأخذ مكانها على أحد المقاعد تسترد عافيتها من وطء أفكار مثقلة بها على طول طريق قطعته لتلتقي زكي القادم من قلب الحصار ، غزة .. ومصطفى الأغا الذي يشبهها من حكاية لها من هنا وهناك .. شاعر الكلمات .. وسجينها.. ومطلقها للفضاء حر فسيح .. وكيف يسأل الشهيد " أسامة النجار" لو كان يعلم أن القتيل سينحني حتى يصافح قاتله .. وهل أخبرته السنبلة أن الذين سيخرجون من الجحور ليمتطوا ظهر الخيول الصاهلة .. وهل أخبرته السنبلة كيف توضأوا بدموع أطفال الشهيد.. مصطفى وقسمه للشهيد .. بحبات التراب المستريح على دمه .. سيعيد ترتيب الفصول كما أراد لتعود القافلة ، وكلمات مصطفى لها حين حدثها بالأمس :

- سأراك يا جميلة ومعي لك هدية ، كوفية مسيجة وعلى أول خيوطها المغزولة وجه لماجد مطبوع عليها .

ومع اقتراب لحظة اللقاء ، يظهر لها زكي ، فتعرفه .. تنهض من مقعدها تتجه نحوه قائلة بصوت خجول :

- زكي العيلة ..

- جميلة .. أهلا .

- حمداً لله على سلامتك .

يصافحها بيد ، وبأخرى يحمل إقتلاعاً من هناك .. وحبات قهوة مطحونة تحمل نسائم غزة الغائبة .. تجمعهم طاولة ومقعدان وحكايات لشرفاء .. جبناء .. وحديث لا ينتهي وكأن هذا الوجه تعرفه منذ سنوات طويلة والتقت به بعد غياب .. إلى أن ظهر مصطفي يلف على رقبته كوفية .

- أهلا

- يا مرحباً بجميلة .. قبل كل شيء إليك الهدية .

مدت يدها تتناولها مشرقة الوجه ، وبادر هو بالجلوس ، وما إن استقام على مقعده حتى مالت عليه هامسة ، تمرر راحتها على وجه ماجد المرسوم بخطوط سوداء تحوطه سنابل قمح تقول له .. " حي أنت في ضمير الشعب والثورة " تنظر إليه ، لتعود تطالع وجه مصطفي

- أنت لم تأتِ لي بها .. بل هو ماجد .. وأنت حملتها أمانة .. هو صاحب الهدية .

صمت مصطفي ونكس رأسه مسدلاً أهدابه ، ولمّ راحتيه في عناق ، ليسود صمت يزيحه سؤال زكي لها :

- إحك لي عن الوالد وعلاقته بماجد ؟

شخصت في فضاء المقهى كأنها تسترد كلمات قد تذبح أنفاسها حين تبعثرها مع الريح الحائمة في فضاء القاهرة .

- حين يحكي البعض ويتوعد .. أنه سيجعل غريمه يبكي بدل الدمع دماً .. أنا من رأيت الدمع يذرف دماً .. وكيف تحول بياض عينيه إلى بحيرة دماء فاضت مع روح إبنه .

أسدلت أهدابها لا تكاد تنهض بهما ، تعيد كلماتها متمتمة :

- أنا من رأيت الدمع يذرف دما .

وما إن رفعت عينيها لوجه زكي لاحت لها من خلف زجاج نظارته غلالة رقراقة من دمعة تخاف أن تتدفق حياء أمامها .. توقفت أمام دمعة لم تغادره ، أدارت وجهها لمصطفي وحكايات من قصائده المنثورة علي أرصفة الغربة.. هل له أن ينسى لون الدم وطعم الجرح ورائحة الموت القادم واعترافه أنه يتسول في الغربة كفنا؟.. وعرافة تقرأ طالعه وتقول .. ستعيش طويلاً ، لكن ستموت غريبًا..

ما كان أمامها إلا أن تغير وجهة الحديث

- هل لنا أن نتجول في المعرض

ينهض زكي قائلا :

ـ تعالي معنا إلى الجناح الفلسطيني .

بدأ مصطفي يلم ما يخصه من كتب ، وجميلة تزيح مقعدها لترافقهما، ما إن وصلوا عتبة المدخل حتى طالعتها الموسوعة الفلسطينية .. فرحت لأنها حصلت عليها وهي أول ما تنظر إليه في صباحاتها ، والمفاجأة أنها وجدت أربع مجموعات أخرى تتبع الموسوعة ، مدت يدها ترفع إحدها إليها ، لتمتد يد زكي تستله من بين يدها يقلب صفحاته سريعا ، ليشير إليها على حرف الميم قائلا :

ـ انظري ماجد في هذه الصفحة ..

أشار لها .. وكوفية تحوط رقبتها طبعت عليها صورته .. وعين لها تلتقط أول كلمات كتبت عنه .. كاتب ومناضل (١٩٣٦ ـ ١٩٨١) وآخر كلمات .. اغتياله في صبيحة يوم ٩ / ١٠/ ١٩٨١ ، روما .. نقل جثمانه إلى بيروت ودفن في مقابر الشهداء فيها.

أشار لها زكي .. وتشير هي أنه معها .. يحضرها دوماً ولم يفارقها .

الفصل الثاني والثلاثون

محطة راسم

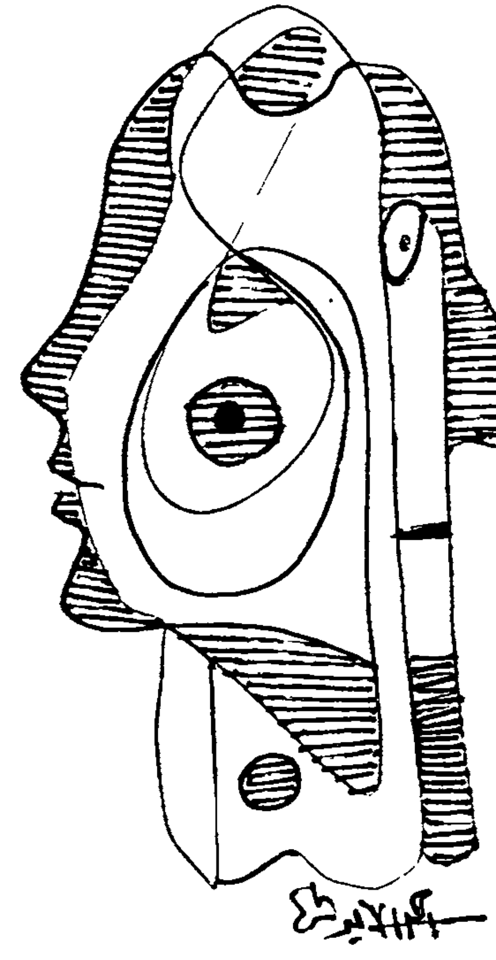

حين هدأت النسمات البحرية فاستنامت موجات البحر لها ليعلو صوت جهاز المسجل، تجمعت الصبايا حول النغمات المتصاعدة إلى آخر حدود اليم ، نغمات لا تطرب لها نفس جميلة، تلم لها جسدها من طرف الأريكة يزداد ظهرها التصاقاً بالجدار ، حاجز خشبي يفصل بينها وبين الشاليه المجاور ، تضيق فتحاته أمام مد نظرتها للبعد ، تتسع لمشاهد تراها لأول مرة .. أنوار جيرانها بريقها كريستالى ، تتطاير مفارشهم الملونة والصبايا يجبن مرحات في الأماكن القريبة منها ، كل واحدة منهن تفرغ ما يثقل صدرها في أذن صاحبتها ، منهن سافرات ومنهن محتشمات ، تلف مناديل حريرية رؤوسهن بأشكال مختلفة ونغمات صاخبة لأصوات متزاحمة لم تتوقف ، كلمات أغنية تحمل كل أدوات الرفض .. يقول لي

" لا .. وأنا أقول .. آه .. "

صوت صاحبة الأغنية يثير كل الغرائز الساكنة يوقظها ينتشلها من ركودها إلى الشهوة المتأججة في كل واحدة منهن ، يهتز جسدها كما المغنية ، ورقصاتهن خلف الستائر المسدلة لمكان يبتعد ينأى عن العيون ، متشحات بالأقمشة ، إبتساماتهن تحمل الدلع والولع ، مصفقات في غنج ودلال .. تذكر يوم راسم حدثها عن المرأة الجالسة في ركن قصى من السوق القديم ، تهمس لهاتفها النقال وهو واقف بين أكوام الكتب يبحث عن كتب وكُتاب ، قد يدخل الفرح إلى قلبه حين يأفل خط العودة ، همسات المرأة لهاتفها النقال تصب في أذنه

وشمس تصلي وجهه ، ذرات عرق تتوسله أن يبتعد يتوارى خلف مظلة ، شجرة ، سحابة .. وقلبه يكاد يتوقف لأناتها ولوعتها ".. لم أعد أستطيع البعد .. أتمزق لغيابك .. لم أعد أقدر.."

وراسم تتثائب غرائزه .. تنقلب لوثبته .. لتكسير كل القيود .. وحين التفت لم يجد سوى امرأة مغلفة بالسواد ، وصوت آت من أطراف ردائها أشعل في جسده الحرائق .. يتلفت مستنجداً من الحريق .. ألقى بالكتاب .. عبس لها مستديراً نحو خط المترو يلقى بجسده فيه.. قد يرتاح بعد عناء رحلته الطويلة

الفصل الثالث والثلاثون

حبات العسلية

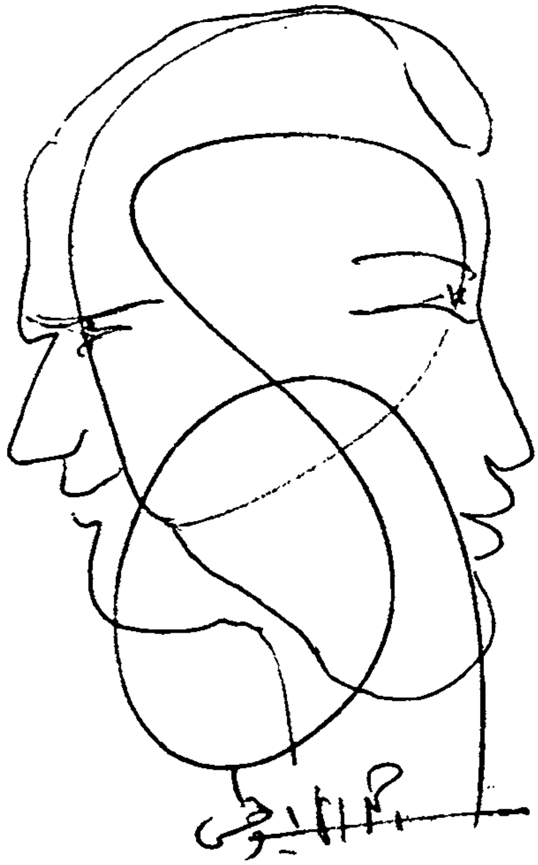

لم يحملها راسم إليها اليوم، كانت تتخيله وهى تنظره على ناحية الطريق يدس يده في جيبه يناولها حبة العسلية ، تنزع عنها غلافها الشفاف، تلتقمها، تحتار أين تلوكها بين الضروس الخلفية أم أسنانها الأمامية، تلتصق بأحد ضروسها ، فتخاف أن تعاكسها فيخلع معها ضرسها ، فتصبر عليها، يحدثها عن الندوة وما حدث ويحدث فيها، إلي أن يذوب العسل في فمها، فتنكشف حبة السوداني المدفونة فيها، تلين أسنانها لها تأنس بمذاقها، تأخذ أنفاسها لتجد يده ممدودة إليها بحبة أخرى، سادر في حديثه عن ندوته ما بين هذا وذاك، يدق قلبها للحبة الثانية وكيف التعامل معها داخل فمها .. اليوم جاء في موعده دون حبات العسلية حدثها وحدثته دون مذاق لحبات العسلية وتبدأ الندوة ينعقد مجلسها يديرها راسم والورق أمامه وأديب بجواره .. تبدأ القصة يغيب السيد راسم بعيداً مع أحداثها، يغمض لها عينيه ليسمع بقلبه باكورة عمل لأديب ، وجميلة في زاويتها وفي يدها مفكرة صغيرة تكتب فيها عن حبات عسلية لم تأت إليها في هذا اليوم، تنبهت لحشرجات حنجرة تتضخم لتذوي، تلتفت نحو مصدر الصوت ،أدهشها ما رأته منه، يبصق على بلاط القاعة، يحرك عليها قدمه ليبسطها فتفترش مساحة كبيرة تتسع لقدميه ويخفي معالم كانت لها، رفعت عينيها تدقق في ملامح وجهه وكيف يلف ساعديه على صدره متجهما للحاضرين بنعليه المستقرين على بصقة أذابها .

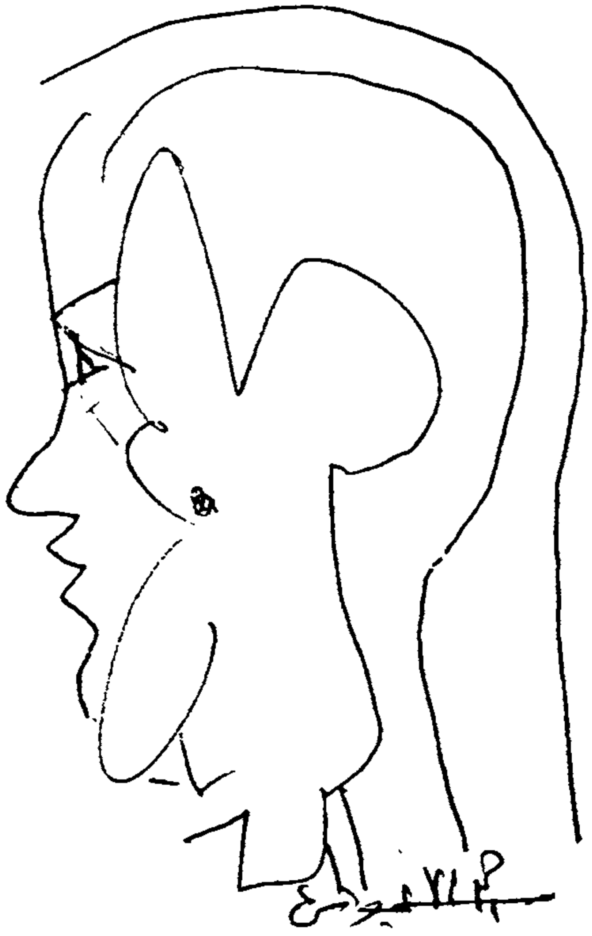

الفصل الرابع والثلاثون

عتبات .. وقصور

كان الهواء غربياً يحمل موجات تتقدم نحوهم باتجاه الشاطيء، المجلس حول مائدة عامرة بأنواع فريدة من الأسماك ، تمد يدها للصحاف توزع منها على المدعوين ، تسمع تكسير عظام ولقيمات تمر لتمضغ وسط الكلمات.. حديقة القصر الملكى الذى كان يوما له محافل وتاريخ .. تسمع وقع أقدامها كل صباح حول القصر تمشى وسط أطياف الطيور وترنيمة حزينة تتلقفها أغصان الشجر تهتز لها وتميل الفروع وقد ثقل حزنها .. وسكان رحلوا دون عودة.. شبابيك مشرعة ، مصابيح نحاسية مدلاة تحركها الريح فتسير معها في صمت .. خلت السلالم الرخامية من وقع أقدامهم عليها ، ولم تعد تنتظر من يعتليها أو ينزل درجاتها ، وراعي الزهور يمر وبيده سعف نخلة يمر به على الأسفلت ليلم ما تساقط من أوراق لا تعرف هل هى خريفية أم صيفية ؟!.... همس البستاني لها :

- أين الرفيق ، تمشين وحيدة يا بنيتى

تود لو ترد ، ولكن صوتاً بداخلها يقول :

لست وحيدة فأصوات أهل القصر أسمعها ضحكات .. صمت .. دموع.. قهر .. رحيل .. طفولة .. حياة

تعود حاملة الصحاف الفارغة تضعها في الزاوية ، تفسح مكانا لأصناف أخرى من الحلوى ، وحديث من حولها لا يتوقف :

- هذه شاليهات مهجورة ، لم يعد يرتادها أصحابها نتمنى شراء أحدها

يقضم ويلوك ، يرفع السمكة المشوية ليضعها أمامه في صحفته ، مشيراً لهم بيد مضمخة بفتات من لحم الأسماك

- هذا شاليه يتبع القنصلية الروسية ، محاميهم يود التخلص منه والاتفاق مع عميل يدفع له ، ويوقع هو بالتنازل دون علم الروس ، وحين يصل الأمر للقضاء له ألف طريقة وطريقة ليمكن من وقع له من حيازته

يرد صديقه :

- هل هذه مجازفة ؟....

- لا أبداً ، أنا لو في محلك لفعلتها

يهز له الآخر برأسه وسمكة لم يجهز عليها بعد ، نطقت جميلة

- الروس يباعون ويشترون !!!.... بالأمس من كان يجرؤ ؟!!.....

تنهدت مسافرة بعينيها وراء الغمام

الفصل الخامس والثلاثون

مصرية .. أمريكية

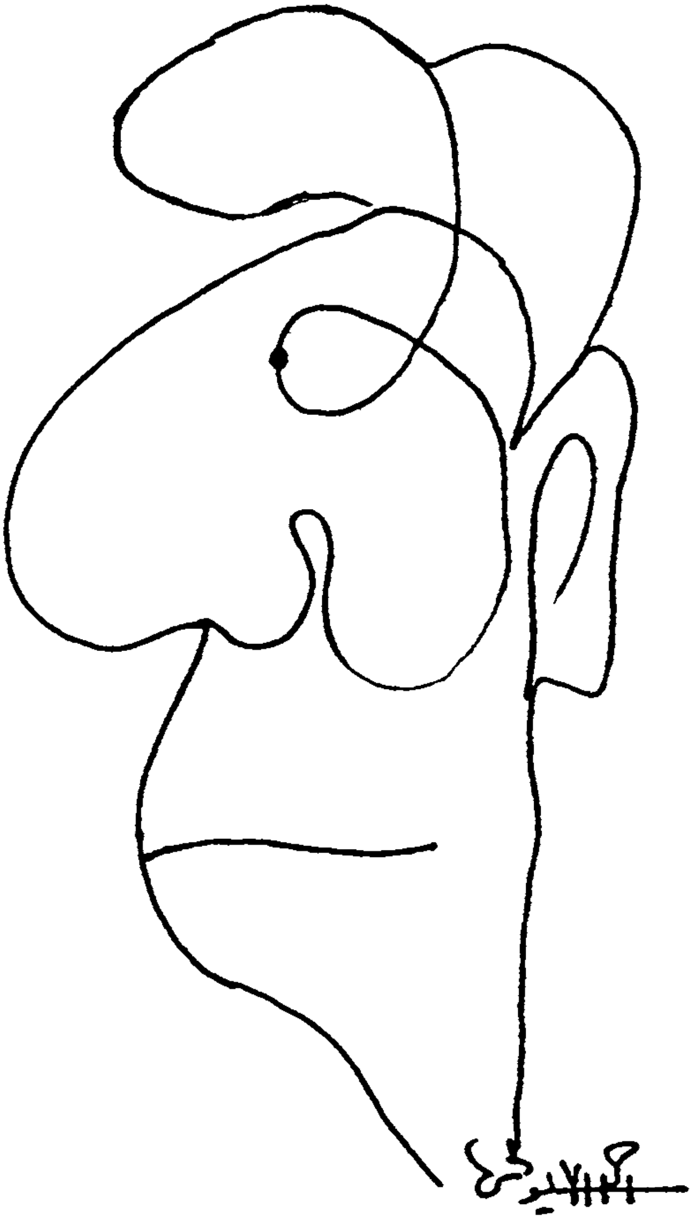

نقرات يده على باب حجرتها لازالت صغيرة رغم شعيرات بدأت تطوف بوجهه وأسفل ذقنه ، وشارب بدأ يطل مستحيا في رسم حوافه وخطوطه أسفل أنفه ، ووشوشاته لها بين الحين والحين ، وأخذها من يدها إلى حجرتها ، ويلتف ليغلق الباب ليطمئن أن لا أحد ويستمع لما يقوله :

- اليوم أريد أن أحلق شاربى ، أرجوك يا أمي أن توافقي ، كل أصحابي يستعملون آلات الحلاقة ، وحان الوقت لأفعل مثلهم .

تجلس على حافة سريرها تتأمل وجهه وهو يحدثها بملامح تنضح بالجدية ، يقترب منها أكثر ، يشير لها بإصبعه على وجهه وشاربه ، فقد توافق :

- اصبر قليلاً ، لم العجلة ؟.. لازال شاربك ناعماً خفيفاً ، لا يظهر منه سوى ظل باهت .. ولو فعلت مرة ستصير تحلقه كل يوم أو يومين ، وأنت لازلت صغيراً على هذا العمل اليومي ، لن يحدث ما يضير لو تأخرت عن رفاقك قليلاً ..

ويدور عائداً بفتح الباب، يمضي عنها وكلمات الإنتظار تقوده إلى المرآة يطالع وجهه من الأمام ومن جوانبه ، يمد يده يشعل الضوء يعاود النظر والتدقيق في وجهه ، ما إن يقترب حتى يبتعد ليمضي في دائرة الترقب والإنتظار ..... لا تكف نقرات يده على باب حجرتها، يساررها .. يحكي لها ما يخصه وما يخص غيره، اليوم أتى اليها وهو يحمل حقيبته حاني الظهر، شارد النظرة .. ألقاها وبدأ

يفتش عنها في مطارح البيت وأخيراً هي أمامه في حجرتها ، خلف مكتبها .. تكتب .. تقرأ .. ترتب .. لقد إعتاد ما يراه منها .. وإعتاد أن يلقي همومه علي عتبة حجرتها .. إلتف بجسده كما إعتادته ، يغلق الباب ويحكم إغلاقه:

- إسمعيني يا أماه

رفعت عينيها نحوه ، وشعور من الدفء يسرى إلى وجدانها .. فلا زال هذا الصغير يدق علي بابها .. ولازال يمد يده إليها يحتاج لنبضات قلبها أن تصل إليه

- هناك مشكلة

تركت قلمها ونحت أوراقها جانباً .. ترفع راحتها تسند رأسها علي حافتها ، تدقق وتركز فيما سيقوله لها :

- يريدون حضورك إلي المدرسة غداً

- هل عدت مرة أخرى للشجار ؟!..... وهباتك التي أعرفها لنجدة أحد من أصحابك

- لكن ليس بالصورة التى تظنينها ، اليوم وقع على ظلم ، وأنت التى سترفعينه عني حين تذهبين إليهم وتتفهمين ما حدث ، وأعدك أننى سأبتعد عن المشاحنات بعد ذلك ..

لم تنطق إلا عيناها بالملامة والعتاب ، مع الغد كانت معه تعبر من خلف بوابة المدرسة المزروعة في أرض الوادى على أطراف المدينة ، تقترب من إسم المدرسة اللامع تحت وهج الشمس بأحرف

إنجليزية ، كل شيء جديد فيها ، وبعض أجزاء لم يكتمل بناؤها .. جلس بجوارها في قاعة الضيوف ، أبواب تفتح وتصفق ، معلمون ومعلمات ، دخلت إحداهن تتبختر في سمنتها.. لكزها ولدها:

- أمي هذه مدرسة العلوم .. هي لطيفة معي

تنبهت أن تنهض من مقعدها وتحييها ، تتعرف عليها عن قرب ، وتسمع ما يخص بعضا من أمور إبنها

- صباح الخير

وقفت لها تتلفت وتدقق

- أهلاً

- أحب أن أسأل عن مستوى ابنى في حصة العلوم ؟....

التفتت نحوه في جمود وكأنها تقف أمامه لأول مرة :

- معذرة أنا لا أتذكر الاولاد .. في أى فصل أنت ؟

- العاشر

- لا أستطيع التذكر معذرة

ومضت عنهما ، وأوصد باب من ورائها ، واقفة هى وابنها في البهو ، حيث أعادها مرأى ما حدث إلى هناك ، إلى نجوم تألقت في سماء حياتها التعليمية ، فأضاءت روحها ووجدانها .... " فؤاد عيد" مدرس اللغة العربية وكيف علمها القاء الزجل .. وترنمت بمخارج ألفاظه في أبوة أحاطها بها .. " سليمة أبو عبسة " رسمت على اللوح خريطة واحدة لوطن واحد من لغة الضاد ، وكيف

يجوبـون الأقطـار وعواصـمها مـن خريطـة ترسـمها فـي حصـة الجغرافيـا، ولا تنسـى يـوم سـألت زميلتهـا عـن اسـم عاصـمة" الجمهورية العربية المتحدة "

جاوبتها في ثقة :

- جمال عبد الناصر

ضحكت سليمة وضحكنا .. ولكن ظل هذا الاسم هو مغزى لكل ما حدث ويحدث ، صار هو العاصمة لكل العواصم حين تبتعد ويغلفها الضباب يكون هو الدليل الذى يدلنا من هنا .. وهناك .. وكانت تحلم بمدرساتها .. بنجوم تسطع في سماء قلبها وتسأل :

- هل يلبسن ويأكلن كما نحن ، وهل ينمن في فراش كما نحن

لازالت تذكرهم ويذكرونها ولكن ما الذي حدث اليوم ؟!.... هي لا تعرفـه .. هو يعرفهـا ، يتلقـى منهـا علمـا .. وهـى لا تعرفـه .. ومـن هناك.. من شوارع غزة .. ومدارسها معروف الرصافى .. إبن سينا.. إبن رشد .. الشهيد مصطفى حافظ ..

مضت في ممرات تأخذها حيث الطريق المفتوح خارج المدرسة .. التفتت وراءها تمعن في لافتة تبرق تحت وهج الشمس .. مصرية أمريكية

الفصل السادس والثلاثون

حافة الليل

أضاء لجميلة هاتفها النقال بأرقام لا تنساها .... تضيء من هناك، حيث حدود وطنها المرسومة من مداد الثورة في عينيها .... في قلبها .... في دمها

- من ؟

- عز الدين

- يا لها من مفاجأة !! ....

كاد أن ينطق قلبها .... يا ليتك تصدق يا عز الدين أن شريان الحياة يبدأ من هناك .... حيث أنت وهم

- دوما أنت في البال يا جميلة .... أتحدث اليك اليوم بالتحديد لما قرأته في جريدة الحياة الثقافية فى ذكرى ماجد في يوم إستشهاده من هذا الشهر

صمتت جميلة .... بدأت تدور بعينيها تفتش في مكانها عن شيء .... بل أشياء ضاعت منها .... الحياة .... ماجد .... عز الدين ....

تداركت نفسها قائلة كمن يجاهد على إبقاء اللحظة .... لحظة حية.... نبض حياة

- كيف ستصلني هذه الجريدة .... ؟

- لا تقلقي سارسلها لك عبر البريد الألكتروني .

ويعود إليها ماجد ، وكلمات كتبها ، ويعود صوت عز الدين وأصوات كثيرة من حوله في حركة لا تتوقف

- كيف حالكم ؟ ....

- إعتدنا على ما نحن فيه .... أصبح جزءاً من حياتنا اليومية

- عبد الله . ..

وقبل أن تكمل باقي سؤالها جاوبها

هو بخير ، لا تقلقي ، كنت بالأمس في مخيم جباليا ، تحدثت معه ، الأوضاع جد صعبة .... ولكن نعيشها ....

قاربت الكلمات حافة النهاية وباقات مهداة من التمنيات وأحلام فراشات لم تحط بأجنحتها على ثنايا الأثير ، انطفأت شاشة الهاتف ، وسكت صوت عز الدين .... وغرقت هي في صمتها الموحش ، حملت حقيبتها ، ألقتها على كتفها ومضت تدق الأرض بقدميها .... ترفع رأسها لإهتزاز أغصان الشجر وشمس تخترقها لتنغرس خيوطها فى الأرض تحت قدميها .... وشمس يوم لن يموت .... ووجه أخيها الساكن في اطار معلق على حائط بيتها هناك....وكلمات " أحمد دحبور " حين تحدق إلي صورته تكتشف أنه يبعد عنك ثلاثة وعشرين عاماً ؟ وهل تستطيع أن تنتزع هذا اليوم التاسع من أكتوبر فلا يكون الحدث الكبير قد حدث ؟ .... وهل يكون ماجد وصل إلي هذا العمق من الحياة ؟

تتقدم جميلة بخطواتها حاملة أوراقها .... اقلامها وقراءات من كتب من هنا حيث حافة الليل .... " أمين ريان " .... وصلاته لحتحور والقدر وهو .... وليل ينجلي له من قلب الزمان البعيد لتولد أحلام غده المفقود .... وكلمات أحمد دحبور ...." حين رأيته أول مرة

قبل ستة وثلاثين عاما في جبل النويبده العماني لم يترك في نفسي الأثر الذى يتركه القادة العسكريون والسياسيون ، لم يكن محاطا بالبريق أو الغموض ، كان من البساطة إلي حد تظن معه أنك عثرت به على الطريق وسرعة بديهيته المشفوعة بسخريته الذكية تضعك أمام رجل ذى مشروع ، يقصد أبعد ما يذهب إليه الكلام .... يجامل حتى تظنه أخاك الصغير ، حتى إذا اختلفت معه أظهر حزماً وعناداً غيرعاديين ، وحين يقترح عرضا أو فكرة ما ، فلا ينصحك عارفوه بالاعتراض عليها ، لأنه سوف يفرضها بإصراره العجيب ...."

صوت عز الدين يحتل أذنها ويثقب فؤادها .... ماجد والحياة.... ماجد ويوميات مقاتل على حافة الليل ..

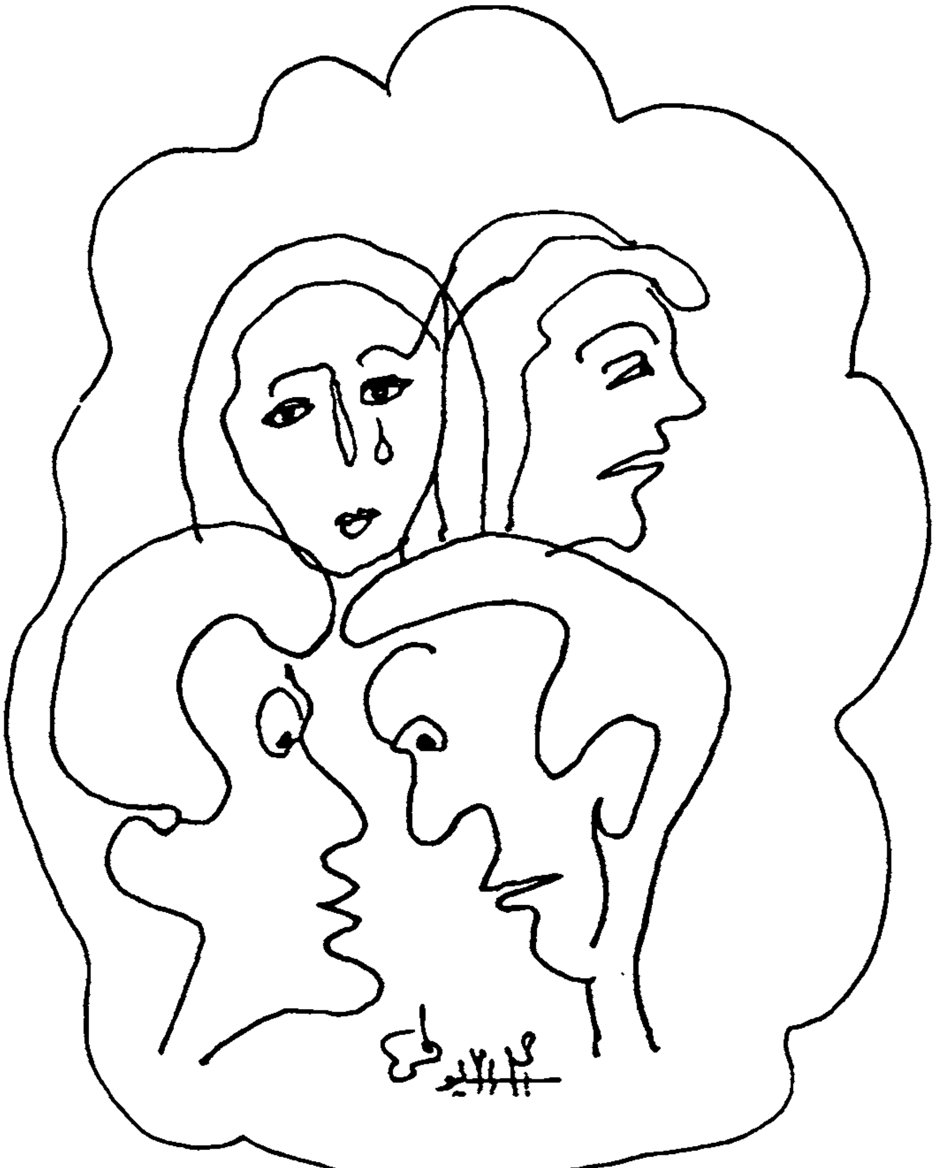

الفصل السابع والثلاثون

أذكرك دوماً

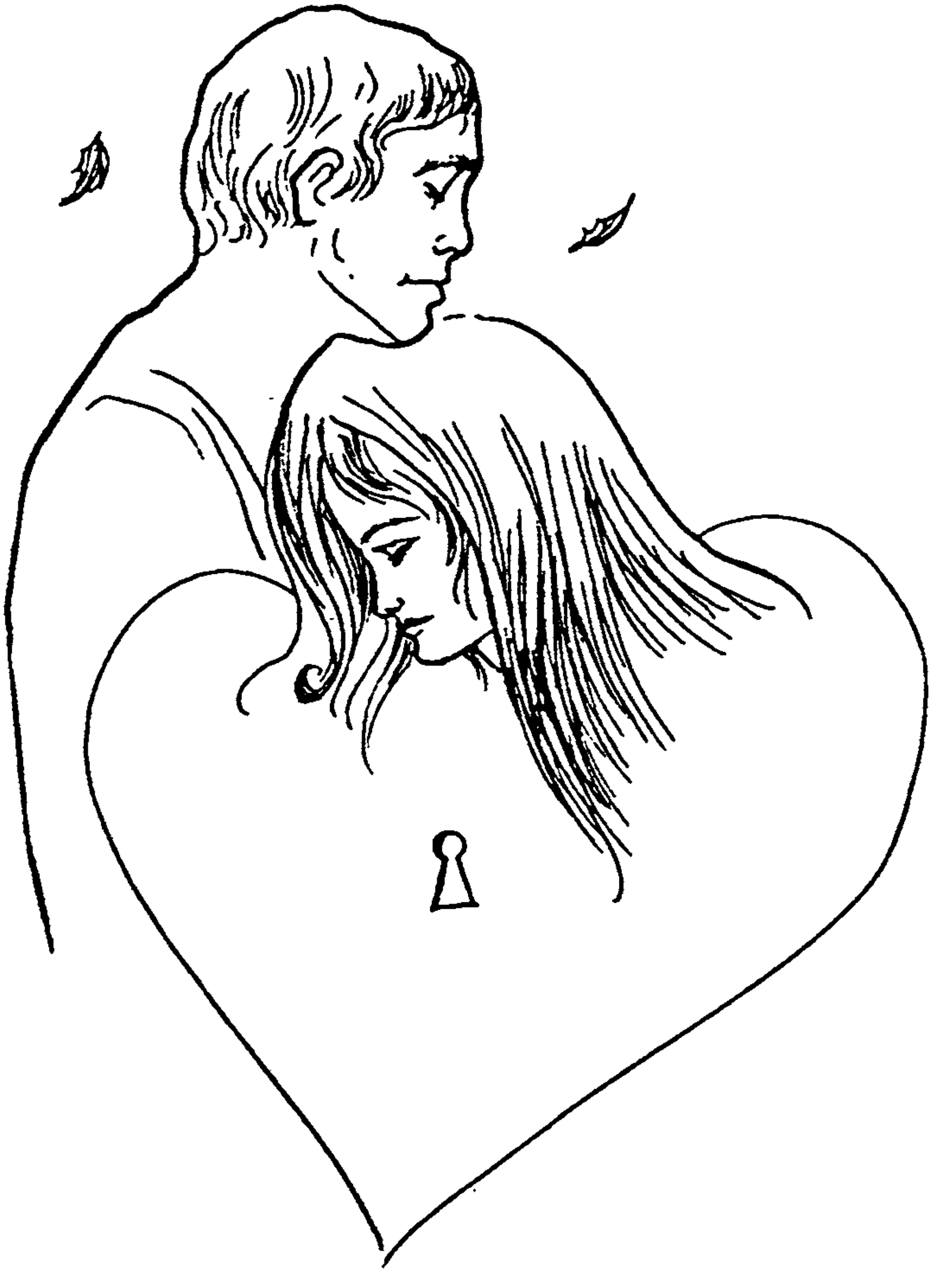

في ليلة لمها النوم، أن الجسد:

- أحان وقت الرحيل؟؟.. هيا انهضي قد تلمنا عوالم بعيدة، تتوق إلينا..

تحرق وجنتيها دمعة، تثقل راحتها عن لمها، يرن جرس الهاتف، تنتبه للزمان والمكان.. تعاند.. تقاوم.. من بين أوراقها يظهر لها اسمها على ورقة تتوسط كلماتها:

عاشقة أبدية أنت لكل ما هو جميل.

دمعاتها تقطر على جبينها حارقة.. تبكي، هناك ما ضاع وما سيضيع. لم يبق منها إلا نبرات صوت مذبوح، منه تعويذته، مرفأ يضمه على شواطئ بعيدة، أنفاسها تصلة هناك، ترنو أفق المغيب، علّ وراءه فرحة نائمة!..

من حكايته معها يغزل أسطورته.. همس لها:

- فلتلق بجدائلك على صفحة الماء.. تلمي شمس الغروب.. تلوذي بها من العتمة.

وضباب هارب من وضح النهار، تشهد تسربه ما بين الأغصان، تشهد رذاذاً ندياً وكلمات تندت على قلبها.

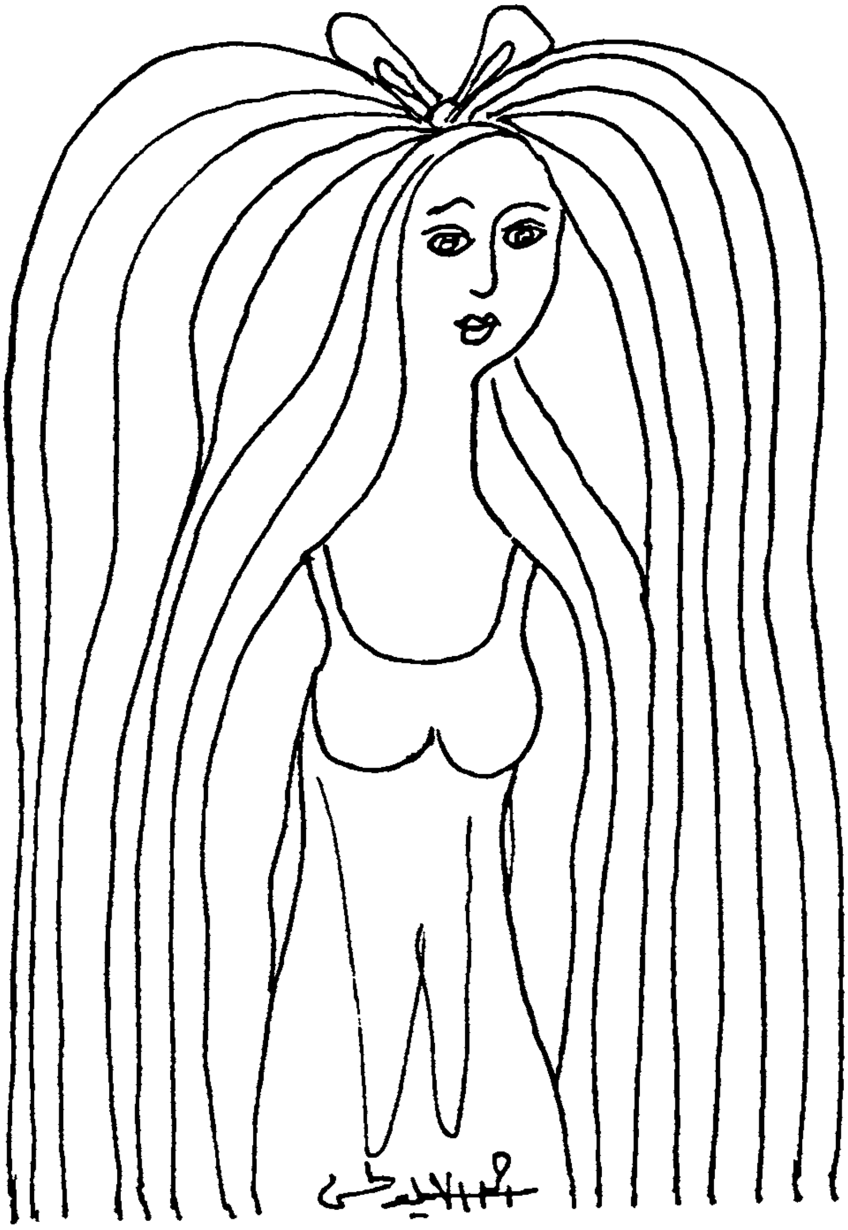

الفصل الثامن والثلاثون

من رحى الحرب

تزحف أمواج البحر أمامها لتنال من الشاطىء ، هدير يملأ أذنيها .. تلاطم ، تزاحم وبحر ترحل إليه من البعد على سحاب مسافر يصافحه عند كل مغيب .. زحف يزمجر في هدير لا يتوقف ، أرخت نظارتها من على وجهها ونهضت بعينين مثقلتين تنظر الجالسة أمامها ، مطبقة كتابها على راحتيها المتشبثة فوق الصفحة لكى لا تتوه عن آخر صفحة من آخر سطر وقفت عنده .. حين تقابلت نظراتها معها .. كانت هى البعيدة .. أمام الجالسة أمامها من هنا .. نظارتها مغلفة بالغبش تجمع عليها رذاذ الأنفاس الدافئة

- أماه أنت لا تشعرين بنفسك !!.....

- ماذا تقصدين ؟

- بنطالك الفضفاض هذا وقيمصك يذكرني بامرأة تطوعت للعمل العسكرى .. نظارتك .. وكتبك .. هذه..

- ماذا تقصدين ؟ وضحي أكثر ....

- تبتلعين الوقت قراءة .. فللقراءة مواقيت ونظام .. أخرجى وتسوقى وإرتدي ملابس الموضة والأزياء الحديثة

تتأفف وتمضي عنها وتعود تكمل كلمات لا تود أن تنهيها

- أمي أنا لا أحب أن أراك هكذا ، تشعرينني بأنني أمام جدتي لأبي .

لم تجاوبها ، ولوت حيث رفيقاتها ينتظرنها خارجاً

شخصت لآخر حدود البحر المعانق للأفق ، أرخت أناملها عن صفحات تقرأ فيها ، تزيح نظارتها ، ترجع بجسدها للوراء ، ترمي

بثقله على الحشية التى تلقفتها ، وأنفاس لا تطاوعها للخروج إلى الفضاء العريض .. كل ما بداخلها حبيس إلا كلمات غارقة فيها "أحياء وأموات " "ورحى الحرب " ، ماشا التى قفزت في غابة جليدية ، ماشا التى اخترق الرصاص جبينها ودفنت معهم في مقبرة جماعية وتحت الثلج في تربة متجلدة ألقيت على عجل ، وتحتها أجساد عارية .. وشبه عارية ، لرجال ونساء بروؤس ملتوية من الألم ورقاب متخشبة وأيد متجلدة منشورة من الجانبين ، أصابع ملتوية كانت تخدش الأرض متشبثة بها وصرخة تدمي الفؤاد.. كيف يقتلن ويتعرضن للتعذيب وتستباح أعراضهن ويعدمن رمياً بالرصاص وهن حافيات على الثلج ؟!.... وتطبق حبال المشانق على أعناق الفتيات الرقيقة ومن رحى الحرب ظهرت لابنتها في عمر جدتها من الزمن السحيق ، وحرب لم يخمد أوارها لازالت تحتدم داخل كيانها .. الإنسان والأرض .. مَن هنا .. وهناك ..

الفصل التاسع والثلاثون

وكانت لهم حديقة

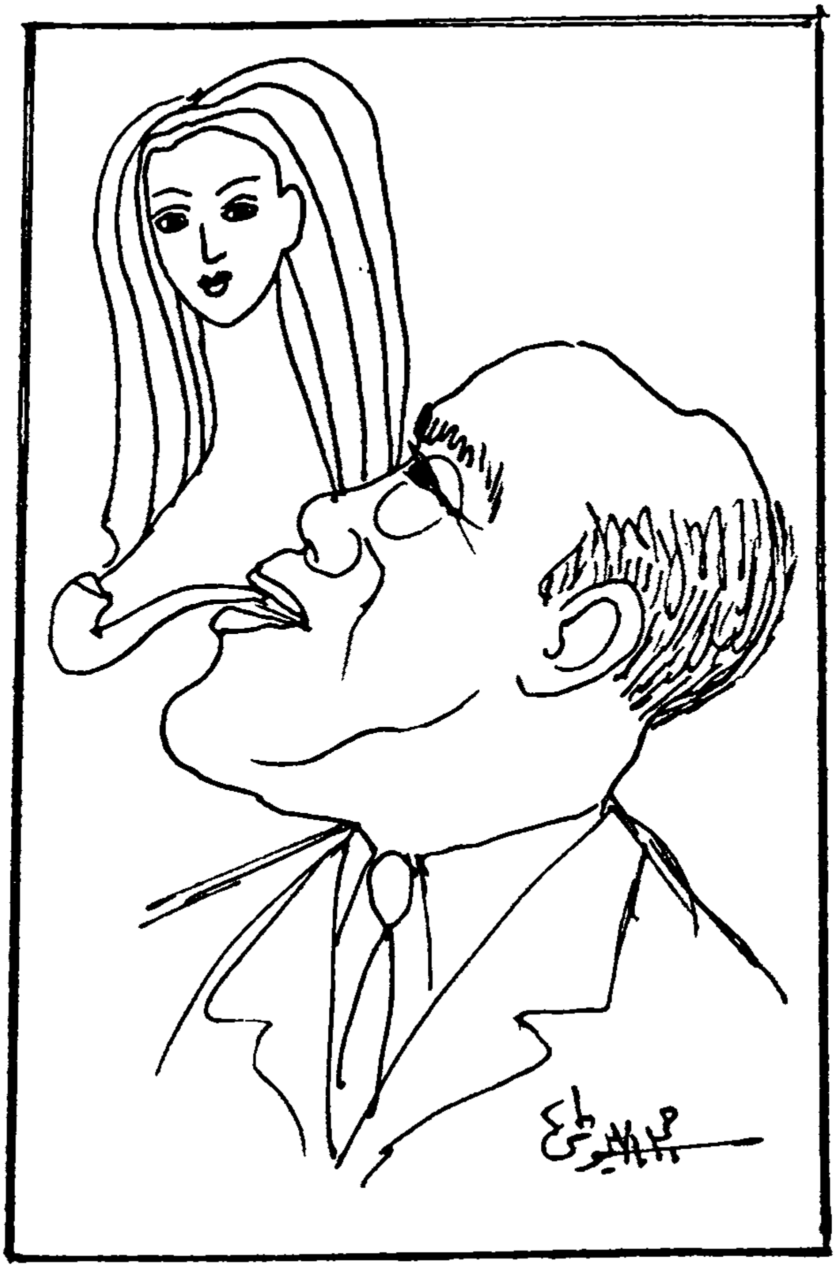

وصل لجميلة رقم وعنوان لاتحاد كـُتاب فلسطين فى شارع عدلي بوسط القاهرة، لم تتوان فى محاولة الاتصال لأجل كتب ترسلها حيث سيقطع الحدود عبد الله تايه من منفذ رفح إلى الأراضي السورية لمؤتمر الرواية، ومن قبلها تحدثت معه وهو في مخيم جباليا بغزة

- هل تأكد حضورك إلى القاهرة ؟....

- التذكرة معي وأوراقي وكل متعلقات السفر، أنا جاهز، ولا أدري ما يجد على الطرقات .. قد نقضى يوما أو أكثر، لذا بكرت عن موعدي و حاولت أن أستلم من المطبعة مجموعتك القصصية "إقتلاع" حدثني الرجل أن هذا سيكون من الصعب أن يسلمني بعضا منها، هل لك يا جميلة أن تؤمني عدداً من النسخ فى مقر الإتحاد لأحملها إلى دمشق ؟....

- دمشق !.. حسن حميد وتعالي نطير أوراق الخريف ..أنين القصب..محمد الركوعي، عاشق الألوان، وريشة لم تسقط من يده، يرسم معالم وطن .. هى السلامات فلتحملها إليهم يا عبد الله

- بالتأكيد فكلهم أخوة لنا، ونكن لهم كل مشاعر نبيلة، بعد وغربة لا نعرف مداها

- وأنا بدوري سأبعث لك ما طلبته منى ..

وكان أول إتصال باتحاد الكـُتاب، تسأل وتطلب منهم أن يسلموا لعبد الله ما طلبه منها، يسألها الرجل :

- عفواً سيدتي هل لى أن أطلب منك بعضا من كتبك وصوراً شخصية وصورة جواز السفر لنضمك عضوة في إتحاد كتابنا

- يشرفني هذا وساحاول تجهيز مجموعاتي وارسالها .. من المتحدث عفواً؟..

- أنا سعيد منصور

صمتت جميلة لهذا الاسم ، وتداركت تلك اللحظة في رد فضولى محبب لديها :

- من عائلة منصور؟ من فيهم بالتحديد ؟.... وفى أي منطقة كنتم تقيمون ؟....

- نحن من سكان منطقة الرمال في شارع مدرسة فلسطين .

وساد سكون ، أعقبه كلمات يكمل إجابة لها :

- أنت إبنة أبي ماجد ؟!.....

تلجمت كلماتها، واسم يحمل الحنين إلى أسماعها "أبو ماجد " وكيف تذكره!!. وكيف ذكرني أنا وأيقن أنني ابنته التي يحدثها؟!..

- نعم أنا .. وأنت من تكون بالتحديد ؟!.....

- سعيد الا تذكرين .. جيران نحن يا جميلة .. دار بسيسو .. أبو زيد.. أبو سالم .. الكباريتي

- أنت سعيد وجدتك آمنة و .... و ....

سافرت حيث بيته الذى تلفه أشجار البرتقال المزهرة في أيام ربيعية تحمل ثمارها ، تجاور أشجار الليمون التى تحملها خضراء لتتلون

بلون الشمس، غابة من الأشجار خلف داره في غزة، كان يحلو لها أن تمضي إليها وتتوه في خضرتها وتختبىء بين جذوعها.كان يفصل ما بين بيتهم وبيت صديقة طفولتها رجاء الكباريتي سور واطىء، فتحت فيه فتحة ضيقة تتسع لأجسادهم الصغيرة حين يعبرون إلى حديقتهم، بعيداً عن دارهم، يلهون في غابتهم التى لم يأخذهم التيه فيها ولكن، هل لى أن أسأله عن أخيه .. سعيد كان له أخٌ لا تنساه جميلة أبداً، لم وجلت حين عرفها سعيد بنفسه أن تسأله عن أخيه وأيام كانت بينهما ؟!..

ولكن أخاه كان هو الحكاية هو المعنى الذى لا ينتهى كلما أبحرنا في أعماقه، دوما عاري الجسد ، كان يقطع ملابسه، ينسل خيوطها بين أصابعه يرفض الماء أن يسيل على جسده أو قطعة صابون تمتصها ليفة خشنة تدعك جسده .. ولا مقص عرف أطراف شعره، كان لغزا في طفولتها.. وسعيد الآن على الهاتف تسمعه ويسمعها .. عرفها وعرفته ولكنها لم تنس أخاه .. وغرفته المبنية من الطوب الأسمنتي على ناحية بعيدة من الغابة .. كيف كانت تدخل من فتحة السور يدها بيد رجاء، وفضول يحركها لترى غرفته ، كيف ينام؟.... وما شكل فراشه وشكل غرفته؟..تلك الغرفة تـُذكرها في بيت الحواديت والحكايات بقصة ليلى والذئب حين.احتمت منه في بيت بعيد ..عقلة الاصبع حين لمح نور القنديل في الغابة فتلمس فيه أمانا ودفئا، تحب أن تكتشف أسراراً وخبايا فى غرفة هذا الكائن الغريب،

تتسلق وترفع جسدها لتمسك بحافة شباك غرفته لتجد سريره الحديدي فرشته بقماش مخطط، وخزانة، يجلس على الأرض يقطع من ملابسه وينسلها تنظر إليه تحفر صورة في ذاكرتها وتهمس لرجاء ..

- هو لا يشعر بنا هيا

تنفلت راحتها من على حواف شباكه، لتسقط، تشدها يد صديقتها وتمضى تطير مسرعة لاهثة فزعة، فلقد رأته، ورأت حجرته في جانب من الغابة وخيالات طفولة لا تنتهي، لم اختار حديقة جميلة ليجلس فيها ؟!يوم عادت من مدرستها وجدته جالسا في حوض السقاء للحديقة والمياه مفتوحة وهو يداعب الماء بشرائطه يلفها ثم يفردها .. يبتسم لها غير عابئ بما حوله، يومها صدمت وكادت أن تصرخ، هل لها التقدم والعدو لداخل دارها ؟.. أم الرجوع من حيث أتت ؟.تسمرت في مكانها فقدت قدرتها على التراجع أو التقدم غرست نظرها فيه لتسرى في جسدها سكينة وطمأنينة حين ابتسم لها..أو أنه يبتسم للفضاء .. لحظتها، نقلت خطوتها حيث أمها الواقفة أمامها ..

أفاقت تكمل حديثها مع سعيد :

- سعيد أنتم رحلتم عن الدار، تركتم لنا حزن فراقكم ..كم كان يحلو لى اللعب في غابة البيت .. والنظر لجهاز التلفزيون، فكان أول فيلم من الكرتون أشاهده في بيتكم، ابيض .. أسود .. أول فيلم "كاوبوي

" أيضا كان من استراق النظر إلى مجلسكم مشدودين لذلك الجهاز العجيب

لم تشأ أن تسأله لماذا حين رحلوا تركوه هناك ؟!.. ترعاه عمته حين لم تقبله مدن .. بقي هناك وقضى هناك...

من هنا تسأل جميلة :

- لم رحلتم ؟

- ٦٧ بعد الهزيمة

ظل هذا التاريخ ينقر في ذاكرتها ، حين قفل خط الهاتف تاركا لها كلمات لا تستطيع الفكاك منها .. وشوارع لمدينة هناك حملت أقدامها .. لبيوت لم تفتح شبابيكها ولم يلم البستاني أوراقاً خريفية مبعثرة على أرضها .. ظلت تتراكم .. تتكوم .. أمام أعشاب برية تمد فروعها تحبسها في أحراش مهجورة لبيوت لم تعد تفتح أبوابها لأصحاب لها رحلوا .. سعيد وأهله وغيرهم .. فتحت سجلات جديدة لأسماء جديدة أملاك الغائبين بطول السنين وبطول الأسلاك .. وثقل البوابات .. أوصدت كل طرق العودة .. لتظل شبابيكهم موصدة .. وأبواب تخشبت قوانمها.. وصدأ لف مقابضها .. لتنزاح تحت فتحاتها ذرات تراب .. تتكوم مع فصول لا تتوقف أن تأتى إلينا في خريف وربيع وشتاء .. لا أحد يأتي ليقلب صفحة مكتوب عليها أملاك الغائبين .. سجلات من نسيج ما تبقى من المؤامرة .. ودراجة صغيرة مائلة صوب الجدار تلتقطها يد جميلة وتطير بها ..

مرة تنزل من فوق التلال طائرة .. ومرة تنغرس عجلاتها فتميل ، تسقط على الرمال .. وسرعة إفاقة طولها لمحاولة ثانية .. دراجة جيران لها .. يوزعون حاجياتهم قبل الرحيل .. قبل أن تدك الحرب أسطح البيوت ، وقبل أن تدق يد المحققيين بابهم يطلبون الزوج والإبن ملفات تفتح وأخرى تغلق إلى حين .. ومن يوم ما إعتلت تلك الدراجة تلف شوارع غزة بها ، لم يفتح بابهم لسنوات طويلة .. لا باب ولا شباك.. بل فتحت سجلات أملاك الغائبين .. أيد خبيثة لا تكف تعبث بالصفحات المطوية على حزن لفراق أصحابها .. أيد تود أن تنزع كل ورقة تدل على صاحبها .. قد يعود يوما .. وحين عودته.. من سيجد على الأرض منا .. ومنهم ؟!.... ووجه ذلك الرجل صاحب العينين الضيقتين ونظراته الحائمة دون تركيز على شيء محدد .. وكلام الكثيرين عن سر ثرائه .. همس وأحاديث متوارية أنه يبيع أملاك الغائبين .. وأصابع تشير إليه أنه ..... صدمت حين علمت أن مرضا خبيثا ينهش بطن قدمه .. عضلة ساقه تتآكل .. تذوي.. ليذوي معها .. ساق حملته إلى بيوت موصدة الشبابيك والأبواب ، يفتح سجلاتها ، ينقل ملكيتها .. ينهش المرض قدميه .. عظامه .. مفاصل كانت تتحرك طوع إرادته، نخر السوس فيها .. وتبقى لها كلمات ترسم عليها خارطة قد تدلها.. أنت ابنة أبي ماجد.. وحكاية لم تستطع أن تذكر سعيد بها .. رجل يبيع أموال الغائبين بعد أن مضى بالمدينة صيف ٦٧ ...

الفصل الأربعون

وليمة مصرية

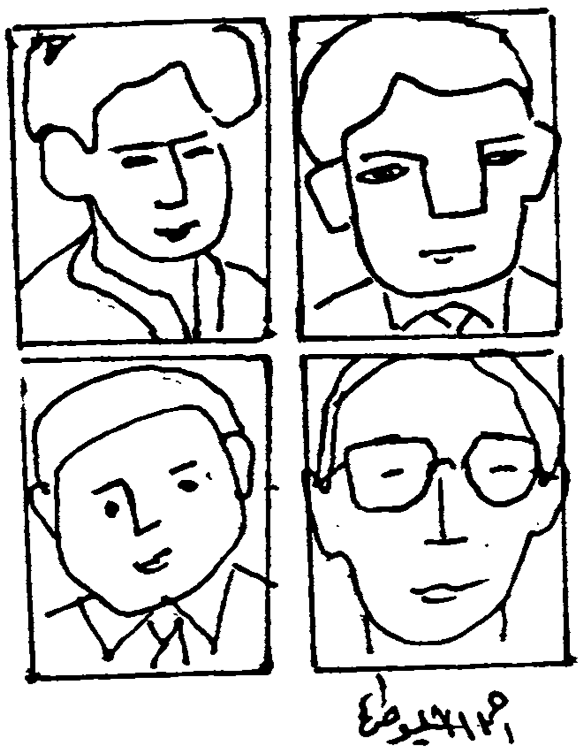

أمـام قصـر التـذوق وقفـت بسـيارتها بعـدما اسـتقرت بعينيهـا علـى الدكتور " عنـاني" يقـف علـى أول درجـات القصـر يتحـدث بهاتفـه النقـال ، ومـا إن اقتربـت منـه حتـى كـان منهيـاً محادثتـه ، عاجلهـا بابتسامة المصافحة:

- جميلة مرحباً

وما إن نطقت ترد له تحية حتى استوقفها قائلاً :-

- جميلة أعيدي على مسمعي ما قلته لي الآن

اندهشت لمطلبه ، ولكنها أعادت عليه أول مقطع من جملتها

- حمداً لله

همس لها بصوت خفيض :

- هذه لهجة أعرفها

أخذ يـدور بعينيـه فـي فضـاء المكـان يُستحضـر مـدناً وبـلاداً بعيـدة .. قريبة .. يلف رقبته قليلاً مسافراً عنها ينطق بوقع المفاجأة

- أنت ....

لـم تـدع لـه فرصـة النطـق ، همسـت لـه همسـاً مسـموعاً تؤكـد علـى حروف كلمة تنطقها له بسعادة طافت علي وجهها

- فلسطينية يا دكتور .

رد بلهفة :

- أذكري لي اسم مدينتك ؟

- غزة ..

قاطعها بفيض إبتسامة مسافرة على أطراف مدن هناك .

- هي غزة الأقرب بلهجتها إلي المصريين .

واقترب منها وعلى وجهه علامة حيرة

- ولكنك رغم السنوات الطويلة التى عشتها هنا ، يحمل صوتك رنين الحروف تستشعره أذنى أنه شجن .. أهو البعد !.... أم الحنين؟!....

وما إن استدارت وإياه لاعتلاء درجات القصر ، كان ينزل إليهم مستقبلاً سراج النيل مرحباً بجميلة والدكتور ، ملتفتاً نحوها متسائلاً :

- لم لم تنضمي لهيئة الفنون والأداب ؟

قاطعه د . عناني قائلاً :

- بل ستصلها بطاقة العضوية دون طلب تقدمه .

وربت على كتف جميلة في طريقهما إلى القاعة ،الكلمات ودفؤها حرك فيها مشاعر تأتيها من هناك البعيدة إلي هنا ، تستوقفه قائلة :

- كم أحب أن تقرأ لي ، أليس لنا نصيب من إبداعك النقدي !!.. أم نستدعي الأقلام البعيدة وأنت الأقرب إلينا !!.. أين أنت منا يا دكتور...

أغمض عينيه في حركة طفولية رافعاً وجهه للسماء:

- " الأقلام البعيدة " أيضاً هذا تعبير من هناك لم أسمعه هنا يا جميلة !!.....

إنتفض قلب جميلة ، وكأنه العارف برواية تشق طريقاً فيها تخطها من كلمات هنا .. وهناك .... ثم فاجأها بطلبه

- أين أعمالك ؟.... إعطني إياها .

أعطته بعضا من كتبها ، سألها :

- أي من الأعمال تحبين أن أبدأ بها ؟

لاذت بصمت تتجاذبه الحيرة

رد قائلاً :

- كلهن أبناؤك .... الليلة سأبدأ في إشعال أول عود ثقاب

****

لحظات وكانت تجلس ضمن من حضروا لمناقشة رواية سراج النيل " وليمة مصرية " ، يجلس على المنصة الدكتور عناني .. الناقد شوقى بدر ، ليبدأ سجال الكلمات في معركة عناني ، لم يلجأ إلى ورقة مكتوبة تسعفه حين ينقطع بعض من حبال أفكاره.. شعلة أضاءت النفوس والعقول حين تحدث عن صفحة الأمجاد المطوية ، فأصابت كلماته نفس جميلة .. وسألهم وفي جعبته إجابة:

- عن أروع وأعظم عمل أدبي روائي في التاريخ العربي والغربي؟....

إعتملت العقول .. سافرت .. وعادت لتتلقف إجابته:

- هي ألف ليلة وليلة

خطر في بالها عثمان حين حمل إليها ليلة في ألف ليلة ، تعتلي النضد تغلفها لفافة ، تنظرها مخمنة ، يقطع صوته حيرتها:

- هدية عيد ميلادك يا جميلة

تململت في كلمات ، تسأله الثمن

- إنها هدية ....

ألف ليلة التي يتحدث عنها عناني رائعة الأدب العالمي .. وعثمان حين حملها اليها يرفض أن يقبض الثمن ....

****

تبدأ وليمة في كلمات يحكي عنها .. وليمة فكرية .. تاريخية .. حكمة.. عظة .. الوافدون على القاعة ينتحون مقاعد لهم في هدوء،ولكن في لحظات قطع د . عناني كلمات هو سادر فيها ، وقف متخلياً عن مقعده من وراء المنصة قائلاً :

- حضر لمجلسنا اللواء " سعد أبو الوفا "

وقف يستقبله ، شده من ساعده مصافحاً ومقبلاً لراحة يده ، وجميلة التى لا تعرف أبا الوفا القادم اليهم وانحناءة أستاذ الأدب العربى يلثم يده في إمتنان عظيم ومحبة .. " فرقاطة رشيد " ورجال دفعوا ضريبتهم بالدم .. من بحر العلوم ، ينهض أبو الوفا يتحدث إلى الحاضرين عن هوميروس .... وكيف لقائد يبدأ حديثه عن الإلياذة ومنايا ترقص فوق الهامات على شواطىء شاحبة ، وشمس طراودة تذيب أفندة رجالها وموج ينتفض وماء يفور،

وحين تسمع مصر كلها أجمل الكلمات " إسلمى يا مصر " .. العدوان الثلاثي .. بريطانيا .. فرنسا.. إسرائيل .. ضرب الجيش المصرى حين عبر القناة ، وضفاف باتت مخددة بحفرات القذائف .. جثث ملفوفة تطلب الثأر على ضفة تطوى .. مدن مقاتلة لفحتها نيران المعارك .. مدن ذات حجارة من الخرائب البطلة .. " شاكر حسين الصعيدى ".. لحق به لقب الشهيد في صيف كان له الأخير ، شاكر حسين تحييه بريطانيا لبطولة ولد منها ومات فيها .. كان على رأس وليمتنا المصرية بمركبه الحامل لمدفع واحد وسط حصار يكاد يطبق عليه لعشر مدافع أو أكثر ، شد المصرى الأسمر سرعته ، كان للموت صارع إن هو صارعه .. هو طريق وحيد ، لنهاية البطولات العظيمة المحفورة في سجل محفوظ .. حين نزوله الزورق ناداه الأنين ، فلبى نداءه ليغوص في سفينة صنعها وصنعته.. ليذهب معه جلال الدسوقي ، أحمد عبد العزيز وو .. موت كان لهم في أعماق اليم في رحلة الإنتظار ، لرفاق لهم عائدين عبر كل الجسور المنسوفة، وقسطنطين سيمونوف " كنت وأبقى صحفيا" وكيف دفعت روسيا برجالها إلي مواقع القتال يكتبون ويدونون ويوثقون كل ما رأوه هناك .. ومن كتبت لهم الحياة ، ثبتت على أكتافهم أنواط ونياشين عسكرية .. لأناس كتبوا لأجيال تلتقط حلقاتهم المستحكمة دون الوقوع في حلقات الضياع وفقدان الذاكرة....

كيف لرجال أن تموت بطولاتهم معهم أو يموت الشاهد الوحيد عليهم؟!.... تحدث أبو الوفا و ساد القاعة صمت غارق في أعماق القناة .. تأتيهم كلماته من واد سحيق ..

- جاءت اشارة تقول " لم يعد هناك أحد " كل قائد مركب هو صاحب قرار و لا رجوع لأحد ، وحين جاءت إلي الإشارات لنرد عليها بكلمة علم .. سمع .. كان اللاأحد.. أبحرنا وأبطأنا في عتمة المصابيح المضاءة ، نشق صفحات مياه الأحمر مع قوافل الصيد التى دمعت على الصمت المطبق والسكون .. شاكر حسين في قاع القناة وأنا رسمت خريطتى على صفحات البحر الأحمر في عتمة لا تزيحها إلا مصابيح الصيادين .. عبرنا إلي حدود جدة ، غافلنا أمواجاً وغافلتنا أمواج .. لنصل بمركب ورجال وأنا معهم .

وحين وقف مد كلماته ، وقف الحضور يلتفون حول أبي الوفا .. وجميلة الواقفة خلف الدائرة الملتفة من حوله تفكر فيما قد تقدمه لهذا البطل الواقف أمامها .. هل تقدم له أعواد ثقاب ؟.. ولكنها لا تحملها .. إجتاحها ضيق ، ولكن الوقت أمامها أضيق في دائرة بدأت تنفتح أمامها لتقترب منه .. مدت يدها له .. نظر اليها مصافحا بابتسامة ،لامست راحة يده يدها .. يسلم وتسلم .. قد يكون أودع فيها أمانة

الفصل الحادي والأربعون

البطة البرية

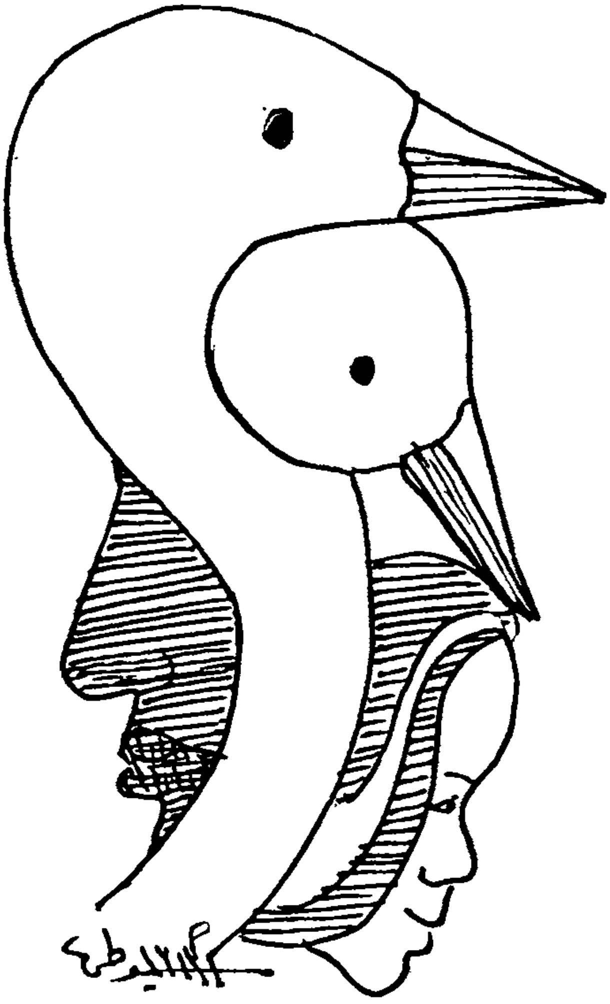

جميلة تعد الأيام من قرص ساعتها ، وموعد مع السيدة ماريت ، مع لسان لا ينطق بلغة العرب ، تأتي إليها بصحبة كاتبات من جمعية نسائية تعشق الكلمات ، منهن من يتذوقن ... ومنهن من يكتبن تسأل صديقات لها :

- هل يعقل أن يعطي امرؤ موعداً بعد شهر باليوم والساعة ؟!!...

يندهشن لحديثها متسائلات في دهشة :

- ومتى هذا الموعد ؟

- الشهر القادم ، اليوم الرابع ، الساعة الثانية عشرة .

ومن على قرص ساعتها يأتى إليها الموعد المنتظر ، مع السيدة "ماريت " وما قد تقوله لها أو تسره إليها ، ومن قصر الثقافة كان لقاء نسائي ،عرفت كل منهن بنفسها من حلقة دائرية تلف لتصل إلى جميلة ، فتقدم لهن نفسها بلغة انجليزية بسيطة ، أنها من هناك ... يلتفتن جميعهن إليها ومن عيونهن تطل بلدتهن " النرويج " لجميلة وقضيتها بينهن وهن معها ...وزميلات قدمن للزائرات أشعارهن وقصصهن ، وجميلة تقدم روايتها .

تهمس لها السيدة ماريت تحدد معها موعدا ...

ورواية لجميلة فى يد السيدة النرويجية من زمن عمون وآرام في وادٍ سكن على الصمت ، ونجوم يشتد لمعانها في أفكار جميلة ، وما إن تتوهج لها حتى تبتعد عنها ، وتتوارى لتعود لها أخريات في واد تحتشد في سمائه ، شهب ونجيمات ، تساءلت جميلة :

هل تترجم رواية كتبتها ؟!! ... وتتبدل حروف الكلمات و أغوار معانيها الآتية من سراديب شرقية غارقة في العتمة ، قابعة في قوارير الزمن المسحور ... تخرج لآماد بعيدة وتتحول الكلمة إلي كلمة ، قد تشبهها أو تدل عليها !!!...

يغيم وجهها ، تكتم أنفاساً ، تود لو تطلقها بعيداً ، قد تعود إليها تهدهد هواجسها ، فتهدأ نفسها .... تنظر روايتها تمد يدها تفتح صفحاتها الأولى تقرأ " بكف جدتي تدور الرحى على حبات قمح تناثرت على حوافها القشور "

تصغى لكلمات كتبتها وكيف ستكتب بلغة الغرب ؟!!!... هل ستجد من يعرف بحبات قمحنا ... ورحى لازالت آرام وكنعان مطحونة فيها، ولم ترفع جدتها كفها عن رحى دائرة .

****

وقع الحياة السريعة يجذب جميلة للوقوف أمام مرآتها تتعجل الوقت، تعدل من هندامها ، تلتقط حقيبة تحاول أن تلم ما تسعفها فيه ذاكرتها ، كتب ، عناوين ، هويتها ، تشدها المسافات إلى مكتبة الأسكندرية وماريت والنرويج على القارة الأوربية ، نرويج واقعة تحت سحر الشرق ، رسمت له شكلاً لمكتبة من أيد نرويجية ، يقع الإختيار على ذات الشكل الدائري لكرة أرضية تقابل مولد الحضارات، يحتضنها بحر لم غوارب من حكايات الشرق والغرب ، وقيصر يؤثر أن يظل عبداً لملكة الاسكندرية على أن يعود سيد

شعبه في روما ، تخضع كل جارحة نابضة فيه لفتنتها ، ونعومة جدائلها ، كليوباترا تلك التى جمعت بين العذوبة والجلال وبين الرقة والألفة ....

كليوباترا وكيف علمت قيصر روما أن السياسة قد تكون أمضى من حد السيف ، ومسيرة البطالسة، وحضارة تدعمها وثروات تفيض، وعاشق يقرأ وهى سويا لحضارة فرعونية تطوى مجد البطالسة ، ليقيم قيصر تمثال فينوس فى قلب روما فكان الوجه هو وجه كليوباترا ....

وفي ساحة المكتبة .... دار الكتب .... تقف جميلة تطالع وجوها .... ترصد مجموعات زائرة للمكتبة .... ومجموعة من النسوة يلتففن حول امرأة تقودهن وتشرح لهن ما تستطيع أن تقدم من معلومات وإرشادات ، إقتربت منها:

- معذرة أنت المرافقة للوفد النرويجى ؟

التفتت إليها ترمقها بنظرة دهشة قائلة :

- نعم أي خدمة أؤديها ؟ ....

- أريد السيدة ماريت ، فأنا على موعد معها

- هي لم تستطع الحضور ، جدول أعمالها مزدحم للغاية .

- هل لي برقم هاتفها في الفندق ؟

وما كادت جميلة تهم بتكملة جملتها حتى تركتها الأخرى ملتفتة لباقى المجموعة

إقتربت منها مرة أخرى تسألها :

- هل لي برقمها ؟

ودون أن تلتفت لها أجابتها :

- لا أعرف .... لا أعرف

ومضت عنها .... لتقف جميلة في ساحة .... شرقية .... غربية وسط الوفود ، بطاقات دخول .... لهجات تسمعها . والوقت يمر بها عن الثانية عشرة ولم يبق أمامها سوى الوفد النرويجي الواقف في الثقافة دائرية ، حديث النساء المشغولات بما يحملنه من أفكار وخيالات رسمنها من كتب قرأنها وما يحيط بهن يقع عليهن وقع الإنبهار لتجمع حضارات وصرح من رسم أيديهن وإعمال عقولهن... بدأت تستعيد كلمات قرأتها من مسرحية إبسن .... أبطالها تخالهم يتحركون أمامها في باحة المكتبة ، وبطة برية تغوص في أعشاب وأوحال ، وزمن يتوقف عنها ، بطة وحيدة ليس لها أحد يهتم بها .... لا يعرفها أحد ولا يعرف أحد من أين أتت .... غوص إلى القاع .... القبض على أعشاب برية ....

هل تقف جميلة على بعد منهن بطة برية تجر أحد جناحيها .... ضعيفة .... مهيضة الجناح .... ؟!.... وتذكر أن تلك البطة كانت القوية التى تكيفت لواقع فرض عليها ....

أحطن بها نجيمات تلمع في بحر عينيها تهديها ومضة إرادة ، دفعتها للإقتراب من دائرتهن وحزن بدأ يتسرب إلي نفسها ....

وبكلمات إبسن المرسومة على وجوه نرويجية عقدت عليها عزيمتها وإرادة لن تثنيها على طريق كلمتها المكتوبة في يدها .... وكلمات أودعتها في يد ماريت في لقائها الأول بها .... اقتربت أكثر من إحداهن تسألها بلغة لم يعتدها لسانها وحروف ليست لها وقع في نفسها :

ـ معذرة

التفتت إليها السيدة بوجه مبتسم ، مقتربة أكثر لتضيق المسافة ما بينهما

ـ تفضلي

ـ أسأل عن السيدة ماريت

ـ أوه ماريت نعم .... هى التى نظمت تواجدنا هنا وللأسف لم تستطع الحضور ، ولكن هل لي أن أتعرف بك

ـ جميلة ، كاتبة

كادت إبتسامتها أن تبتلع جميلة من إنبهارها بأن الواقفة أمامها من كتاب الكلمة ، بدأت تفرغ ما بيدها اليمنى لتمدها مصافحة ، مادة يدها ، وتعود تسألها : لتؤكد لنفسها ما قالته :.

ـ أنت تكتبين ؟!!!

ـ نعم والسيدة ماريت اعطتنى أملاً في أن تترجم لى عملاً إلى لغتكم .

لمعت عيناها بالدهشة :

- جميل جدا.... بل رائع .... إليك برقم هاتفها وغرفتها في الفندق أخذت تفتش في مفكرتها لتملى جميلة بكل ما قد يوصلها إلى السيدة التى أتعبتها الرحلة ما بين شرق وغرب .... وسط اهتمام زميلاتها والنظر إلى جميلة بحنو حوط قلبها ، تأخذ جميلة كل رقم من سيدة لا تعرفها قد تصل من خلاله إلى سيدة النرويج .. وتعود لطرقات تتسع لها دوما .... ووجه امرأة لها ملامح شرقية تشيح بوجهها ويدها لاوية عنها .... ووجه امرأة من النرويج تغرقها إبتسامتها .... وحروف كلمات تغربت عن لسانها هى التى عادت بها .... وبطة برية تصلي الصبية " هدفج " لضعفها .... وحديث قد يعود يوما حين يذوى أول عشب على قبر الغريبة ، يوم تنتقم الغابات لنفسها .. وتحفر صوراً تلاحق ذاكرتها .. تحفرها في بريق نجميات تلمع لها ليظل أمل لقاء سيدة النرويج هو مرحلتها القادمة إليها من هناك .... قد تصنع سيدة النرويج سلا جديداً لبطة برية قال عنها " إبسن"

الفصل الثاني والأربعون

رمسيس

في قلب القاهرة تمضي جميلة عبر شوارعها تبحث بعينيها في كل زاوية فيها.... تلتقط .... تفتش ..... تعانق بنظراتها كل الأشياء التي تأنس لها روحها .... فقد لا تعود ثانية ..... وقد تكون المشاهد الأخيرة لصيف أخير..... تتغرب عن ذاتها .... وتعود اليها أكثر قربا متوحدة فيها والأرض والمكان.... تود أن تنطق لتسمع صوت كلماتها في قلب القاهرة .... لا تود أن تمضي عنها في صمت وسكون .... تسأل :

- زحام هو اليوم ....

يرد عليها بصوت هزيل متعب :

- هذا هو حال القاهرة ....

يطوي الطريق حيث غاية جميلة .... رمسيس الذى منه تأتي ومنه تعود .... وشارع بدا لها أكثر اتساعاً وإنسياباً لحركة المرور .... إيابا وذهابا .... لفحت وجهها نسمات معبأة بالدخان .... مدت نظرها الى المدى البعيد .... ولهفة للوصول إلى رمسيس .... ضباب ودخان حال بينها وبين فضاءات ترنو إليها .... مسافات تبدأ في الاقتراب منها.... رمسيس لم يظهر لها .... قوائم حديدية تحوطه تقطعها قوائم عرضية ..

تلفتت مندهشة تسأل السائق :

- أين رمسيس ؟!!

- أمامك يا سيدتي.... خلف القضبان والمساحة الخالية التي ترينها مسيجة أمامه، سيسجى عليها ليرحل بعيداً ..

لم ترد على كلامه .... يسود سكون ، يقطعه مكملاً لحديثه :

- يقولون دخان القاهرة نهشه وأصابه بالتشقق .... التلوث آفته وآفتنا .... سينقلونه.

شخصت في مرآة نطقت لها .... تتبين ملامح ذلك الرجل .... تؤكد لنفسها أن ما رأته وسمعته هو عين الحقيقة .... توقف دوران محرك السيارة .... يلتفت اليها قائلاً :

- هنا يا سيدتي

دفعت باب السيارة تلقى بقدميها على أرض الرصيف وتلقى بحقيبتها على كتفها ، لم تدخل المحطة التى منها ستغادر ، إعتلت درجات رخامية تستحث خطاها للوصول الى أقرب نقطة قد تراه فيها .... رمسيس والشمس ترافقها في رحلتها إليه .... تعانق حزنها بوهج الشمس .... تقف حيث هى .... وهو .... ودموع جميلة هى الأقرب اليها منه ، حالت القواطع بينها وبينه ، لم تر رمسيس .... لم تستطع أن تشاهده كما كانت بالأمس، تصلب طولها أمامه من زمن زاحف عليها .... يرحل رمسيس عن رمسيس .... وأناس من الغرب جاءوا ليحملوه بعيداً .... واقفاً خلف القوائم الحديدية .... دون ملامح لوجه .... دون تفاصيل لقامة طويلة .... وانبساط قدميه.... تذكر وجهه فى المرة الأخيرة يهديها إشراقة كما شمس الشرق التي

تأتيه كل صباح .... وكيف تقطع خيوطا يغزلها من عيون المصريين الشاخصة إليه على مدى عهود طويلة .... من على رؤوسهم .... من سواعدهم .... يقطعونها .... يبترونها ليمضوا بها بعيدا ؛ من أين له أن يغزل خيوطه إليهم حيث ستغيب معه شمسه الحزينة ليبقى صوت لم يمت في ضمير أبنائه ؟....

- من النيل إلي بوابة شرقية لأرض كنعان ، فأمنها .. أماننا يا شعبنا العظيم .

وقفت لتقول كلمة وداع .... بكت وأجهشت وألقت بجسمها على حافة الجسر الحديدية .... تودع عمرها .... وحياتها معه .... فأين تجده ؟ .... وكيف تراه ؟ .... وهى الراحلة معه إلي بلاد أخرى هناك..

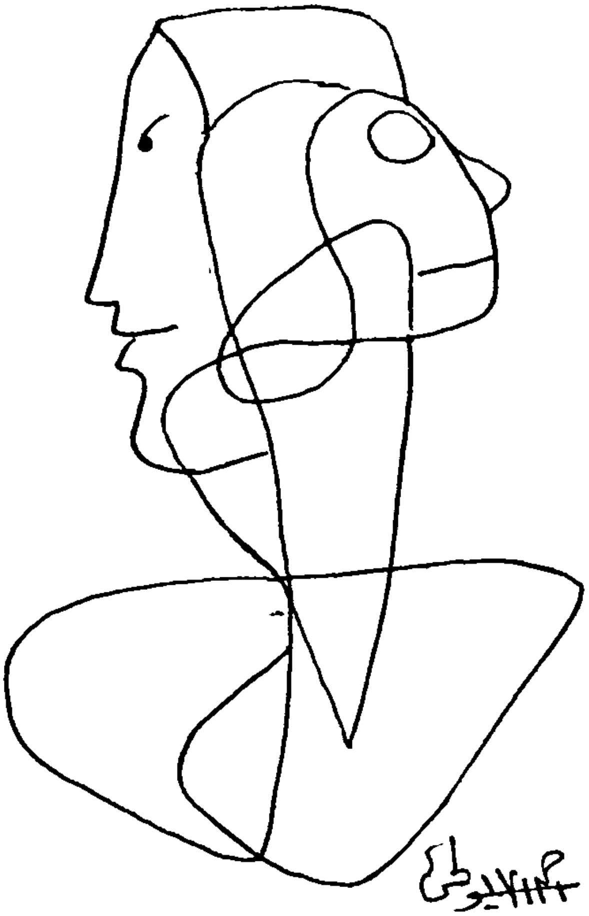

الفصل الثالث والأربعون

حبيبــة

٥

لم أتعبت جميلة كلمات حبيبة ؟.. تكتب فيها .. وتمحو .. ليحل بياض الصفحات وسكونها .... لا يظل منها سوى عين مفتوحة تقول لها :

- أكملي باقي الحكاية .

تتسمر عين جميلة على بياض صفحتها ، وفراغ يشدها .. يكسرها .. يطحنها .. تذوي .. تذوب عليها ، إلا من دمعة بللت سطوراً خاوية .. دمعة حارقة .. عين بركان هناك على حافة بركة السلطان في مدينتها البعيدة التي شهدت لها يوماً أنها ستظل وحيدة .. يحدثها أبوها عنها .. يدفعها فضول طفولي للذهاب إليها .. تقف على حافتها تنظر جوانبها المعشوشبة اللزجة ، ومياهاً ضحلة رسخ الطين في قاعها .. تحاول إسترجاع تاريخها من كلمات أبيها .. فتهرب منها .. لم تستطع أن ترى وجهها على صفحتها .. ولا هفهفة ثوبها لنسمات جبلية .. ولا شعرها الليلي المنسدل على كتفيها .. ولا عينا مر عليها الليل فألقى بسواده فيها .. لم ترَ وجهها في بركة السلطان .. حزنت ولوت عائدة تنزل درجاتها الحجرية .. قد تسقط .. تهوي .. رجف قلبها .. تشدها ضفائر شمس مدينتها ، تطير بها بعيداً .. لجداول رقراقة .. تجمعت في بركة الشمس والقمر .. قد تسكن روح جميلة صفحتها ..

***

تبكي جميلة على صفحات حبيبة .. لِمَ تحرقها الغصة ؟ ..

وقفت رغد على باب حجرتها تسأل في دهشة :

- أتبكين يا أمي ؟

لم ترد عليها .

- بالله عليك لِم البكاء ؟ أجيبيني

لأول مرة يرجف قلب ابنتها لها .. ولأول مرة تذوب المسافات بينهما .. تقترب من كيان أمها المهدم ، ترفع وجهها إليها .. لم ترها من ثقل دمعها ، حاولت أن تنطق لها .. وكيف لها وصوت راحل إلى عمق بعيد لا يطاوعها ؟

- ردي يا أمي .

تأتيها بقايا من صوت :

- لن تفهمي يا بنيتي

ضحكت رغد لهمهمات صوت عائد .. نهضت تستعد لمغادرة حجرتها، سعيدة لسماع أمها ، تاركة خلفها كلمات رشيقة طيرتها في فضاء حجرتها.

- هوني الأمر عليك .

تركتها تعذبها كلمات من أطراف الحكاية .. تتوشى على جوانبها أشواكاً تدمي فؤادها .

وحروف كلماته على ورقة مطوية في جيب سترتها ؟ تستلها يدها ، تنفض ثنياتها ، تشخص في حروفه الدافئة ، تستلهم من روحه البوح الجميل ، تعود تطويها ، تدسها في جيبها ، تجلس على أريكة

خشبية ، ترجع برأسها ، تلقى بثقل أفكارها على آخر حافة مقعدها ، تستحضر كلماته في ذاكرتها ، تلم حروفها في بحر عينيها .. لتسقط حبات دمع تنشد لها شدو كلمات ، تلم حبات دمعها بين حنايا كفيها ، تمسح عن وجهها حكاية كلماته معها .. أشياء حبيبة .. تشتاق إليها .. دفء الأرض التي يخطو عليها .. أحلام غد مفقود لازال يشتاق للوصول إليه .. ترنو لأفق يسيل بحمرة المغيب ، قد يلقي إليها بالغد البعيد ، عبق الأجداد في ترابهم لم يصل إلى شرايين أنفاسه ، ماء البركة مازال مطموراً ، نباتات شوكية تملأ ثنايا الدرجات الحجرية وعبق أرض يسيل حنيناً يزورها كل فجر جديد ..

هو لا يعرف أنها تسدل جفنيها مع بداية سفرها النائم كل ليلة على ملامح وجهه.. تجهد نفسها في تجميعها وحفظها في لوح ذاكرتها..ولحظة تفتح عينيها تكون صورته أول انفلاتات يومها ..تطالعها قبل أن تغادرها من خلف زجاج نافذتها ...صورته لا تعرف كيف تجمعها في صباحاتها ..هي روحه التي تسكنه ، ترسم معها ملامحه لشمس آتية ..حب مع سبق الإصرار ..لن أغيب ..ولن تفارقيني.. ونظرة حانية على عنق خلا من قلادة... أقسم لها أن يأتي وفي يده قلادة .. يسكبها لها بعمق جراحاته المفتوحة... لمع في خاطرها السؤال ...لم لا يكون هو وكلمات كتبها ؟ ... التقطت من جوارها كتابه وبدأت تعيد قراءته للمرة الثانية ..فتعرفه وتعرف الصبية.. وقلب صغير يحلق من فوق الأكتاف ، من شقوق الباب ،

يهرب بحلمه ليرى نور الشمس ، يحمله على عود صبار نفض شوكه،لتظل الصبية تسكن ذاكرته .. هل يهديها الحلم ؟ هل تقبل ؟ .. ينتظرها ؟ .. تشخص جميلة في تساؤلاته ، تهتف ملء كيانها ، هي آتية ، الوطن والحلم .. طيور بيضاء لا تمنعها حدود ، ونجوم نسيها الليل .. لشمس غاربة ، قمر تاه عن مداراته .. وطائرة ورقية تحمل قلبه وتطير من على الحدود .. تعبر لآخر المسافات .. ينفلت خيطها من راحته .. فتتكسر دمعة داخله ، وهل لجميلة أن تملأ ذاكرته وتظل حلماً يراوده ؟ !.. وهل تحمل قلبيهما طائرة ورقية تشق قلب الريح فيغتسلان برغو السحب .. يلم راحتها في يده يتلمسان مواقع النجوم .. يلملمان خيوط نور نسيها الليل .. يمسحان غباراً تكوم على سطح بيت تحتضنه سماء وطن هناك .

****

يوم التقت بصديقه حاولت أن تقرأ من عينيه حكايات قديمة ، كان رفيقاً له فيها .. ينطق لها باسمه .. تعرفه حكاية .. واليوم يجلس أمامها .. حكت له بنبرة هادئة وعينين شاردتين :

- أنا.... وأبي .. عاش بعيداً عن بلدته .. غريباً هنا .. وهناك .

صمتت قليلاً تسترد نظرتها من هناك تنظر وجه الرجل الجالس أمامها ، فيطل من عينيه السؤال :

- وأنت يا جميلة ؟

- غريبة هنا .. كما ..

ولم تكد تكمل جملتها حتى التقط منها كلماتها قائلاً:

- تعيشين التناص بين حياة أبيك الماضية وحياتك أنت .

يأخذ غريب حكاياتها المكتوبة .. ويلقي إليها بعالمه كله في روايات كتبها .. تركها وحيدة ترنو نجمة النواتي حين قالت الصبية :

- أنا ابنة أبي.

يهمس لها :

- هذا مرصدي .

وحيدة في جفاف الحلق .. جفاف الروح .

"أبي يحب المصريين ويرى الخلاص على يد عبد الناصر . "

تغلق ضفتي روايته ، ترنو للأفق .. وهج الشمس ، لهيبها ، عقارب ساعتها .. تقترب المشاهد البعيدة من بؤرة عينيها تسأل :

- هل قطّع الحدود؟ .. رفح مصرية .. فلسطينية .

تخرج من صدرها تنهيدة تؤنس قلبها .

الآن تعب رئتاه هواء البلاد هناك .. تلم نظرتها من الأفق الممتد شمالاً .. ونورس يشق الموج بجناحيه .. يغوص .. يطفو .. يعلو .. يسابق الريح ليتجه شمالاً .. ونورس قلبها يعود إلى كلماته في جفاف الحلق :

"أبي يؤمن بالرجال الأنبياء والأتباع المخلصين ."

- هل المجدل بعيدة ؟ حين أراها سأظل أجري على نفس واحد ، وأنى له هذا !! ؟ وذكريات موت في المجدل .. لحم مدفون ..

ومتناثر .. وعائلات تختفي تحت أشجار التوت والجميز .. لرحيل ومتاهة .. يتلفح باسمه .. يرسم خريطته المجدل .. عسقلان .. ينفض اسم المولود عنه .. ليحمل خريطة من كلمتين .. غريب عسقلاني . وهل جمعهم تناص آخر .. غريب وهي .. وأباها .. لتظل نوافذ البوح مشرعة .. وكلمات حبيبة لم يجف مدادها .. تهدهد روحها ...كأني التقيتك منذ بدايات الطفولة، منذ كنعان الحروف الأولى ، رافقتك قبل اللحظة آلاف المرات .. أبصرتك في منابت الحكايات وخواتيمها ، تنهضين من هنا ..وهناك .. ضمادات تعيد للروح المتعبة لحظات الهدوء الغائبة ، وتمنح الآفاق المهدورة مواسم ودلالات جديدة ... وجهك يا جميلة سماء بهية ، مغلفة بقلادة من الأسى ... أجنحة مرهقة مرهفة تنتظر الضفاف وتأبى الاقتلاع... يصلني صوتك من هناك ... قصائد تسيل نجوماً وشهباً .. تلامس فيافي وتلالاً هنا .. فتورق أرصفة العمر مواعيد عشق تضيء وحشة العالم وسماواته المحظورة المحشوة بالضباب ..

ودمعة لا يصلها لهيب الشمس .. تتكلس على مائها .. تحضنها ورقة ريحان في حوض حديقة كنعانية .. من جبال الماس لا تتبخر ولن يطويها ضباب مسافر ..

وأمنيات أن يظل قمرها ساطعاً بلا عبوس .. ليال قمرية تصل حافة النهاية ، لم تنفلت بين يديها ، ممسكة بخيوطها ، إلى أن تعرى آخر خيط على حدود الفراغ .. حاولت سحبه فظهرت لها خطوط نهايته

البيضاء .. ودموع الأمس لم تغادرها .. ودمعة تستقبلها على آخر حد خيط من شلة لفت خيوطها حول حدقة عينيها ..

قمر يولد من بطن العتمة .. يضيء الكون .. ينتشر ضياؤه .. أسماك لاتغريها مصابيح الآدميين .. تهزأ منهم .. يرتقون شباكهم .. يكتهل القمر .. ويكتهل قلب جميلة .. يمضي إلى عتمة أخرى .

الفصل الأربع والأربعون

أخناتون

لحظة أخذت مكانها في مقعدها من قطار يحملها إلى المنيا ، يشق الأرض يلقى من جوفه أناسا من هنا وهناك يحملون أحلامهم .. مشرقة .. مكدودة على أرصفة المحطات .. تفتح رسالته الآتية من قلب غزة .. انتابتها نوبة حزن من كلمات كتبها إليها ((أقرأ كثيراً وأكتب أكثر.. هموم الكتابة أنهكت قلبي يا جميلة .. السكون موت ، الإغفاء موت ، الذهاب للقيلولة موت ، الحروف المنتزعة من دمنا هي الباقية .. نجاحك قمم فرح تملؤني .. كم أتمنى لو كنت شاهداً على إشراقة طلتك وأنت تحملين فلسطين إلى ساحات جامعة المنيا))

أرخت يدها الحاملة لكلماته ..

تسأل :

- هل تعب قلبي من محطات الرحيل؟... قلبي صرخاته ضائعة على محطات تأخذني من هنا وهناك .. وجه أخيها وآخر لقاء كان معه في آخر مساء من صيف كان الأخير .. وحاجياتها المتكومة على سريرها دون حقيبة سفر تلمها ، شد إليها إحدى حقائبه ومذياع صغير تسكن إليه كل محطات الكلام .. من القاهرة إلى عمان.. لبنان.. تضم راحتيها ترفع عينيها لسقف العربة ترقب اهتزازات الحقائب المستقرة على رفوفها ، تتأرجح يد حقيبتها التي جاء بها من روما .. مدينة قديمة طوته إلى رحلة بعيدة .. ومذياع التقطت الأذن منه خبر اغتياله ، تخرج تنهيده من فؤادها تلاحقها تمتماتها

محطتي القادمة .. هي المنيا .. تل العمارنة .. ولا أدرى ما ساجده عليها .. استسلمت للوقت الطويل وللعربة الضيقة على أنفاسها وأفكارها .. وطن لها شمالاً .. ووطن ينتظرها جنوباً .. ودوماً تلقى بها المسافات في اتجاه معاكس .. رنين الهاتف وصوت د / التلاوي يسأل :

- أين أنت ؟....

تتلفت حولها .. تهمس لها من تجاورها نحن نمر" ببني مزار" .. وما هو إلا وقت قصير حتى كانت تطأ بقدميها أرض المنيا .. تشق بخطواتها رصيف المحطة إلى البوابة الرئيسية " د / جمال التلاوي" يبتسم .. يرحب بحفاوة وتقدير، ينطلق بها حيث النهر العظيم .. وغفوة النيل على حكايات لم تفن ولم تمت .. تحمل صفحة مياهه صورة إخناتون يقابل وجه نفرتيتي .. وسيدة تتألق الأرض بجمالها ، وجمال يطل من محيا إخناتون ، إلى أن غرب مع شمس نهار لا تعرفه ، ولم تخجل الشمس أن ترتفع في الأفق لتسقط على رجل كان بالأمس ملكاً واليوم ذاهب لمنفاه الأبدي .. ومن على ضفة النهر تلمع في ذاكرتها كل المدن القديمة كنعان وآرام .. ومدن من شمال وجنوب شهدت صباه .. حوريين .. حيثيين .. ميتانيين .. لتبقى الحقيقة كامنة فينا .. يمضي بها الدكتور جمال يشق طريقه في قلب الجبل ، تتعثر قدم جميلة على تلة رملية .. يعلو صوت من قلبها :

- هل لحبات رمال أن تدفن ما تبقى من ذلك الذي يعيش في الحقيقة، حكاية إخناتون .. وشبح مدينة كان فيها ، هجرها أحياء قبل أموات.. هائم على وجهه في فجر حياته .. وهائم في غروبها تلتفت إليه تسأله :

- كم تبعد عنا تل العمارنة ؟

- قرابة ثلاثين كيلو مترا

يعود الصوت يعلو في صدرها .... أرض غريبة .. غريب في أرضه.. وتراب أحبه .. أخذه بين طياته ، يخفى عظامه وأشلاءه .. من يريد الحقيقة .. ليعيشها .. كما ..

يتوقف الصوت عند حافة الجبل الممتدّ لضفة النهر .. وصور ماضية كروان البرية يحوم في سماء المنيا لم يطو جناحيه بعد .. باحثا عن هنادى فى ذلك الجبل العنيد ..

يلف الدكتور ساعة يراقب الوقت قائلاً :

- لازالت أمامنا فرصة لأدعوك لزيارة بيتنا قبل بدء الندوة..

على عتبة داره بوابة حديدية موصدة .. ولحظة سماع آلة التنبيه تفتح أمامهم لتخطو على أول ممر طويل لحديقة بيته .. تكعيبات خشبية مجهزة لتتعربش عليها عيدان زرع لم يشب بعد ، ولم تنقش عليه حكايات الذكرى ، عند آخر الحديقة كان ملحقاً لها .. تذكرت أبو عصام حين ترك المخيم وجاء ليقيم معهم .. ودوالي تبرعمت على يده .. دارت بعينيها حول المكان وجلوسه تحت تكعيبة لم تشب

عليها أوراق الداليا .. ألقى بها حيث هنـاك .. إلى قهوة أمها وحنين أبيها.. في جلساتهما بين أوارق تأنس وتفرح لهمـا ، ومـا بين بيت جمال وبيتها مسافات قد لا يدركها هو ، ولكنها تزداد اقترابا لتتوحد الأمكنة هنا إلى هناك ..

وكيف لجميلة أن تجد بيتها من أعواد ثقاب في " أخت آتـون " منيا.. شبابيك بيته مشرعة على امتداد عريش الداليا تنتظر ازدهار أحمالها لتتجذر على أرض المنيا ، تمتد فروعها .. لتصل إلى هناك حيث بيت يشبه بيتا وأرض تشبه أرضا .. ونسمات هي ذاتها النسمات المداعبة لأوراق تهتز تعانق الريح الحاملة لحكايات الجدود وموال الحنين تغزله خيوط الشمس الممتدة من أرض فلسطين لتنتهي على أقدام إخناتون بأيد ممدودة تقول له:

- إنها حياة .. من هناك حيث أخيت آتون .. وموال فلسطيني يذكره بأن الحقيقة يراها الإنسان وقد لا تراها عين الملك .

الفصل الخامس والأربعون

بريق الماس

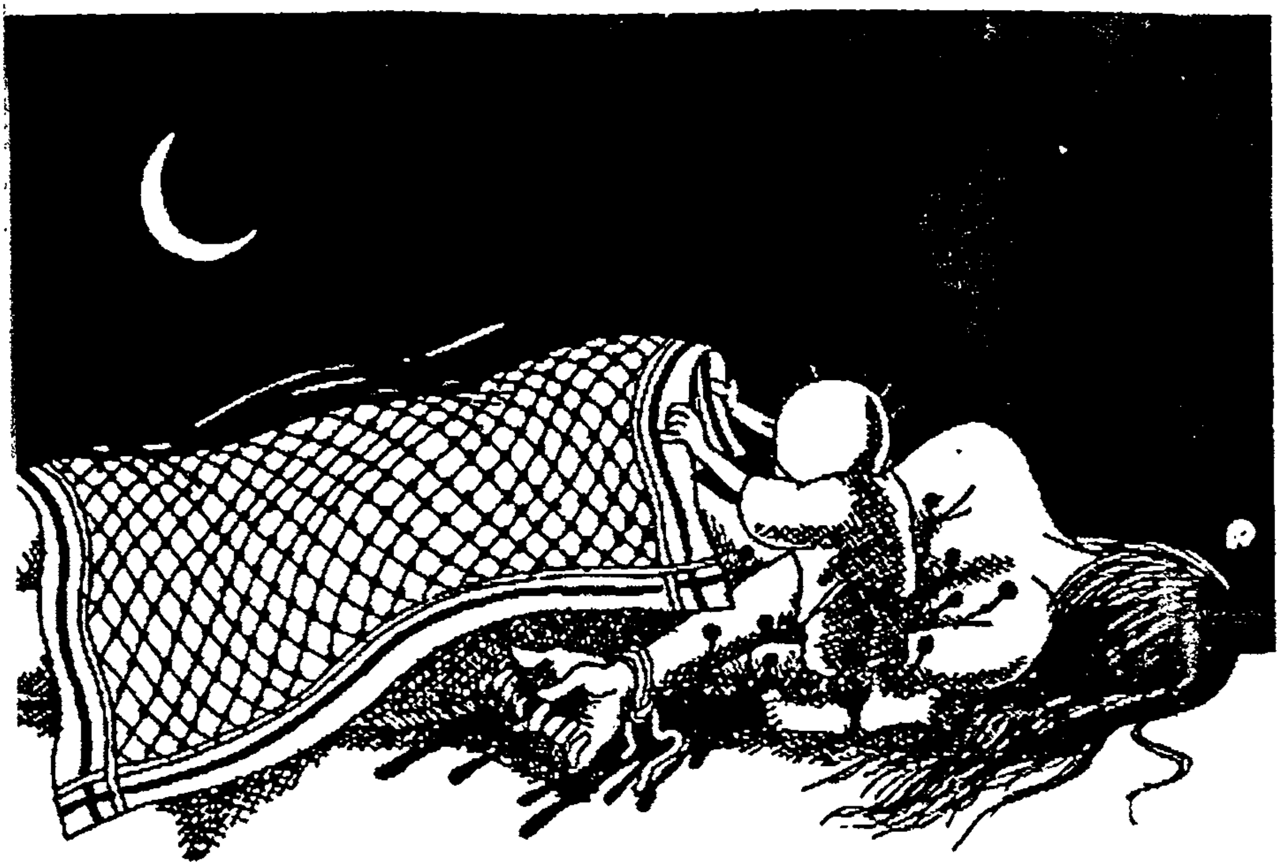

من المـوت السـريري ولحظـات الترقـب ، ورهافـة السـمع عبـر المسافات الطويلة .... هل تصل دقـات قلبـه إليهم .... أم أن مجاري الدم في جسده تتدفق منهم .... وصور له ترسمها خيالات من هنـاك، لسرير في غرفة زجاجية ، تجاوره أجهزة ترسم له خطوطاً حية، قد تصبح ميتـة ، لـذات القلـب ، لـذات الوجـه والأنامـل المرتخيـة علـى طرف ما ... في سرير ما .... من غرفة ما .... تلك المرأة الصماء... العمياء التى ظهرت لهم ، تمد يدها إليه ، تتلقفه ، تتنبه ذات العينين العسلتين ، بأنها هى رفيقة دربه ....

- منذ متى كنت رفيقة ؟ ....

ترنو إليه بعينيها المتصلبتين المتجمدتين :

- مـن لحظـة كنـت.... أنـا فقـط زوجـة الـرئيس ، ومـن يومهـا أصبحت...أنا السيدة.

يجاوبها كسيراً واهنا :

- لم أكن أريدك .... لم أفكر فيك ، ولكن كـان القرار هو سيدي .... القـرار حـين يأتينـا كطوفــان المـوت يحصـد النفـوس التائهـة المسحوقة... كنت قرارا ، أجدت تنفيذه

تضم جفنيها ، تشتد انطباقا وانفراجا ثم ترفع له رأسها مزهوة، تعب رئتيها بهواء مثقل بالعقاقير والأبخرة... قد تحيي .... وقد تميت....

- إذن أنا صناعة القرار من هناك .... ومن هنا الآن .

تصمت برهة ، لتعود تهمس له .... تبثه حرارة أنفاسها التي كانت، تتكيء على حروف كلمات تنطق بها :

- وغداً أنت هناك يا سيدي الرئيس .... أقصد .... يا زوجي العزيز.

يندفع دمه المتكسر في شريان الحياة المؤدي إلى عقله حاراً... حارقاً

- لم تكوني يوما هي التي .... ولكنك كنت وبت اليوم معك هنا ....

تتسرب آهاته عبر أنفاسه المطرودة دون عودة تحمل تأوهات روحه الملتاعة بالحسرة تردد عليه سيرة ومسيرة...

- أنا الذى طرت في أقطاب الدنيا ، عشت طائراً أكثر ما كنت سياراً... نمت في كل بقاع الأرض ، تحدثت بكل لسان ، تجولت في كل العقول وأجدت صنعة أنا الماهر بها ، وحولي عدد وعدة تعلموا منها الكثير ، ولكن سر نكهتنا لا يعرفه سواي أنا .... أنا الرئيس .

من طرف عينيها تنظره ساخرة .... ومن ظلال أهدابه المنسدلة على حافة الغياب تتخبط نظراته إليها تهكماً :

- هي الدولارات .... ولن تسعفك ساعة الزمن لعدها .... أخذتها ومضيت تعيشين .... ترغدين هناك .... ضقت من طرقات المدن ، ومن مشافي غزة الحزينة وليلها الذى من عتمته يرسم مدينة غارقة فيه .... وكان الدولار منه البداية وإليه النهاية ....

تخايله دفاتره المصرفية ، المذيلة بتوقيعه على مصروفات لفساتين الصبية ، ألعابها ، وصيفاتها .... طبيبتها .... وأخرى لزوجة الرئيس وتوقيع لحفلاتها ، دعوات ، نزهات ، وليال من ألف ليلة وليلة ترمقه في نظرة التشفي ، لا يلحظها سواه وسواها ما تلبث أن تبدل قناع وجهها حين تلتفت لأناس يحيطون بها ، لتحل نظرة الأسى والشجن ....وحنين لأيام مضت ، تستحلفها لعودة .... فلا تسعفها سوى تمتمات باكية تظهر لمن حولها وكأنها الهذيان

أما هو المستلقي على حافة الغياب يستعد لرحلة من موت سريرى.... يحرك بعضاً من أطراف أنامله ....

- أنا بيدى هاتين عبثت بمصائر، وأجساد مزقتها بالحرق ، بالردم، قرارات صنعتها لتصفيتهم ليحضنهم ثرى ، يتفاوضون معه ، تفاوض العدم

وأنامل له أخرى تعود تصحو من استكانتها ورقادها ، ترتعش .... تهدأ .... لحديثه إليها :

- بيدي أعليت أناسا من على قارعات الطرق ، ومنحت ألقابا لوزراء... وأوجدت ما بين وزارة ووزارة وزارة ... بيدي ألقيت فى جوف غزة أطفال صبرا وشتيلا ... منحتهم إسم الرئيس ... ولكن طرقاتك يا غزة... كانت لهم وطناً وأهلاً ... ولكني أنا .... أنا الوحيد الذي جعل هذا الشعب خلف عقارب الزمن الدائرة سنوات وسنوات ....

ولحظـة اقتـرب الطبيـب منـه ، يحـاول أن يرفـع رأسـه عـن الوسـادة لإنزال كوفيتـه المحوطـة لرأسـه والملتفـة حـول رقبتـه ، رفـع لـه يـده مصـارعا بهـا لثـوان الـزمن الممتـدة ، وكأنـه يرفـع بهـا جبـل مـؤاب الرابض على أرض كنعان ، يحاول بعناء أن يجمع كل ما تبقى لديـه من قوة ليحول بين يدي الطبيب وكوفيته المسيجة ....

إرتد الطبيب إلي الوراء ، لكي لا يتمادي في ازعاجه ليزفر الرئيس بأنفاسه ، فتسرى في جسده راحـة آخر زمن لـه ، وأفكار لـم تكـف تتجول في مسارات شرايينه :

- كـوفيتي يـا حاملـة السـياج .... سـياج لازال قائمـاً هنـاك .... لـن أسمح لأحد بـالإقتراب مـن كـوفيتي ، سياج وخيمـة أشـدها مـن فـوق رأسي لازالت قائمة، وعهد عاهدته لهم ولنفسى أن تظل تلك الخيمـة هى ذات الخيمة وليس سواها .... لن يبرحها ذلك الفلسطيني ، خيمة أنا صنعتها له عبر نصف قرن من الزمـان... مـا أكثر الأغبيـاء مـن حولى، لم يعوا أنها مفكرتـي الدائمـة أنـام وأصحو بهـا لكـي لا أنسـى ميثاقا وعهداً... لخيمة واحدة تكفي ..

ويغيب الرئيس ، يأخذه موت سريري ، ولكن هل لخلايـا الدمـاغ أن تتوقـف؟! .... أن تنسـى رمـوزاً لازالـت مشـتعلة .... أسـماء حفـرت تاريخها على صفحات ناصعة ....

الإسم .... كان الشهيد .... وزوجة كانت لـه ، تتقدم للرئيس لصرف مستحقاتها ، يبتسم لها ، يأخذها بين ذراعيه ، يقبل جبينهـا، رأسـها،

كتفها ، يقبل ويقبل .... يهنىء فيها كل ما يعلن عن فقد ذلك الشهيد الذى أرق منامات الرئيس على مقعد الرئيس ، على عهود عاهد بها.... لتظل التصفية ....هى تصفية الجسد....وتوقع تلك الأنامل بهمة على الورقة المصرفية لتصرف آلاف الدولارات ، فيلا لزوجة الشهيد ، ومفروشات إيطالية لبيت الشهيد ... و ... و ... ولكن لشرط واحد أن لا تعلق صورة الشهيد ، بل تطلي حوائطه بطلاء يمحو من الذاكرة كل الذكرى ....

وتنمو زهرة من صلب الشهيد .... هي إبنته ولا تعرف لأبيها رسماً يحمل ملامحاً له تدلها عليه .... كل ما تعرفه هى ورقة مصرفية تقرأ فيها " مخصصات تصرف لإبنة الشهيد "

ويوم وشوشت جميلة زهرة لتدلها على قبر أبيها الشهيد ، قد تسافران معا ، وتأتيان بجثمانه وتعبران به النهر ....

استنكرت كلماتها ، عبست لها .... وأشاحت عنها قائلة :

ـ لو كان أبي الشهيد يحبني ، أو فكر في ابنته لما استشهد

و توزع بطاقات عرس زهرة .. لم يكتب عليها لقب الشهيد .. فالأفراح تود أن تعلو بزغاريدها وايقاعات طبولها .. كتبوا عنه مرحوم .. فاطلبوا الرحمة

جميلة وكلمات.... جملة من كتاب .... دمعة على فراغ .... الكلمة وحدها .... الحرية وثمنها ....

هل استطاع أن يسحق زهرة وأجيالاً بعدها ؟!....

يجتاحه ألم يعتصره يفتته ، ألم فراق ذلك الجماد الأخرس عن الحقيقة ، مقعد الرئيس ، ومائدة تستدير حوله يقيم حولها رجال ورجال وغوارب صيف كان الأخير لرجل كان يدق الأرض بقدميه ، وكيف تمت جراحة لقدمه ، بسحب لسانه من مؤخرة كعبه المبتور ، ليصمت آخرون فكل منهم لا يحب أن يدق الأرض بقدم واحدة ، بل اثنتين لتمضي ورائي ....

- آه يا فراق لم أكن أدري أن صيفاً كان هو الأخير لي أنا الراقد في موت سريري

وخيمة لازال يرفعها في كوفيته تحمل سياجا على رأسه تأخذه حيث صندوق من خشب الأبنوس اللامع ، يلفه قماش من زهرة القطن طليت عليه ألوان تمحو الذاكرة

وقفت جميلة أمام شاشة التلفاز والجميع يتوافدون لتشييع الرئيس... مئات آلاف .... يهتفون لمن عاهد نفسه وعاهد .... على أن تكون هى ذات الخيمة وسط سياج .... خيمة واحدة ....

ما الذي دفع هذه الجموع تحت أقدامها ترفع سواعدها لحمله حيث حفرة أخيرة يسقط فيها ؟!.... ما الذي يبغونه من جثة همدت وأزاحت بأنفاسها الراحلة ستاراً أسود عن مرحلة سوداء؟!.....

هل هو اللاوعي على ما حدث وما سوف ؟....

والآخرون كل في عينيه بريق على مقعد خلا كان لذاك الرئيس....

أمـا تلـك التـي أودعتـه المطـارات الغارقـة فـي العتمـة إلا مـن قطعـة ماسية تتـوهج علـى صدرها .... بذات الطـلاء .... طـلاء ألـوان علـم فلسطين صناعة ماسية وذاكـرة غائبـة عـن سـياج يضـم خيمـة .. وامـرأة هـى ذات المـرأة صـاحبة الوجـه مـن تـل الزعتـر .... ووجـه لكبريـاء حـزين تجلس علـى طرقـات المدينـة العتيقـة تبيـع سـل تينـها فيلمع الألماس ويشتد بريقـه ليكشـف عـن كـل الحقـائق فتبدو عاريـة تعمي العيون ....

بريق الألماس من هناك .... حيث بوابات القدس التـى تحتضن المدينـة العتيقـة ، ورجـل لازال واقفـاً ببواباتهـا يبيـع حـلاوة السمسمية.

ومـن قـوت هـذه .... وذاك يـزداد لمعـان الألمـاس علـى صـدر السـيدة التـى أرادت أن تكـون زوجـة الـرئيس .... وزوج عـاش ومـات ليكـون هـو الـرئيس .... وخريطـة .... هـى ذات الخريطـة خلـت مـن كـل ألـوان الطـلاء .... تحفرهـا يـد الصـبى فـي تـلال رملية... فتمخر سابحة في عروق أصحاب الأرض، فتتوهج لهم كل ماساتها من هنا .... وهناك....

الفصل السادس والأربعون

من هنا .... وهنـاك ....

فى التاسعة مساء من شتاء عام ٢٠٠٤ وموجة حزن تنهش كيانها فى غرفتها الساكنة، تصدها موجة نعاس قد تنجيها من أوجاع تعصف بها... حزن وغربة... تتململ فى فرشتها، ينسل جوربها من أطراف قدمها، يمد يدها تبحث عنة، تلتقطة لتدس قدمها الباردة فيه، تلف ساعتها على معصمها، تنظر الوقت... العاشرة... مرت ساعة، لا تدرى أين ذهبت منها فى ذاكرة بعيدة تضيعها فى نوم لم تسترد عافيتها، تصفن فى سقف حجرتها، تشد قامتها قليلاً لتسند رأسها على ظهر سريرها، تفتح عينيها عن آخرها وتسأل:

- لو أعرف من أين أتى ألى هذا الكم من الحزن؟!... يكاد يصرعنى فى مكانى... تتحول ببصرها ترنو مكتبها المجاور لها، يطالعها وجه " قسطنطين سيمونوف " بنظرته البعيدة لفضاء بلاده " كنت وأبقى صحفياً " وكيف وضعته بجوار رفاق له انتهت من قراءة ما كتبوه، ولكن

هو قسطنطين الذى أسند كتابه كلوحة يطل عليها بوجهه، هل يعطيها معنى التحدي، الصلابة، المواصلة، المنتمي ونبات العمر فى كاتب وكتاب، خلف فى نفسها وحده وحزناً... وأنها فى هذا العالم وحيدة، تفتقد الرفيق و الأنيس... بالأمس ودعت آخر كلماته وما كتبه عن أرنست همنجواى، وكيف يموت البيت قبل أن يموت من عاش فيه، وأشياء أسواء من الحرب، الجبن أسوأ، الخيانة أسوأ، الأنانية أسوأ وحين تحدثهن "اليزا تريولى" ... إمرأة عنيدة لاتتفادى زوايا حادة تواجهها، بل تصطدم بها وتصاب برضوض..وهل ما أصاب اليزا أصاب جميلة؟!.. "بيروسمانى" فى حياة صعبة وموت فى أحصان الفقر والنسيان، عصامى رائع، ولوحات جورجيا القديمة... أعشاب تحت الأقدام...السماء فوق الرؤوس... البساتين المعتمة فى المؤخرة... على قطعة صفيح يرسم، على مشمع أسود منزوع من طاولات الغداء... يرسم بلاده وأناسها العائشين على أرضها...

" تولستوى " " الحرب والسلام" وكيف يموت الناس وما هى رائحة الجرحى... وما هى رائحة

الموت..."بابلونيرودا" المتحدى الهادئ، لم يقطع الأمل من نجاة شخص ضل الطريق...
برحيلهم يطبق العالم عليها، مرخياً كآبة، تسدل ستائر الصمت والوحشة من حولها... عادت جميلة وحيدة دونهم، ليس أمامها سوى النهوض، فلازالت لديها أنفاس باقية.

* تمت *

كيف نلملم ضفائر الأسئلة يا بشرى

(ب)

يبدأ السؤال وشوشة خجولة.
يصبح السؤال طفلاً مشاكساً يدق على قشرة الدماغ.
يكبر السؤال.
يفترش المساحات، يتسرب إلى الخلايا والمسامات، يسكن روابي الأمكنة، ويناوش هامات الأزمنة.
يصير السؤال الجغرافيا والتاريخ والوطن.
الجغرافيا كما الحقيقة لا يمكن غيابها، ولكن يمكن تغريبها فهل يمكن تغييبها؟
والتاريخ أجندة دفاترها الأعراس، والأفراح والنوائب. أما الوطن فهو الساكن فينا حتى ذروة اللهيب.
فهل تسلل الوطن فأصبح ذاكرة؟
وهل يغادرنا يوما؟ لأننا عاقبناه بالجحود، فلجأ طريداً إلى ذلك البرزخ السرمدي بين الأجندة والخارطة، ينعي تلوث الأجندة ويخلص لذكرى الخارطة الموجلة بفعل فاعل، على مرأى ومسمع الأب والأم والأخ والصديق، وحتى العشيق.
فالوطن كالقمر، لا يخطئ مداراته، يختفي ليعود أكثر بهاءً. أصبح الوطن ذاكرة يتوارثها الأحفاد عن الآباء والأجداد.
كيف يمكن إنتاج الذاكرة من جديد؟ في زمن كل أصبح فيه شيئاً معلباً ومصنعاً لدرجة الاستنساخ، وإنتاج النظائر والأشباه، وقذفها في أسواق العالم على أنها الحقيقة البديلة هل تدخل الذاكرة في معمل البدائل؟
ما الذي يحدث من حولنا ونحن العراة إلا من أردية الحلم؟ فهل يتحول الحلم من قميص نتجمل به، إلى وطن بديل وعلى أحدث مواصفات تكنولوجيا العصر.؟

ذلك السؤال على اختلاف صيغه يسكننا وجعاً ونسكنه وطناً هي الورطة يا بشرى وأنت لا شك تدركين.

(ش)

يكبر السؤال.
الحارق مثل لسعة النار على بياض العين.
الواضح مثل دمعة الديك عند مولد الفجر.
المؤلم مثل خازوق يعبرنا ولا نملك غيره، نشكله عمود خيمة في أزمان اللجوء (وما أكثرها)، ونحوله بندقية تأخذنا إلى الموت في حالة وجد، أو نلفه حزاماً ناسفاً نتشظى معه لنحتل الحقيقة عند خالق الكون ومالك الأوطان.
نقف من الدنيا مبهوتين، موهومين، زادنا الوحيد ممارسة الحضور، تمطرنا لعنات العالم، وتمطر علينا سحب الوجد فنعبر إلى الوطن/ الخارطة/ الأرض.
وها هو السؤال الذي بدأ وشوشة، يتحول إلى أجوبة تتناسل منها ملايين الأسئلة
أو لسنا أبناء الورطة؟ والورطة ما زالت قائمة.
فكيف نلملم الأسئلة في ضفيرة بديعة نتباهى بها، ونفرق إجاباتها من بطن الحقيقة.
مهمة صعبة، دروبها شائكة، والإحباط ثعلب يتربص عند الزوايا، والمنعطفات، وذئاب الكون تتحفز للانقضاض...
كيف السبيل؟
ونحن الروائيون من أخذوا على عاتقهم حماية الحلم/ الوطن. لا نملك غير حقيقة تسكن أغوار نفوسنا، ولعنة جميلة تميزنا وتلقي على كواهلنا مسؤولية إنتاج الأسئلة روايات وقصصاً، مساحتها الوطن وزمنها التاريخ ماضيه وحاضره ومستقبله، وهكذا الحياة التي نعيش والحياة التي نحلم بها.
كيف نقدم واقعنا كما نشتهي ونرغب، لا نفتات عليه، ولا نتزيد في مطالبنا منه حتى لا نسقط في المزايدة، ونسقط في مرجل الصراخ الأجوف، ونرسب في امتحان الإبداع.

فالإبداع له أسئلته الصارمة مع من يحاولون الخلق بعد الخالق. فكيف تقدم الحياة على جزء من معطيات الحياة، وكيف نستدرج شريكنا المتلقي حتى يدخل في الغواية، ونقنعه أن الافتراض (الرواية) أصبح الحقيقة (الحياة) .
وبذلك تتم المصالحة بين المبدع والمتلقي، وتحدث المصادقة، فتتحرك الروح فيما نكتب وهذا هو الفوز العظيم الذي نطمح إليه. أن تكون رواياتنا أكثر مصداقية من حيواتنا، وبذلك نترك بصماتنا ونمضي.
يا لها من أسئلة يا بشرى!!
تندغم فيها معطيات الواقع مع أسئلة الإبداع ويتجلى عندها موقف المبدع من إشكاليات الوجود.
أو ليست الكتابة وجهة نظر ؟!
ما الذي يؤرقك يا بشرى أبو شرار؟
وأي الأسئلة يتربع أمامك، ويدخل معك في رهان تقديم الإجابات المقنعة؟
كيف تعبرين إلى طقس الكتابة؟ وكيف تتهيأين لمخاض مولود جديد، وأنت الأم التي عرفت المخاض البيولوجي؟
أي شياطين تحاصرك وأي ملائكة تسكن صدرك؟
كيف يشتعل رأسك عندما تدخلين وجد الكتابة؟ وكيف تتجلى الأفراح على الورق؟ كيف تحدث الانتصارات والهزائم؟ وكيف تتدفق شلالات الأحزان؟ وكيف تتبرعم نوارة الأحلام.
أو ليست الكتابة بعد مخاض صحي وحقيقي حالة أثيرية، ولذة يتزود بها المبدع طاقة جليلة تدفعه إلى الأمام؟
رأيتك يا بشرى تدخلين طقس الكتابة محملة بالأمثلة، مثل ناقة عطشى تعبر الربع الخالي تحمل البضائع النفيسة، شغلك الشاغل إعادة ترتيب ما تزودت به في رحلتك الطويلة، لتعيدين طرحه فصولاً وحكايات سفر يتزود بها من لا يستطيعون الرحلة.
والرحلة ذاكرة مضيئة شفافة، وأسلوب رشيق له مفرداته التي تشير وعند أكثر من علامة أن للكتابة عوالمها وديباجتها ولها صوت مميز يؤكد للقارئ أن بشرى أبو شرار مرت من هنا.

(ر)

عبد الله تايه يعطيني أعواد ثقاب.

- هذه رواية لكاتبة تقيم في الإسكندرية.

توقعت أن أقرأ مدينة الإسكندرية التي عشت فيها مرحلة دراستي الجامعية قبل ثلاثين سنة، وتهيأت لعبور دروب الإسكندرية بعد غياب طويل، لكن الرواية أخذتني إلى دروب غزة، أطوف معها على أماكن أعرفها جيداً وأحل ضيفاً على بيت طالما زرته وجالست صاحبه واستمعت إليه بشغف واهتمام.

في الرواية تشعل بشرى أبو شرار أعواد الثقاب الرهيفة، تسترشد بلهيبها الصغير، وتقدم سيرة روائية معبأة بالدفء والحب والجوع إلى أحضان الحياة الأولى.

أكلت من زاد الرواية خبز ماجد أبو شرار المر، وذقت مجدداً مرارة غيابه في لحظة عبثية كما هو شأن حياة الفلسطينيين.

يسألني عبد الله تايه:

- كيف رأيت رواية أعواد ثقاب.
- بشرى قدمت رواية جديرة بالقراءة.

وأخذت أقلب في ذاكرتي من تكون بشرى هذه من بين بنات الرجل الذي أعرف؟ من هي من بين الصبايا المنطلقات الى الدنيا بكل شهوات الحياة، زادهن البراءة والبراءة فقط؟ وأين يسكن ماجد في حياتها؟ وهل أدركته كما أدركناه معلماً ومثقفاً ورائداً وقائداً وكاتباً مبدعاً؟ أم هو الظل المقدس الذي حوصر في اطار صورة وتوشح بشريط أسود، وابتسامة هازئة/ غامضة، غموض الحياة من حولنا..

في رواية أعواد ثقاب تطل عليك البراءة، والصدق، والذاكرة الطفلة التي تحفظ التفاصيل، وكأن البعد عن الوطن يفخم هاجس النسيان، ما يفقد البعيد التواَصل، ويشكل خيانة للمواريث والمواعيد والمواسم ويؤدي الى خفوت نبض الحياة.

الكاتبة تبحث عن طفولتها، لتكتشف الوطن، وتصبح أكثر خبرة، وقد خرجت من تجربتها أكثر نضجاً، وقدمت رواية تبشر بروائية واعدة.

(ى)

كنت أتهيأ للسفر الى القاهرة، عندما دفع الصديق زكي العيلة رواية شهب من وادي رام.

قلت لا بأس من قراءة أولى ربما ألتقي مع صاحبة الرواية فيكون بيننا حوار.

وقبل أن أدخل الى عالم الرواية تساءلت:

هل سكبت بشرى ما فاض عن الحاجة في روايتها الأولى، فعادت تستعيد سيرتها الشخصية بعد أن غادرت طفولتها، وصارت امرأة ناضجة لها تجاربها وعالمها؟ وهل تخلصت من طفولة معلقة على أهداب الغياب والفقر، أم أن أعواد ثقاب كانت المشوار الأول مع الحكاية.

في المحاولة الثانية خيل لي أن بشرى تهمس بأن العالم في أعواد ثقاب كان شبه جاهز، فالأحداث والشخوص والمواقف حاضرة، الأم في مملكتها وعاداتها وطقوسها، والأب مع معاركة في القسطل وساحات القضاء، حتى تكعيبه العنب العجيبة التي تطرح عنباً بطعم المانجو، وبيت العائلة في دورا الخليل، وطابون العمة، ورائحة الخبز الطازج مغمسة بزيت وزيتون وجبن طازج وزعتر فواح.

- ماذا بعد

والحياة الأولى غائضة والمزار بعيد، البوابات والحواجز والقتل عادة يومية.

فهل تعود بشرى الى غواية التسجيل؟

أم أنه الفن يطرح أسئلته، يستدعي الأمكنة والأزمنة والرؤى.

المكان ما زال الوطن، والزمان أزمنة تتداخل، والرموز دلالات ومفاتيح وعتبات.

فكيف يكون البناء، وبأي الأدوات يقوم المعمار؟

لابد من لعبة جديدة، والغوايات كثيرة ومثيرة.

والأخوات في وادي رام شهب تضيء الليل حالك السواد، لكل منهن ميزات وخصائص، وطموح نحو الانفلات من الأسر، يخضن صراعاً مع زوجة

الأب الخائنة المدمرة، والأب حنون خانع يكتشف هول المصاب بعد فوات الأوان..

كيف تتوالد أحداث الحكاية، وعلى أي الخلفيات تستند؟
كيف يتم التعامل مع التاريخ والأسطورة.
وكيف تتم أسطرة الواقع ليقدم الدلالات والرموز التي تغوص في الحالة منذ لحظة الوجود الأولى، مروراً بالأحداث والأساطير والأكاذيب التي وجدت مرتعها في رقعة الوطن، وفجرت صراعات حاولت أكثر من مرة وفي أكثر من حقبة طمس هوية المكان والسكان.

فهل استفادت بشرى من التاريخ معيناً يفجر الحاضر ويعيد الاشتباك معه؟
هل قالت ما كانت تنوي قوله، أم أن الرواية انفلتت الى آفاق أخرى.
قراءة ثانية وثالثة ربما تساعد على إعطاء الأحكام الصائبة، ولكنك في كل الحالات تخرج بالاعتراف الأول أنك مع كاتبة معبأة بالحكايات لدرجة الامتلاء، تمتلك البوح بلا قيود، تتداح مع اللحظة حتى آخر المدى، وتقف عند عتبات الأسئلة الكبرى غير هيابة، لا تغريها محطة بعينها وكأني بها تقول:
"لم أقل كل ما عندي انتظروني فأنا في سياق المسافات الطويلة ولا أريد التوقف عند محطة أو اشارة".

أقول: يا ابنة الوطن وأخت ماجد الذي تسلل على عمق الأرض. ليمضي مع ماء الأردن، حيث تعمد المعلم الأول (المسيح بن مريم) لا تتريثي كثيراً وأنت في ذروة الاندفاع، وشدي قوس الوتر، بكل ما استطعت من قوة حتى ينطلق سهم ارادتك الى الهدف المحدد.
ولكن توقفي طويلاً طويلا قبل أن تغادري المحطات ، لأن لكل محطة موقع و ميقات ، فأنا أخشى عليك نسيان بعض الدفاتر في كل محطة، لا تمتطي القطار إلى محطة أخرى قبل أن تراجعي حصاد المحطة السابقة.

قد يكون حديثي مراوغاً هذه المرة، وهذه المرة أقول وبكل الثقة والصدق أنك كاتبة تملكين الأدوات.
ولكن هل يهاجسك السؤال؟
وهل مازال سؤال الرواية وشوشة أم أنه قفز عن شقاوته وأصبح أكثر صرامة.
لأنه لا يصح يا صديقتي أن نذهب إلى المدرسة قبل أن نتمكن من مخارج الحروف، ومخارج الحروف سؤال كبير في الأدب.
وكيف تطرح أسئلة الرواية فلسطينياً، ونحن على ساحتنا مازلنا نطرح الأسئلة ومازلنا نحاول الإجابة عليها..

مع تقديري ،،،

غريب عسقلاني
٢٠٠٥/٣/٢٠

الفهرس

من هنا .. وهناك ..
١ وراتها
٢ نقطة مرور
٣ تاشيرة دخول
٤ قارورة عطر
٥ حاتم وجميلة
٦ الصيف الأخير
٧ طائر الشمس الحزين
٨ كنعان .. وكرمل .. داليا
٩ من الصفحة الاخيرة
١٠ قطعة صلصال
١١ أزمنة طائرة
١٢ من نصل سكين
١٣ محطات
١٤ طريق النهايات
١٥ لأجل من
١٦ أنين مدينة
١٧ أمراة من هناك
١٨ حبات دموعها
١٩ حبات لؤلؤية
٢٠ بطاقة من القدس
٢١ قطاع الراس السوادء
٢٢ عثمان و ....
٢٣ لاجنة
٢٤ مدينة نعرفها
٢٥ المساكين .. أباء وأبناء .. ليزا
٢٦ ورقة نقدية
٢٧ قمر شاحب
٢٨ حنظلة
٢٩ كمال إسماعيل
٣٠ قمر بوبا
٣١ ماجد
٣٢ محطة راسم
٣٣ حبات العسلية
٣٤ عتبات وقصور
٣٥ مصرية .. أمريكية
٣٦ حافة الليل
٣٧ أذكرك دوما
٣٨ من رحى الحرب
٣٩ وكانت لهم حديقة
٤٠ وليمة مصرية
٤١ البطة البرية
٤٢ رمسيس
٤٣ حبيبة
٤٤ أخناتون
٤٥ بريق الماس
٤٦ من هنا.. وهناك..

الكاتبة في سطور :

- بشرى محمد أبو شرار
- من مواليد غزة - فلسطين
- ليسانس حقوق ـ جامعة الإسكندرية
- تعيش بالإسكندرية

صدر لها :

١- أنين الماسورين	قصص	٢٠٠١
٢- القلادة	قصص	٢٠٠٢
٣- جبل النار	قصص	٢٠٠٣
٤- أعواد ثقاب	رواية	٢٠٠٤
٥- اقتلاع	قصص	٢٠٠٤
٦- شهب من وادي رام	رواية	٢٠٠٤

٧ ـ اقتلاع(طبعة ثانية) ـ غزة فلسطين - ٢٠٠٥

تحت الطبع

شمس رواية

يسر الكاتبة تلقي الآراء في الرواية على العنوان التالي :
جمهورية مصر العربية ـ الإسكندرية ـ بريد السراي ـ ص.ب :
٣٥٢ الرمز البريدي ٢١٤١١
E - Mail : boshra_shrar2@hotmail.com

صدر من مطبوعات القصة :

١- أنين المأسورين	قصص	بشرى أبو شرار
٢- الدخول إلى الكابوس	رواية	الشربيني المهندس
٣- عبد الله يقرأ طول الليل	رواية	محمد خيري حلمي
٤- القلادة	قصص	بشرى أبو شرار
٥- على حافة الحلم	قصص	محمد عطية محمود
٦- بركان جبل الجليد	قصص	منى سالم
٧- ضجيج الصمت	قصص	آمال الشاذلي
٨- جبل النار	قصص	بشرى أبو شرار
٩- إلا الليل	قصص	فؤاد الحلو
١٠- أبجدية الدم	قصص	تهاني عمرو مرسي
١١- احترم القاموس	قصص	محمد خيري حلمي
١٢- أعواد ثقاب	رواية	بشرى أبو شرار
١٣- وخز الأماني	قصص	محمد عطية محمود
١٤- العائلة	قصص	أبو نصير عثمان
١٥- شط الغريب	قصص	منى سالم
١٦- اقتلاع	قصص	بشرى أبو شرار
١٧- وريقات تجريبية سكندرية	دراسات	الشربيني المهندس
١٨- جداول ودماء و خيوط الفجر	قصص	سناء أبو شرار
١٩- الشمس العمياء	رواية	أحمد محمد سعيد
٢٠- عيون	قصص	أبو نصير عثمان
٢١- شهب من وادي رام	رواية	بشرى أبو شرار
٢٢- تدحرج الصور	قصص	الشربيني المهندس
٢٣- المشهرات	رواية	منى سالم
٢٤- عين شمس	رواية	محمد خيري حلمي
٢٥- السمندل	رواية	فؤاد الحلو

٢٦- لحظة إغتيالي	قصص	آمال الشاذلي
٢٧- فراشة الطين	قصص	عبد العاطي فليفل
٢٨- مرج الكحل	متوالية قصصية	منيرة عتيبه
٢٩- تشتيت إلى موت	روايات	محمد خيري حلمي
٣٠- المياة البديلة	رواية	أحمد محمد السعيد
٣١- أنين مدينة	رواية	سناء أبو شرار
٣٢ - كل ليلة	قصص	سعيد عبد النبي
٣٣- غيوم رمادية مبعثرة	رواية	سناء أبو شرار
٣٤- على شواطئ الاثنين	دراسات	أحمد فضل شبلول
٣٥- مرتفعات .. منخفضات	رواية	محمد خيري حلمي
٣٦- من هنا.. وهناك	رواية	بشرى أبو شرار
٣٧- أوراق الميرامية	رواية	سناء أبو شرار
٣٨ -زهور باسمة	قصص	أبو نصير عثمان
٣٩ - أمواج عاتية	قصص	أبو نصير عثمان

تحت الطبع :

١- زفير قمر	قصص	هبة بركات
٢- شارع بوالينو	رواية	إسلام علي حسن
٣- بلاد الغربة	رواية	سعيد بكر
٤- كتابات المضطر	رواية	محمد خيري حلمي
٥- طريق الأسفلت	رواية	منى سالم
٦- الرواية نبض العصر	دراسات	عبد الله هاشم
٧- شمس	رواية	بشرى أبو شرار
٨- روائح الزمن الجميل	قصص	منى عارف
٩- شيطان كريستال	رواية	فؤاد الحلو
١٠- للجبل وجه آخر	رواية	عبد العاطي فليفل
١١- الكابينة رقم ٤	قصص	مصطفى زكي نصر

رقم الايداع ٣٦٦٨/ ٢٠٠٥

تم اعادة الرفع بواسطة
مكتبة عسكر
ask2pdf.blogspot.com